

تشارلز سيميك

ذبابة في الحساء

ترجمة إيمان مرسال

سيرة

ذبابة في الحساء

سيرة ذاتية

تشارلز سيميك

ترجمة إيمان مرسال



A Fly in the Soup
By Charles Simic
Copyright © by the University of Michigan 2000

ذبابة في الحساء
سيرة ذاتية
الطبعة الأولى : ٢٠١٦
رقم الإيداع ٢٠١٦/٢٦١٣٥
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٣-٠١٠-٥
الغـــــلاف : حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة .
تليفـــون : ٢٠٢٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ٢٠٢٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني : www.kotobkhan.com



فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
سيميك، تشارلز
ذبابة في الحساء : سيرة ذاتية / تأليف : تشارلز سيميك، ترجمة إيمان مرسال. — ط١ . ـ القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦
٣١٨ ص ، ٢٠ سم
تدمك : ٥ — ١٠ — ٠١٠ — ٨٠٣ — ٩٧٧ — ٩٧٨
١ ـ سيميك، تشارلز — مذكرات
٢ـ الشعراء الأمريكيون
أ ـ مرسال، إيمان (مترجم)
ب ـ العنوان
رقم الإيداع : ٢٦١٣٥ الطبعة الأولى ٢٠١٦

١

قصتي قصة قديمة وأصبحت الآن مألوفة. لقد تشرّد كثيرٌ من الناس في هذا القرن. أعدادهم مهولة ومصائرهم الفردية والجماعية متنوعة، سيكون مستحيلاً أن أدّعي تميّز وضعي كضحية، أنا أو أي شخصٍ آخر، إذا أردتُ الصدق. خاصةً أن ما حدث لي منذ خمسين سنة يحدث لآخرين اليوم. رواندا، البوسنة، أفغانستان، كوسوفو، والأكراد المهانون ـ بصورة لا تنتهي ـ وهكذا يستمر الحال. قبل خمسين سنة كانت الفاشية والشيوعية، الآن هناك القومية والأصولية الدينية مما يجعل الحياة لا تطاق في أماكن كثيرة. في الآونة الأخيرة ـ على سبيل المثال ـ كنت أترجم قصائد من سراييفو لأنطولوجيا شعرية، واجه محرّروها صعوبات كبيرة في العثور على الشاعرة التي كتبتها. لقد اختفت. هي لم تكن مغمورة، كان لديها الكثير من الأصدقاء، لكن لا أحد يعرف ما حدث لها في فوضى الحرب.

"مشردون" هو الاسم الذي أطلقوه علينا في ١٩٤٥، وهذا كان وضعنا بالفعل. تخيّل أنك تجلس وتشاهد قنابلَ تسقط في بعض الأفلام الوثائقية القديمة، أو جيوشاً يُحارب بعضها البعض، قرى ومُدناً تتصاعد منها النيران والدخان، لا يخطر ببالك الناس المتكدسون في الأقبية. لقد دفع السيد البريء والسيدة البريئة وأسرتاهما ثمناً باهظاً في هذا القرن لمجرد وجودهم هناك. "مدانون تاريخياً" ـ كما كان يحب الماركسيون أن يقولوا ـ ربما انتموا إلى طبقة خاطئة، جماعة عرقية خاطئة، دين خاطئ، إلى آخره. هم كانوا وما زالوا تذكيراً غير سار بكل أخطاء اليوتوبيات الفلسفية والقومية. لقد جاءوا بخِرقهم البالية ومناظرهم التعسة ويأسهم، جاءوا فرادى وجماعات من الشرق، هاربين من الشرّ بدون أية فكرة عمّا ينتظرهم. لم يكن لدى أحد في أوروبا ما يسدّ رمقه، وهنا جاء اللاجئون المتضورون جوعاً، مئات الآلاف منهم في قطارات، مخيّمات، وسجون، يغمسون خبزاً يابساً في حساء مائي، يبحثون عن قمل في رؤوس أطفالهم، ويندبون، بمختلف اللغات، مصيرهم المروّع.

أسرتي، مثل أسر أخرى عديدة، تمكنت من أن ترى العالم مجاناً، والفضل يعود لحروب هتلر وسيطرة ستالين على أوربا الشرقية. نحن لم نكن متعاونين مع الألمان، ولا كنا من المنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية، كما لم نكن بأي معنى من المنفيين السياسيين. عديمي الأهمية كُنا، لم نقرر

شيئا لأنفسنا. كل شيء رتبه قادة العالم في وقتها. كالكثير من النازحين لم يكن طموحنا يتعدى حدود مدينتنا بلجراد. كنا على ما يُرام مع ذلك. اتفاقيات عُقدت حول مجالات النفوذ، حدود أعيد ترسيمها، وما يسمى بالستار الحديديّ تم إسداله، ونحن رحَّلونا مع أغراضنا القليلة. ما زال المؤرخون يوثقون جميع الخيانات والرعب الذي واجهناه كنتيجة لمؤتمر يالطا وغيره، والموضوع أكبر من أن ينتهي.

كما هو الحال دائماً، كان هناك تفاوت في درجات الشرّ وتفاوت في درجات المأساة. لم تتعرض أسرتي لمعاناة مُريعة كالآخرين. أعاد الحلفاء إلى ستالين مئات الآلاف من الروس الهاربين ضد إرادتهم، كان الألمان قد جلبوهم قبل ذلك قسراً ليعملوا في مصانعهم ومزارعهم. قُتل بعضهم والبقية تم شحنها إلى معسكرات السُّخرة حتى لا يُلوثوا بقية المواطنين بما اكتسبوه حديثاً من مفاهيم رأسمالية منحطة. توقعاتنا كانت أكثر ورديّة. تمنّينا أن ينتهي بنا الحال في الولايات المتحدة أو كندا أو أُستراليا. لم يكن ذلك مضموناً. كانت أسهم معظم بلاد أوربا الشرقية منخفضة على عكس بلاد أوربا الغربية. السُلاف الجنوبيون، كانوا في عيون خبراء الجينات الأمريكيين وواضعي قانون الهجرة من الأعراق غير المرغوب فيها إطلاقاً.

من الصعب على الذين لم يمروا بالتجربة أن يفهموا حقاً ماذا يعني

ألا يكون لديك الوثائق اللازمة. نقرأ كل يوم عن ضباط الهجرة لدينا وكيف يستخدمون ويسيئون استخدام سلطاتهم لإعادة أجانب مشبوهين من الحدود الأمريكيّة. لا يجب الاستهانة بحجم السعادة في إذلال العاجزين. حتى عندما كنتُ طفلاً، كان بوسعي أن أدرك حدوث ذلك. أينما وُجِدَ البيروقراطيون، تصبح الدولة البوليسية المثال الأعلى.

أتذكر الوقوف في طوابير لا نهاية لها أمام مقر البوليس في باريس من أجل استلام أو تجديد تصريح الإقامة. يبدو ذلك وكأنه كان كل ما نفعله عندما كنا نعيش هناك. ننتظر نهاراً كاملاً فقط لنكتشف أن القوانين قد تغيّرت بعد زيارتنا الماضية، أنهم الآن يطلبون ـ على سبيل المثال ـ شيئاً على قدر من العبث مثل وثيقة زواج والدي أمي أو شهادة تخرّجها من المدرسة، هذا على الرغم من أنها في طريقها للحصول على شهادة فرنسية لأنها أنهت دراستها العليا في باريس. وبينما كنا نقف هناك نتأمل استحالة ما يطلبونه منا، كنا نستمع إلى شخص أمام الشباك المجاور يحاول أن يقول بفرنسية ركيكة كيف احترق بيتهم، كيف غادروا مهرولين بحقيبة واحدة صغيرة، وهلم جرا، إلى أن يهز الضابط كتفيه ويشرع في إعلامه أنه إذا لم يُقدّم الوثائق فوراً فسيتم إلغاء تصريح الإقامة.

هكذا، ما الذي كنا نفعله؟ حسنٌ، عندما يكون الجو لطيفاً كنا

نذهب لنجلس على دِكّة شارع نشاهد الباريسيين المحظوظين وهم يتنزهون، يحملون المشتروات، يدفعون عربات أطفالهم، يُمشّون كلابهم، وحتى وهم يُصفّرون. في بعض الأحيان يقف أمامنا اثنان ليتعانقا، بينما نحن نلعن الفرنسيين وحظنا التعس. في النهاية نُجرجر أقدامنا بتثاقل إلى غرفتنا الصغيرة بالفندق ونكتب رسائل للأهل.

بالطبع، لا يصل البريد بسرعة. كُنا نُجَن يومياً ولمدة أسابيع في انتظار ساعي البريد الذي لم يكن يتحمّل رؤيتنا لأننا كنّا نضايقه، مع ذلك، وبشكل ما، كانت الوثائق تصل، بفضل قريب ما من بعيد. ولا بد من ترجمتها بعد ذلك على يد مترجم مُعتمد، يكون عادة غير قادر على التفرقة بين رأس وذيل طيّات الورقة ذات الخمسين عاماً من مدرسة في مقاطعة في البلقان أو من دفتر تسجيل كنيسة. في كل الأحوال، كنا نعود إلى الطابور الطويل فقط لنكتشف أن هذه الوثائق لم تعد مهمة، ولكن وثيقة أخرى أصبحت مطلوبة. في كل مكتب لجوازات سفر، في كل قسم بوليس، في كل قنصلية، يوجد مكتب وخلفه موظف حذر سيئ المزاج يشتبه في أننا ندعي غير حقيقتنا. لا أحد يحب اللاجئين. أن تُسمّى "مُشرّداً" يعني أن يزداد وضعك سوءاً. المسئولون الذين يقابلوننا لا يعرفون من أين أتينا ولماذا، ولكن هذا لم يمنعهم من إصدار حكمهم علينا. قد يجلب لك قدراً من التعاطف أن تكون مطروداً بسبب النازية، أما أن تُغادر بلدك بسبب الشيوعية فهذا

ما يصعب قبوله. إذا كان المسئولون يساريين، فسيقولون لنا بفظاظة إننا تُعساء ناكرو جميل، إننا تركنا خلفنا أكثر المجتمعات تقدماً وعدالة على وجه الأرض. الآخرون حسبونا مجرد رعاع بشهادات مزيفة وماضٍ مشبوه. حتى الدُمى المبتسمة خلف فتارين المحلات في شارع فيكتور هيجو الأنيق عاملتنا وكأننا هناك لنسرق شيئاً. في الحقيقة كان الأمر بسيطاً للغاية: إما أننا كنا سنحصل على موطئ قدم هنا أو في مكان آخر، أو سنعود إلى مخيم للاجئين، أو الأسوأ، إلى "التجسيد الكامل لشوق الإنسان العميق للعدالة والسعادة" كما اعتاد العالم الشيوعي أن يوصف في بعض الأماكن.

الهجرة، المنفى، أن تكون بلا جذور وأن تصبح منبوذاً، ربما يكون ذلك أكثر الطرق المبتكرة لإقناع الفرد بالطبيعة الاعتباطيّة لوجوده أو وجودها. لسنا في حاجة إلى طبيب نفسيّ أو مُرشد روحيّ طالما أن كل من نقابلهم يسألوننا من أنتم بمجرد أن نفتح أفواهنا ويسمعون اللكنة.

الحقيقة أننا لم نملك إجابات واضحة. بعد ترجرجنا في القطارات المخيفة وفوق الشاحنات والسفن التجارية المتهالكة، أصبحنا لغزاً حتى لأنفسنا. في البداية، كان ذلك صعباً علينا، ولكن بمرور الوقت بدأنا نعتاد على وضعنا الجديد. بدأنا نستطعمه ونستمتع به. بدا لي شخصياً

أن كونك لا أحد أكثر إثارة من أن تكون شخصاً ما. الشوارع كانت مليئة بأولئك الأشخاص المهمين وهم يصنعون أجواء الثقة حولهم. نصف الوقت كنت أحسدهم، نصف الوقت كنت أنظر إليهم في شفقة. لقد كنت أعرف شيئاً لم يعرفوه، شيئاً من الصعب معرفته إذا لم يركلك التاريخ بقوة في مؤخرتك: كيف يبدو الأفراد غير ضروريين وعديمي الأهمية ضمن أي صورة كبيرة! كيف أن هؤلاء القُساة لا يفهمون احتمال أن يكون ذلك هو مصيرهم أيضاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢

عندي صورة لوالدي وهو يلبس بدلة سوداء ويحمل خنزيراً صغيراً تحت إبطه. إنه في مركز الصورة وبجانبه امرأتان جميلتان في فستاني سهرة قصيرين وضحكة جميلة في عيونهما السوداء. هو أيضاً يضحك. فم الخنزير مفتوح ولكنه لا يضحك.

إنه حفل رأس السنة. السنة هي ١٩٢٨ ويبدو أنهم في أحد الملاهى الليليّة. عند منتصف الليل أُطفئت الأنوار وأُطلق سراح الخنزير. أثناء الهرج والمرج قبض والدي على الخنزير المتألم. أصبح ملكه. بعد تشجيع الناس، أخذ حبلاً من النادل وربط الخنزير برجل الطاولة.

زار والدي والمرأتان عدداً من الأماكن الأخرى في تلك الليلة. وذهب معهم الخنزير وهو مربوط بالحبل. لقد أجبروه على شرب الشمبانيا معهم وعلى لبس قبعة الحفلات. بعد سنوات عديدة سيسميه والدي "الخنزير المسكين".

عند الفجر كان والدي وحده مع الخنزير يشربان في بار متواضع بالقرب من محطة السكة الحديد. إلى الطاولة بجانبهما كان هناك كاهن سكران يكلّل عروسين. رفع الشوكة والسكين في وضع صليب ليبارك الزوجين. بعد ذلك أهداهما والدي الخنزير كهدية لزواجهما. الخنزير المسكين.

لكن هذه ليست نهاية القصة. ففي ١٩٤٨، عندما كان والدي في طريقه إلى أمريكا ونحن نتضور جوعاً في بلجراد، اعتدنا أن نقايض ممتلكاتنا بالطعام. بإمكانك أن تحصل على دجاجة مقابل حذاء رجالي بحال جيد. قايضنا الساعات والفضيات ومزهريّات الكريستال وأطباق الصيني بلحم ودهن الخنزير والسجق وأشياء من هذا القبيل. في إحدى المرّات، طلب غجريٌّ قبعة والدي الرسمية. لم تكن على مقاسه. مقابل هذه القبعة التي غطت عينيه عندما جرّبها، ناولنا بطة حية.

بعد ذلك بأسابيع جاء أخوه ليرانا. بدا ثريّاً. سنّة أمامية من الذهب، ساعتان، واحدة في كل يد. الآخر، كما يبدو، كان قد انتبه لبدلة سهرة سوداء عندنا. في الواقع كنا نترك هؤلاء الناس يتجولون بين الغرف يقيّمون البضائع. يتصرفون كأنه بيتهم، يفتحون الأدراج، ينظرون في الخزانات. يعرفون أننا لن نعترض. كنّا جوعى.

على أي حال، أحضرت أمي بدلة سهرة ١٩٢٦. كان باستطاعتنا أن نرى فوراً كيف وقع الرجل في غرامها. في البداية، عرض علينا في مقابلها دجاجة ثم دجاجتين. لسبب ما تمادت أمي في عنادها. الأعياد

على الأبواب. لقد أرادت خنزيراً رضيعاً. غضب الغجري، أو مثّل أنه غاضب. الخنزير أكثر مما ينبغي. لكن أمي لم تستسلم. عندما تصمم فهي تساوم بضراوة. بعد ذلك بسنوات في دوفر نيوهامشر، راقبتها وهي توصل بائع أثاث إلى شفا الجنون. عرض عليها أن تأخذ الكنبة مجاناً فقط ليتخلّص منها.

الغجريّ كان أكثر تشدّداً. غادرنا. بعدها بأيام عاد ليُلقي نظرةً أخرى. وقف يحدّق في البدلة عند أمي كأنه يريد أن يتخلّص منّا. نظر ونظرنا. في النهاية، تنفّس الصعداء كرجلٍ يتخذ قراراً صعباً ولا رجعة فيه. حصلنا على الخنزير في اليوم التالي. كان حيّاً ويشبه إلى حد كبير الخنزير في الصورة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣

في البدء... كان الراديو على طاولة بجانب سريري. كان له زر تحكّم يُضيء، ثم تظهر أسماء المحطات. لم يكن باستطاعتي القراءة بعد فكنتُ أسأل الآخرين أن يقرأوها لي. هناك أوسلو، لشبونة، موسكو، برلين، بودابست، مونت كارلو، وغيرها الكثير. تضع السهم الأحمر موازياً للاسم، فتسمع لغة غريبة وموسيقى غير مألوفة. في العاشرة، تتوقف المحطات عن البث. الحرب مستمرة. العام هو ١٩٤٣.

لقد أمضيت ليالي طفولتي مع هذا الراديو، إنني أُرجع الأرق الذي صاحبني طوال حياتي لسِحره. لم يكن ممكناً أن أبعد يديّ عنه. حتى بعد أن تتوقف المحطات عن البث. أستمرُّ في تحريك زرّ التحكّم وأدرس الأصوات المختلفة. مرة سمعت صفارات شفرة مورس. فكرت أن هناك جواسيس. أحياناً كنت ألتقط محطة بعيدة خافتة ويكون عليّ أن أضع أذني على النسيج الخشن الذي يُغطي مركز الصوت. أحياناً كانت تندلع موسيقى رقص أو تكون اللغة جذابة جداً فأستمع إليها مدة طويلة،

وأشعر أنني على وشك أن أفهمها.

كل ذلك كان ممنوعاً منعاً باتاً. كان من المفروض أن أكون نائماً. أفكر في ذلك الآن، ربما كنت خائفاً من الوحدة في تلك الغرفة الكبيرة. الحرب مستمرة. البلاد محتلة. أشياء فظيعة تحدث في الليل. كان هناك حظر تجول. أحدهم كان متأخراً. شخصٌ آخر في الغرفة المجاورة يمشي جيئة وذهاباً. ستائر من الورق الأسود معلقة على الشبابيك. كان شيئاً مرعباً أن تنظر من خلالها إلى الشارع. الشارع الخالي المظلم.

أتخيل نفسي وأنا أمشي على أطراف أصابعي ويدي على الستارة، أريد أن أنظر ولكني خائف من انعكاس الضوء الخافت للراديو على جدار غرفة النوم. والدي متأخر والثلج يغطي السطوح في الخارج.

في ٦ أبريل ١٩٤١، كان عمري ثلاث سنوات، في الخامسة صباحاً ضربت قنبلة المبنى المقابل من الشارع مما أدى إلى اشتعال النار فيه. بلجراد التي وُلدتُ فيها، لديها تميز مريب فقد قصفها النازيون في عام ١٩٤١، والحلفاء في عام ١٩٤٤، والناتو في عام ١٩٩٩.

تراوح عدد القتلى في ذلك اليوم من أبريل ـ والذي أطلق عليه الألمان "عملية عقابية" ـ بين خمسة وسبعة عشر ألفاً، وهو أكبر عدد من القتلى المدنيين في يوم واحد خلال العشرين شهراً الأولى من الحرب. كانت المدينة قد تعرضت لأربعمائة قاذفة وأكثر من مئتي طائرة مقاتلة في يوم أحد الشعانين بينما يزداد عدد سكان العاصمة بزوارها من

الأرياف. أياً كان العدد الحقيقي، فلقد حوكم المارشال الكسندر لور على هذا القصف المرعب وشُنق في ١٩٤٥.

أظن أحياناً أنني لا أذكر شيئاً عن ذلك القصف، وأحياناً أتخيل نفسي على الأرض وهشيم الزجاج حولي. الغرفة ساطعة الإضاءة وأمي تركض نحوي وذراعاها مفرودتان على اتساعهما. حكوا لي بعد ذلك أنني طِرت من سريري عبر الغرفة وسقطت، وأن أمي التي كانت تنام في الغرفة المجاورة وجدتني عندها. كلما حاولت أن أطلب منها تفسير ما حدث كانت ترفض مكتفية بواحدة من تنهداتها المعتادة ونظراتها الساخطة. ليس غريباً أن هذه الذكرى كانت مؤلمة بالنسبة لها، بالتأكيد كانت كذلك. ما أغضبها وجعلها لا تجد كلمات تُعبّر بها كان ذلك الغباء المخيف في كل ما حدث. كان والدي يقبل بالقتال من أجل قضية عادلة. هي، في الطرف الآخر، لم تتراجع أبداً عن قناعتها بأن العنف وخصوصاً هذه الدرجة من العنف ليس إلا غباء. والدها نفسه كان عقيداً أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكنها لم يكن عندها أوهام. الحرب تقوم على أيدي رجال قُساة بصفوف من الميداليات تغطي صدورهم التي لم تكبر أبداً. إذا ذكرت انتصار الحلفاء لأمي، فستذكرك بعدد الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن من الجانبين.

عندي ذكرى ضبابية أخرى لنيران ساطعة ثم عتمة تامة وأنا محمول على السلالم في هرولة إلى المخبأ. حدث هذا كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية، لذا ربما كانت تلك حادثة أخرى. ما أدهشني بعد ذلك

بسنوات، بينما أتابع مشاهد فيلم تسجيليّ ألمانيّ عن القصف، أني رأيت مشهداً عابراً لشارعنا ولعدّة مبانٍ مُدمّرة في الحي. لم أدرك حتى تلك اللحظة كم من القذائف أمطرت فوق رأسي ذلك الصباح.

مات أناسٌ كثيرون في البناية التي تقع في الجهة المقابلة من الشارع، بما فيهم أسرة كان لها صبي في عمري، وبسبب ما، عاد الموضوع لذهني مجدداً بعد ذلك بسنوات. قيل لي مرات ومرات كم كانت أسرة طيبة وكم كان الصبي وسيماً وأن ملامحه كانت تشبه ملامحي بعض الشيء. وجدت ذلك مخيفاً. لكن القصة أُعيد سردها بغُلالة من النسيان كأن لها صلة ما بي. ليس عندي فكرة كيف كانت ملامحه، كما لا أتذكر كيف كانت ملامحي في هذا السن الصغير. لكني ظللت أتخيله بوضوح بينما أنا أكبر كأنه كان شريكي في اللعب.

هل كان العالم حقاً رمادياً وقتها؟ في ذكرياتي المبكرة كان العالم دائماً في أواخر الخريف. الجنود رماديون، وهكذا كان الناس.

الألمان يقفون في الزاوية. نحن نمرّ بجانبهم. تهمس أمي: "لا تنظر إليهم". نظرتُ إليهم على أي حال، وواحد منهم ابتسم. لسبب ما أخافني ذلك.

في ليلة جاء رجال الجستابو لاعتقال والدي. فتشوا كل مكان محدثين ضجة كبيرة. ارتدى والدي ملابسه بالفعل. كان يقول شيئاً، ربما كان ينكّت. تلك كانت طريقته؛ مهما كان الوضع قاتماً، كان يجد

شيئاً مضحكاً ليقوله. بعد سنوات عديدة، محاطاً بالأطباء والممرضات بعد تعرضه لأزمة قلبية خطيرة، أجاب على سؤالهم "كيف تشعر الآن يا سيدي؟" بـ "أتمنى أن أطلب بيتزا وبيرة". ظن الأطباء أنه أصيب بتلف في المخ. كان عليّ أن أشرح لهم أن هذا هو سلوكه الطبيعي.

عدتُ للنوم على الأرجح بعد أن أخذوا والدي. لم يحدث شيءٌ في تلك المرة على كل حال. أفرجوا عنه. لم يكن ذنبه أن أخاه الأصغر سرق شاحنة من الجيش الألماني ليأخذ صديقته في نزهة. الألمان كانوا مندهشين، تقريباً مذهولين من الجرأة. أرسلوه للعمل في ألمانيا. لقد حاولوا، ولكنه تسلّل من بين أصابعهم.

وفّر لنا زمن الحرب ملاءٍ للرياضة وزحاليق وبيوتاً خشبية وحصوناً ومتاهات يمكن العثور عليها في ذلك الخراب عبر الشارع. كان هناك جزء قد تبقى من الدرج، كنا نصعد بين الحطام وفجأة تظهر السماء! سقط ولد صغير على رأسه ولم يعُد أبداً لما كان عليه. منعتنا أمهاتنا من الاقتراب من الدمار، هدّدننا، حاولن أن يشرحن المخاطر الكثيرة التي تنتظرنا، مع ذلك كنا نذهب. نجلس بسعادة بين أطلال غرفة طعام شخصٍ ما بالدور الثالث، يأتينا من الشارع تحتنا صياح واحدة من أمهاتنا وهي تشير إلينا بينما ابنها يهرول إلى أسفل مجاهداً في تذكر أين كان يضع قدميه أثناء الصعود.

كنا نلعب جنوداً، استمرت الحرب. نزلت القنابل. ولعبنا جنوداً.

أطلقنا النار على بعضنا البعض طوال النهار. طاخ طخ طيخ. سقطنا قتلى على الرصيف. ركضنا في الزحام مقلدين صوت الطائرات المقاتلة وهي تغطس وتقب.

ثم أصبحنا حاملات قذائف. أسقطنا أشياء من الشباك أو البلكونة على الناس في الشارع. أتذكر قراءتي مرة في دليل الجيش أن الجاذبية الأرضية هي صديقة القنبلة. القنابل إما تُحمل تحت الجناح أو توضع في مقصورة خاصة داخل الطائرة. بالنسبة لنا، كان علينا فقط أن نفرد أذرعتنا، نزيد من سرعة المواتير، وندور كمروحة هوائية ونحن نحمل شيئاً في أيدينا حتى يتم التخلص من حمولتنا. أحد أصدقائي كان عنده نظارات جيش واقية، وكان يسمح لنا باستعمالها أحياناً. لقد كانت تجعل قصف الشارع تحتنا أكثر واقعية.

يخرج صوت الطيخ طاخ طبيعيّاً من جنس الذكور. من النادر أن تأتي هذه الضوضاء بالشكل الصحيح من فتاة. ألقينا الحصى على العابرين تحتنا، الطوب على القطط والكلاب الضالة، مدّعين أننا نسقط قنابل أمريكية على النازيين. بعد خمسين عاماً ما زلت أذكر الخبث والمتعة المحرمة في القيام بذلك. الآن حيث تتوفّر ألعاب الفيديو يُمكن للواحد أن يتمثّل الناتو قاصفاً يوغوسلافيا، الأطفال يناقشون بدراية أنواع القنابل مسترشدين بالليزر وكاميرات التليفزيون. أظن أن فكرتنا عن المعنى الحقيقي لقصف بناية كانت أكثر واقعية، مع ذلك لم نتوقّف. كُنّا بلا عقل مثلنا مثل جنرالات اليوم وهم يضغطون الأزرار ويتابعون

شاشة الكمبيوتر منتظرين بحماس نتيجة ما قاموا به.

بدأ البريطانيون والأمريكيون قصف بلجراد يوم أحد الفصح، ١٦ أبريل ١٩٤٤. الرواية الرسمية الصادرة عن القوات الجوية الأمريكية تتحدث عن قاذفات ثقيلة "تستهدف قصف لوفتواف وأهداف جوية أخرى 'بحوالي ٣٩٧ طناً من القنابل'. تقول أيضاً: "نسبة إلى أحد التقارير، فإن عمليات ١٧ أبريل تسببت في بعض الأضرار لمنطقة سكنية تقع شمال غرب بلجراد/ زيمون أرديروم. ويبدو أن معظم الدمار الذي حصل خلال اليومين، كان ذا طبيعة عسكرية". إنها كلمة "يبدو" المُدرجة بحكمة في التقرير، إنها بيت القصيد وجوهر المسألة.

بدأ كل شيء قبل تناول الغذاء، مائدة الطعام كانت قد أعدت بأناقة؛ أحسن ما عندنا من صيني وفضيات. عندما وصلت الطائرات كان باستطاعتنا أن نسمع أزيزها حتى قبل أن تنطلق صفارات الانذار. الشبابيك مفتوحة على اتساعها حيث كان اليوم ربيعياً معتدلاً. أتذكر والدي وهو يصيح من البلكونة "الأمريكيون يرمون بيض عيد الفصح". بعدها سمعنا صوت الانفجار الأول. ركضنا نازلين إلى ذلك المخبأ الذي ما زالت بعض شخصياته الأصلية ترتعد حتى اليوم. اهتزت البناية. سدّ الناس آذانهم. كان باستطاعة المرء أن يسمع صوت تهشّم زجاج في مكان ما فوقه. اختفى ولدٌ يكبرني بقليل. اتضح أنه تسلل للخارج ليشاهد القنابل وهي تسقط. عندما أعاده الرجال بدأت أمه تصفعه وتؤنبه بشدة، كانت تصرخ فيه أنها ستقتله إذا خرج مرةً أخرى. كنت

مرعوباً من صفعاتها أكثر من رعبي من القنابل.

في لحظة ما انتهى الأمر. خرجنا نجُرّ أقدامنا بتثاقل. المتحمسون للقصف الجوي إما يعجزون عن تخيّل حقيقة ما يحدث على الأرض، أو أنهم عطلوا خيالهم. الشارع كان مظلماً مع بعض اللهب هنا وهناك. الغبار والدخان يملآن الجو، بدا وكأن الليل قد حلّ بالفعل. خرج رجلٌ من العتمة وهو مغطى بضمادات تتساقط. حكى لنا أن أحد الأحياء المجاورة قد تم تسويته بالأرض. كان ذلك عاديّاً. الواحد منا كان يسمع أكثر الإشاعات غرابة ومبالغة في أوقات كهذه. آلاف القتلى، جثث ملقاة في كل مكان، وهلم جرا. كان الحيّ الذي يتحدث عنه هو أحد أفقر الأحياء في المدينة. لم يكن فيه أهداف عسكرية. لم يكن ذلك مُبرَّراً حتى لطفل.

في اليوم التالي للغارة الأولى في ١٩٤٤، جاءت الطائرات مرة أخرى، وبنفس الطريقة "ألقت حوالي ٣٧٣ طناً من القنابل على بلجراد/ ساحات سافا مارشالنج"، وأضاف التقرير الرسمي أن "هذا الهجوم تسبّب في دمارٍ عظيم في عربات الركاب والبضائع، نيران كثيفة، مخازن مشتعلة، دمار عظيم لمحطة الركاب الرئيسية، دمار مماثل لجسر سكة الحديد على نهر سافا ... إلخ. لا يُوجد ما يشير إلى حدوث تفجيرات خارج الأهداف العسكرية خلال هذه العملية". في الحقيقة، لقد سقطت قنبلة على الممشى أمام بنايتنا ولكنها لم تنفجر.

في بعض الليالي كان والدي يرفض النزول إلى المخبأ ويبقى في فراشه، في حين كانت أمي تصيح عليه من الدرج لينزل. هي كانت مع إخلاء المدينة فوراً؛ بينما اعتقد أبي أن العيش في الريف لا يقل خطورة مع الحرب الأهلية التي في طريقها للاشتعال. هكذا ومع غرابة الأهداف العشوائية لحلفائنا فقد تساوت مخاطرة الهروب مع مخاطرة البقاء. طوال ربيع وصيف ١٩٤٤ كنا نرحل إلى الأمام أو إلى الوراء مشياً على الأقدام. أتذكر صفوف اللاجئين على الطريق، الألمان يفحصون الوثائق ويرعبون الجميع أكثر وأكثر. اليوم طبعاً هناك تليفزيون يسجّل وينشر مثل هذه المشاهد التعيسة.

في ١٩٧٢ قابلت أحد الرجال الذين قصفوني في ١٩٤٤. كنت قد قمت بأول رحلة لبلجراد بعد عشرين عاماً تقريباً. بمجرد عودتي إلى الولايات المتحدة، ذهبت إلى تجمّع أدبي في سان فرانسيسكو حيث قابلتُ بالصدفة الشاعر ريتشارد هيوجو في مطعم. تحدّثنا، سألني كيف قضيتَ الصيف، أخبرتُه أنني عدت للتو من بلجراد.

قال: "آي نعم، بإمكاني أن أرى هذه المدينة جيداً"

دون أن يعرف خلفيتي، انطلق يرسم على مفرش المائدة، بقطع الخبز وبقع النبيذ، موقع المبنى الرئيسي لمكتب البريد، الكباري على نهريّ الدانوب والسافا، وبعض المعالم الأخرى الهامة. دون أية فكرة عن معنى ذلك، مفترضاً طوال الوقت أنه زار مرة المدينة كسائح،

سألته كم من الوقت قضى في بلجراد.

أجابني: "لم أزرها أبداً، أنا فقط قصفتُها عدة مرات"

اندفعت قائلاً وأنا مذهول من المفاجأة، لقد كنتُ أنا هناك وقتها وأنني أنا من كان يقوم بقصفه. أصبح منزعجاً للغاية. في الحقيقة، اهتزّ بشدّة. بعد أن توقف عن الاعتذار وهدأ قليلاً، سارعتُ أؤكد له أنني لا أحمل ضغينة ضده وسألته ما هو السبب في أنهم لم يقصفوا مقر الجستابو ولا أي مبنى آخر حيث كان يتواجد الألمان. شرح لي هيوجو أن الغارات الجوية كانت تنطلق من إيطاليا، مستهدفة أولاً حقول النفط الرومانية، التي كانت لها أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للنازيين حيث كان يتم الدفاع عنها بضراوة. في كل غارة جويّة كانوا يفقدون طائرة أو اثنتين، ومع ذلك كله، في طريق عودتهم لإيطاليا، كان عليهم أن يتخلصوا من حمولاتهم فوق بلجراد. حسنٌ، كانوا في غاية الحذر. يطيرون على ارتفاع عالٍ ويلقون ما تبقى من الحمولات بأي طريقة ممكنة، في سباق ليعودوا إلى إيطاليا، حيث يقضون بقية اليوم على الشاطئ مع بعض الفتيات المحليات.

أكدتُ لهيوجو أن ذلك بالضبط ما كنت سأفعله لو كنتُ مكانه، لكنه استمر يطلب الغفران ويبرر موقفه. لقد كبر في منطقة قاسية في سياتل، في أسرة فقيرة من الطبقة العاملة. أمه كانت مراهقة وكان عليها أن تتخلّى عنه بمجرد ولادته. بَدونا كلاعبين صغيرين مرتبكين في أحداث أكبر من سيطرتنا. هو على الأقل اعترف بمسئوليته عما فعل،

هذا ما لا نسمع به في حروب اليوم الآمنة حيث الموضة هي تحميل مسئولية الأخطاء على التكنولوجيا. هيوجو كان رجلاً يتمتع بالنزاهة، واحداً من أفضل الشعراء في جيله، وقد يبدو غريباً أنني لم يخطر ببالي أن ألومه على ما قام به. مع أني كنت على الأرجح سأبصق في وجه ذلك الغبي الذي قرر الموافقة على طلب تيتو بأن يضرب الحلفاء مدينة مليئة هي نفسها بالحلفاء يوم عيد الفصح. مع ذلك، اندهشتُ عندما كتب هيوجو قصيدة وأهداها لي. كيف تكون الأمور معقدة إلى هذه الدرجة، كيف تفشل محاولاتنا لمقاومة الشكوك غير المعلنة والتي لا يمكن فهم جحيمها على الإطلاق.

رسالة إلى سيميك من بولدر

عزيزي تشارلز: هكذا تقابلنا مرةً في سان فرانسيسكو وأعرفُ
أنني قصفتك منذ زمن طويل في بلجراد عندما كنتَ في الخامسة.
أتذكّر. كان هدفنا جسراً على نهر الدانوب
نأمل أن نُحاصر جيوش الألمان بينما هي تفرّ من اليونان إلى الشمال،
ضيّعنا الهدف. ليس هذا من غير المعتاد، بما أنني كنت واحداً من المهاجمين.
لم يكن باستطاعتي أن أضرب مؤخرتي
حتى لو جلستُ على جهاز التحكّم أو امتطيت قنبلةً ونزلت وأنا
أغني النشيد الوطني الأمريكي.

أتذكّر بلجراد تتفتّح مثل وردة عندما وصلنا.
لا مدفعيّة مضادة للطائرات. لم أعرف شيئاً عن المقاصل اليوميّة، الثمانين ألف سُلافي الذين تدلّوا من الحبال الألمانية في المدينة، كعبرة للآخرين.
كان كل همي أن أبقى على وجه الحياة، تلك اللحظة
تخفّفت الطائرة من حمولة القنابل ونحن عُدنا.
أية لغة كنت تتحدث وقتها؟ الصربية، على ما أعتقد. وماذا كان عقلك يفعل بالعواء الرهيب للقنابل؟ ما هي كلمة "خوف" بالصربيّة؟
يجب أن تكون هي الكلمة نفسها بالإنجليزيّة، عويل بدائيّ طويل
لأطفال يحتضرون، نظرة طفلٍ مُثبتةٍ للأبد في الموت.
أنا لا أعتذر عن الحرب، أو لما كنتُهُ. كنتُ مشوشاً وقتها عن طيب خاطر.
أظن أنني حتى آمنتُ بالبطولة (للآخرين، وليس لنفسي)، صدقتُ في ضرورة ذلك العالم المُعذّب،
آملاً أنه سيتعلّم ألا يفعل ذلك مرةً أخرى.
لكني كنت صغيراً. العالم لا يتعلّم أبداً.
التاريخ لديه طريقة لجعل الماضي مقبولاً، لجعْل الموتى وهماً.
عزيزي تشارلز، أنا سعيدٌ أنك نجوتَ من القنابل، أنك
تعيش معنا الآن وتكتب قصائد. لا بد لي أن أخبرك مع ذلك،
لقد استغربت ذلك اللقاء في سان فرانسيسكو. ظللت أكرر لنفسي،

كان على الأرض في ذلك اليوم، صفار السماء المخيف
ومحرّكاتنا تقصف كل شيء في طريقنا.
في لحظات كهذه يصبح العالم صافياً للناجين.
العالم يصبح صافياً كسحاب الصيف، كالبياض النقي المنفوخ،
طيورٌ ناعمة تمرق وتدخل وتخرج،
أمام حياتنا فرصة لأن تنجرف ببطء فوق العالم،
مخازن القنابل فارغة، الهدف منسيّ، العدوّ يتم تجاهله.
لطيف أن أقابلك أخيراً بعد الكراهية بدون سبب. المرة القادمة،
إذا أردت أن تتأكد من نجاتك، اجلس على الجسر الذي
أحاول ضربه ولوّح لي. أنا قادم على الطريق الصحيح لكني
قلقٌ وعدسة مسدسي ترفرف.
آمن أنتَ، أينما كنتَ على الأرض. أما أنا فأصوّب ناحية الهدف
ولكن قنابلي من الحلوى وقد تُهتُ عن الطائرة التي ترشدني.

صديقك دِك.

كان لجدّي بيت صيفيّ غير بعيد عن بلجراد. عندما وصلنا إلى هناك بعد يومين من القصف، وجدنا أفراد أسرة والدي مجتمعين بالفعل. يتناقشون طوال الوقت.

بالإضافة للاحتلال الألماني، اشتعلت الحرب الأهلية في يوغوسلافيا. كان هناك على الأقل نصف دزينة من فصائل الملكيّين

والشيوعيين والفاشيين، وآخرين من مختلف المشارب، جميعهم يذبحون بعضهم البعض. أسرتنا كانت منقسمة بعنف بين الملكيّين والشيوعيين. ظل جدّي محايداً. كانت جميع الفرق سواء في رأيه.

لم تقل أمي شيئاً. لم تكن تحب أسرة والدي. لقد جاءت من أسرة عريقة من الطبقة الوسطى، بينما كانوا من الطبقة العاملة. كانت قد درست في باريس، بينما هم يجلسون ويسكرون في الحانات. هكذا كانت تنظر إليهم. من المدهش أنها ارتبطت بوالدي رغم ذلك. والدي كان قد التحق بالجامعة فأصبح في ذلك الوقت مهندساً ناجحاً، ولكنه تبنّى نفس النظرة الدونية لعالم أمي.

لم يمض وقت طويل حتى غادرنا والدي. في أحد الصباحات مشيتُ معه أنا وأمي إلى إحدى المحطات الصغيرة المزدحمة. على جانب الطريق نظر إلينا، على جانب الطريق احتضننا، أدركتُ أنها رحلة غير عادية. لم يقل لي أحدٌ شيئاً. ستمرّ عشر سنوات قبل أن أراه ثانية. يسألني الناس "أين والدك؟" ولم يكن باستطاعتي أن أخبرهم. كل ما عرفته أمي في ذلك اليوم أنه كان يحاول الذهاب إلى إيطاليا، ولم تصل أخبار عنه لمدة طويلة.

أقمنا مع جدّي. جاء الصيف. استمرّ قصف بلجراد بين حين وآخر. كان باستطاعتنا رؤية الطائرات عالياً فوق المدينة. يُطلّ بيتنا على مُرتفع على نهر سافا والمنظر جميل من تلك الناحية. تصعد أعمدة الدخان مع سقوط القنابل. نجلس في الحديقة نأكل البطيخ، نأكل

بشراهة بينما نتفرج على المدينة وهي تحترق. لم تكن أمي وزوجة جدّي تتحملان مشاهدة ذلك فتذهبان للداخل مع الكلب الذي لم يكن هو الآخر يحب ذلك المنظر. يُصرّ جدّي أن أجلس بجانبه. يُقطّع لي الجبن ويعطيني رشفة من النبيذ الأحمر بينما نصغي لأصوات الانفجارات المكتومة. لم يقل شيئاً، ولكني ما زلت أتذكّر تلك الابتسامة على وجهه. كانت لوالد والدي نظرة سوداء للجنس البشري. من وجهة نظره، نحن جميعاً نُزلاء في مستشفى للمجانين. أحداثٌ كهذه تؤكد ما كان يعتقده بالفعل. في نفس الوقت، كانت هناك الروائح الليلية لحديقة ريفية تتفتّح، النجوم في السماء، صمت قرية صغيرة. لا طيور تزقزق، لا قطط تتعارك، لا كلاب تنبح. فقط جدتي، تفتح من وقت لآخر الباب الأمامي فيُحدِث صريراً وتتوسّل إلينا أن نذهب إلى الداخل.

نمت أعشاب الحديقة ونباتات عباد الشمس الطويلة. كنت أختبئ بينها، رغم أن الأفاعي كانت هناك، خاصة في كوم الصخور تحت شباكي. أجلس على الدرج وأتحدث إليها بينما هي تهسهس لي. مرة رميت حجراً على إحداها، لم يُصبها، لكني ارتعبتُ أنها ستأتي في نفس الليلة لتزورني في سريري.

نمتُ وتجوّلتُ عارياً. كان الجو حاراً للغاية. النهر على مقربة لكننا لا نستطيع أن نُنزل أقدامنا فيه. فقد طفت فيه جثث. يتم اصطياد إحداها كل عدة أيام. لم يهتم بعض الناس وظلوا يسبحون فيه. في أحد

المساءات رأيت بعض الشابات في ملابسهن الداخلية يرشُشن بعضهن بالماء تحت شجر الصفصاف، لكن عندما اقتربت لألقي نظرة مدققة، رأيت مسلحين جالسين تحت الظلال يدخنان في صحبتهن على ما أظن.

لسببٍ ما كنت وحدي في تلك المرة. لم يكن مسموحاً لي بالتجول وحدي معظم الوقت. العالم كان مليئاً بالأشرار. اعتدى رجلٌ على طفل في مثل سني يعيش في الجهة المقابلة من الشارع بأن عضّه في عنقه. حدث ذلك في وضح النهار بينما الطفل يقف أمام باب بيته.

لأيام بطولها لم أفعل شيئاً باستثناء البقاء في غرفتي ألعب. أتذكر استلقائي على الأرض وعيني في عين إحدى الدُمى من الجنود أو مراقبتي للذباب وهو يتسكع على السقف. عدا هذه المشاهد المتفرقة، لا أتذكر بم كنت أفكر أو بماذا كنت أشعر.

في إحدى الليالي تم تفجير مصنع للذخيرة على بُعد عدة أميال. وقعتُ من السرير مرة أخرى. أُضيئت الغرفة. تحوّل الليل إلى نهارٍ. جلسنا حتى الفجر نشاهد السماء المشتعلة. في الصباح كان هناك تحرّك كبير لقوات عسكرية. ذهبوا في كل الجهات يصادرون ما تبقى هناك من حيوانات منزلية. بعد ذلك، لم يعد باستطاعتنا أن نسمع قوقأة دجاجة أو صياح ديك.

اشتدّتْ المعارك. تحرّك الجيش الروسي من جنوب رومانيا بمحاذاة

الدانوب في طريقه إلى بلجراد. على المستوى المحليّ، كانت الفصائل السياسية والمسلحة تحرز أهدافاً. كان هناك الكثير من القتل العشوائي. بعد أن رأيت جثثاً في قناة على جانب الطريق بالقرب من البيت، لم يعد مسموحاً لي بالخروج على الإطلاق. تم إعدام جيراننا في داخل بيتهم. اختفى تماماً سكان الجهة الأخرى من الشارع. لم يُصبنا سوء. تتهادى أمي حولنا حبلى عن آخرها. لم يكن لها في السياسة مثلها مثل جدّي. بالطبع هذا لا يفسر الأمر؛ كنا فقط محظوظين على ما أظن.

حلّ الارتياح بمجيء الروس أخيراً. على الأقل الآن هناك فقط قوتان تتعاركان. تراجع الألمان إلى الجهة الأخرى من النهر. يمكن للواحد أن يراهم يقومون بأشغالهم، يُركِّبون بعض قطع المدفعية. للروس أيضاً مدافعهم وهي فوق بيتنا تماماً. كان واضحاً أنه إذا بدأ الجانبان في ضرب النار فسنكون نحن في المنتصف بالضبط.

حُبلى كما كانت، قررت أمي أن نهرب إلى قرية أبعد قليلاً إلى الشمال بعد الهضبة حيث عندنا بعض المعارِف. انسحب جدّي وجدتي إلى القبو.

إنه منتصف ١٩٤٤. بدا الطريق إلى القرية خالياً وكذلك بيت مزرعة صديقنا، وجدنا عجوزاً صامتة أعطتنا بعضاً من لبن الماعز. جلسنا طوال ذلك اليوم في المطبخ مع هذه المرأة الصامتة منتظرين أن يعود معارِفنا. أتذكّر الإحباط، الضوء الرمادي في الشباك، وأمي تعاود تذكيري بأن أظل هادئاً.

سمعنا خطوات قرب الغسق. رجلٌ ذو هيئة متوحشة ودماء على وجهه أخبرنا ـ بدون حتى أن يتوقف ـ أن الألمان قادمون وأنهم يقتلون كل من في طريقهم. لم يكن أمامنا إلا أن نُسرع بالعودة إلى بيت جدّي. ظلت العجوز مكانها. عُدنا إلى الطريق الخالي المحاط بشجر الحور. كان الهدوء تاماً حتى أنه كان بإمكاننا أن نسمع خطواتنا السريعة. فجأة بدأت الطلقات. شظية عبرت فوقنا. جذبتني أمي إلى الأرض وألقت بنفسها فوقي. ثم ساد الهدوء مرة أخرى. فقط نبض قلوبنا. توقّف الرصاص.

رفعنا رؤوسنا بعد وقت طويل. انتهى كل شيء، انقشعت الغيوم من السماء وبعض النجوم الأولى كانت في أماكنها. قمنا ببطء ووقفنا تحت الظل العميق للأشجار، ثم استأنفنا طريقنا تحت جناح الظلام. عندما وصلنا كان جدّي يجلس إلى طاولة، يشرب كأساً مع ضابط روسيّ ويبتسم لنا ابتسامة عريضة.

بدأت مغامرات الحرب بالنسبة لي في اليوم الذي حرّر فيه الروس بلجراد. كنا قد عدنا إلى شقتنا عبر أنقاض القتال والحشود المحتفلة لأن أمي أرادتْ أن تكون قريبة من طبيبها. استطاعت بشكلٍ ما في اليوم التالي أن تجد لنفسها سريراً في مستشفى لتستكمل مدة حملها. أدركتُ فيما بعد أنها أقامت هناك شهراً. تعهّدتْ برعايتي إحدى خالات أمي. القريبة الوحيدة التي لا تزال في المدينة.

نانا كانت بطة العائلة السوداء. كان هناك همس أنها خدعت زوجها العجوز، أنها كانت تُبذّر أمواله باستهتار، وتتلفظ بكلمات

بذيئة. هذا ما كنت أحبه فيها، تلك المرأة الأنيقة الجميلة اعتادتْ أن تسبّ بوقاحة وبلا خجل.

لم تكن لديّ أدنى فكرة أين زوج نانا، ولماذا لا تزال تقيم في المدينة. خمنت أن لديها أسبابها الخاصة. إنه اليوم الثاني بعد التحرير وما زال هناك ألمان صامدون في الحي، يقاتلون. لدهشتي تركتني أخرج إلى الشارع وحدي. بالتأكيد كان هناك أطفالٌ آخرون، لكن رغم هذا، كان ذلك غريباً. غالباً ما كنت أعود إلى البيت ولا أجد أحداً. ثم أراها عائدة إلى البيت، بملابسها الأنيقة، تمشي فوق الرصيف على نثار الزجاج والجص مرتدية القفازات والكعب العالي. تفرح لرؤيتي ويكون معها شيءٌ خاصٌ من أجلي لآكله، بعض الأطعمة الشهية التي لم نسمع بها من قبل مثل شوكولاتة محشوّة بالمكسرات أو سجق مُدخّن.

للغرابة، لم تكن تخرج أبداً في الليل. لا أتذكر ماذا كنا نفعل في تلك الأمسيات. بنايتنا كانت تقريباً خالية، النور كان مقطوعاً معظم الوقت. لم يكن هناك ما نفعله سوى النوم لساعات طويلة. في أحد الصباحات، صحوتُ مبكراً ورأيت خالتي تغسل ثدييها في دلو ماء بارد. انتبهتْ أني أشاهدها والتفتتْ. انفجرتْ في الضحك ورقصتْ قليلاً كما هي، عارية.

كنتُ سعيداً أنا وأصدقائي لأن عندنا أشياء لنفعلها طوال اليوم. لا توجد مدارس، وأهالينا إما غائبون أو مشغولون. جُبنا الحيّ، تسلقنا الأطلال، وراقبنا الروس وأنصارهم أثناء العمل. ما زال هناك قناصون

ألمان والكثير من المعدّات العسكريّة في كل مكان. عندما نسمع الطلقات نبدأ في الجري. اختفت المسدسات ولكن بقيت أشياء أخرى. حصلتُ لنفسي على خوذة ألمانية. وارتديت أحزمة ذخيرة فارغة. وامتلكتُ حربة.

في يوم كنت أجلس مع صديق أمام بنايتنا عندما مرّ طابورٌ من الأسْرى الألمان تصطحبهم جُنديات. قالت إحداهن بمرح: "أهلاً يا أولاد، تعالوا نطلق النار على بعض الألمان". حسنٌ، لم نقل شيئاً. في الحقيقة، أشك في أنني أبديتُ أي ردّ فعل. تعلّم الواحد مبكراً أن يكون متحفظاً وحذراً. لا تتطوع بمعلومات. اخرس، وأشياء من هذا القبيل. مشينا خلفهم حتى زاوية الشارع ثم رجعنا. أتذكر واحداً منهم، طويلاً، أشقر، مستقيماً مثل عصا المقشة. بدا الألمان الآخرون محدودبين بالمقارنة.

بعد ذلك ذهبنا على كل حال. كانت هناك مقابر عتيقة فيها كنيسة ضخمة وخلفها ساحة من المفترض أن تتم فيها عمليات إطلاق النار. قابلنا مجموعة أطفال في الطريق أخبرونا أنهم من السيرك. هذا كان صحيحاً. لقد كان هناك خيمة للسيرك في الساحة خلال السنوات الأولى من الحرب، لم يعد هناك إلا عدة مقطورات على طرف الساحة. هؤلاء الأطفال كان منظرهم عجيباً. يلبسون أغرب الملابس ـ غير متناسقة، ومقاساتها غير مناسبة ـ وكانوا يرطنون بلغة أجنبية فيما بينهم.

قال صديقي الذي كان قد قابلهم من قبل: "أرني ما يمكنك القيام به". مكرهين، وقف ولد صغير على يديه، ثم رفع أحدهما عن الأرض وظل لدقيقة واقفاً على يد واحدة. انحنتْ بنت صغيرة نحيفة عيناها سوداوان وشعرها داكن إلى الوراء حتى خرج رأسها من بين رِجليها.

همس صديقي: "ليس في أجسادهم عظام". فكرتُ أن الموتى ليس عندهم عظام، يقعون مثل أجولة الطحين.

استمرت الحرب. استوطن الألمان في شمال بلجراد، في الناحية الأخرى من نهر سافا والدانوب. ترك الروس المعارك لليوغسلاف بينما تقدموا باتجاه شمال المجر. تم تجنيد كل البالغين من الرجال، والمعارك كانت رهيبة. أصبحت بلجراد مدينة الجرحى. ترى أناساً بعكازات في كل زاوية. يمشون ببطء، أحياناً يحملون وعاء فيه تموينهم اليومي. هناك مطابخ حِساء خيريّة تقدّم لهؤلاء الناس وجباتهم.

مرة، وبينما صديق يطاردني، استدرتُ في زاوية شارعنا بأقصى سرعة، فاصطدمت بواحد من هؤلاء المعوقين وأرقتُ حساءه على الرصيف. لن أنسى أبداً نظرته لي. قال بلطف: "يا ولد". كنتُ مذهولاً فلم أقل شيئاً. لم يخطر ببالي حتى أن ألتقط عكازه من الأرض. رأيته يقوم بذلك بنفسه وبصعوبة شديدة.

سمعنا أثناء ذلك الوقت أن أخاً لأمي أُصيب أيضاً. قصته لا يصدقها عقل، كما عرفتُ بعد ذلك. في البداية كان يحارب مع

الملكيّين، وأسره الشيوعيون، وبينما يقف في الصف ووجهه للحائط في انتظار إطلاق الرصاص عليه، تلقى العفو عنه شريطة أن ينضم إليهم. انضم إليهم. حارب مع الشيوعيين خلال الشهور الأخيرة للحرب.

أما عن إصابته، فقد حاصره الألمان مع جنديين آخرين في بيت ريفيّ. تراهنوا فيما بينهم مَن سيسلّم نفسه أولاً. خالي كان الأخير. انطلق الرجل الأول خارجاً بعد تردّد كبير ليأسره الألمان على الفور. حدث الأمر نفسه مع الرجل الثاني رغم أنه استطاع أن يجري لمسافة طويلة في اتجاه الغابة. لم يكن أمام خالي خيارٌ سوى أن يتبعه. في لحظة ما وبينما يجري شعر بدفء شديد. كان الجو شتاء؛ الأرض كانت مغطاة بالثلج. بعدها فقد الوعي.

عندما أفاق وجد نفسه مستلقياً عارياً وحافياً في البيت الريفي بينما سُرقت معظم أشيائه وهناك جُرح عميق في أعلى إحدى فخذيه. قام وخرج متعثراً، بعد ذلك بقليل وصل إلى طريق، في نهاية المطاف - من الصعب بالنسبة له أن يُخمّن كم من الوقت انقضى - جاء رجلٌ عجوز في عربة بحصان، ألقى عليه بطانية، وأخذه معه. فجأة - ما زلت لا أستطيع تصديق ذلك - قُتل العجوز. أصابته رصاصة طائشة، سقط للخلف حيث كان يقبع خالي. لحسن الحظ، استمرّ الحصان في الجري، وفي النهاية وصلوا حيث يوجد بعض الروس الذين أخذوه إلى وحدة طبية وتم إنقاذه.

الآن تبدأ المهزلة التراجيدية، الروس في تلك الأيام كانت عندهم

طريقة واحدة لعلاج أي ساق إصابتها خطيرة: بتْرها. قالوا لخالي إنهم سيقومون بذلك. حزن خالي لدرجة أنه بكى بينما يذكّره الأطباء بمرح أنه ما زالت لديه الساق الأخرى. على كل حال، ربطوه على طاولة عمليات الوحدة وتجهزوا لبتر الساق عندما انقلبت الدنيا رأساً على عقب. قنابل يدوية، قذائف تطير. انهارت الخيمة. جرى الجميع للخارج وتركوه هناك. عندما توقّف الضرب عادوا ولكنهم لم يكونوا في مزاج مناسب للقيام بالعملية. انتهى به الأمر، بشكل ما، في مزرعة حيث تم علاجه على نحو ممتاز على يد أناس طيبين يعيشون فيها، وهكذا، نهاية القصة.

عندما ولد أخي وجاء مع أمي من المستشفى إلى البيت، كنت منخرطاً في تجارة مسحوق البارود. تم الأمر على هذا النحو؛ كان عند الكثير منّا نحن الأطفال مخابئ للذخيرة جمعناها أثناء معارك الشوارع. يُباع مسحوق البارود من هذه الطلقات للأولاد الأكبر الذين ـ كما سمعت ـ يبيعونها بدورهم للصيادين على نهر الدانوب. الجزء الأخير غير أكيد. "البيع" كلمة غير دقيقة بالضرورة. قايضنا مسحوق البارود بكتب هزلية قديمة، لُعب، معلّبات، والله يعلم ماذا أيضاً. أتذكّر على وجه الخصوص معلّبات لحم أمريكية لذيذة كنت ألتهمها كلها وحدي، جالساً في شمس الشتاء خلف كنيسة سانت مارك البيزنطية العظيمة.

لا أعرف كم من الوقت استمرّ هذا. كانت عندي سلة غسيل كبيرة مخبأة في القبو ومليئة بطلقات الذخائر. استخراج مسحوق البارود

كان يتم بالطريقة التالية: تحشر أعلى الرصاصة في فتحة صنبور المطبخ ثم تنزع غطاءها من الجنب حتى ينفصل عنها. السرية التامة كانت مطلوبة بالطبع. لم يكن عند أمي أدنى فكرة كيف أقضي وقتي مع أنها كانت في حيرة بسبب بعض اللعب اللطيفة التي امتلكتها فجأة. لقد كانت مشغولة بالمولود الجديد، وأنا كنت بالفعل متمرّساً على الكذب. ثم فقد طفلٌ من حارتنا ذات يوم كلتا يديه. كان يحاول إزالة بعض عيدان مسحوق البارود السوداء الطويلة من قذيفة مدفعية. هذا ما قاله لي، بينما أنا أحاول تفادي النظر إلى مواضع البتْر الملتئمة حديثاً.

بدأتُ المدرسة في ربيع ١٩٤٥ ولكني لا أتذكر عنها الكثير. علمني والداي كيف أقرأ مبكرًا، اجتزت سنوات الدراسة الأولى. لم تكن الفصول خلال ذلك الربيع منتظمة. في كل الأحوال كانت اهتماماتي في مكان آخر. كانت الشوارع مليئة بالأطفال شبه المهمَلين. عصابات في طريقها للتكوّن. شخصيات أسطورية جعلت أحياء كاملة تعيش في رعب. لا يستطيع المرء أن يذهب إلى المدرسة من الطرق المباشرة. كان هناك أعداء في كل مكان ينتظرون فقط شخصاً مثلي أن يقع تحت أيديهم.

كنا نمشي مجموعات في كل مكان، ولكن أحياناً لم يكن أمامي إلا أن أذهب وحدي. عرفتُ كل فناء خلفي في منطقتي بالمدينة حيث يمكن للواحد أن يعبر في الخفاء. مع ذلك، أمسكوا بي وضربوني عدة مرات. لا توجد أسباب، فقط لأنني من منطقة أخرى. الفكرة كانت ألا تبكي

لأن بكاءك يجعلهم في غاية السعادة. قمنا بالشيء نفسه مع أولاد من مناطق أخرى بمجرد أن ضبطناهم في منطقتنا.

عندما تكون صغيراً، لا تستطيع أن تدخل معارك ضارية، لهذا يُستحسن أن تكون سريعاً في الجري. لحسن الحظ كنت سريعاً، وكان هذا جيداً، فقد كان هناك من يحاول أن يضربني دائماً. على وجه الخصوص، طفل أكبر مني من منطقتنا. هذا ما حدث: كان ذاهباً مع شابين آخرين إلى السينما، وكان معه علبة لحم بقريّ ـ أو ما شابه ـ وأرادني أن أحفظها من أجله. لا توجد مشكلة، كنت سعيداً بأن أتحمل المسئولية. هكذا قبلتُ، بعد ذلك أراد باقي الأولاد أن نلعب الكرة في الشارع، فقررت أن أخبئ العلبة. ذهبتُ إلى بنايتنا، تأكدت أن لا أحد يراقبني، ثم انعطفتُ إلى خلف البناية، عند مدخل السرداب حيث يوجد ما يشبه برميلاً كبيراً وكومة من الأثاث في أحد الأركان. وضعت علبة اللحم خلف البرميل. انضممت إلى أصدقائي لألعب الكرة في الشارع بعد أن تأكدت مرة أخرى أن أحداً لم يرني.

عاد صاحب علبة اللحم من السينما بعد ذلك بساعات وطلبها مني. جريتُ لأُحضرها. عندما وصلتُ إلى خلف البرميل في العتمة، اكتشفتُ لرُعبي أنه لا يوجد لها أثر على الإطلاق. شيء لا يُصدّق! كان هذا مستحيلاً! حرّكت الأثاث من جانب الحائط لدرجة أنني حرّكت البرميل الثقيل، رغم ذلك لم أجد شيئاً. إنه لغزٌ غامض. حاولت أن أخبر صاحبها الذي ينتظر بنفاذ صبر في الخارج. لم يصدقني

بالطبع، بدأ في لكمي هنا وهناك بينما أنا أقسم ببراءتي.

أما بالنسبة للعلبة، فلم أعرف أبداً من الذي سرقها وكيف. مرت ببالي خلال السنوات، أستعيد كل تفصيلة، أتذكّر حذري وتمهلي، حتى صوتها وأنا أضعها على الأرضية الأسمنتية. أفضل تفسير هو أن أصدقائي كانوا يتبعونني، لكن، إذا كان أحدهم قد قام بسرقتها، لكان حكى لي بعدها بسنوات، لأني فتحت الموضوع كثيراً، من أجل تسليتهم جميعاً: غموض اختفاء علبة سيميك من لحم الجيش الأمريكي. كلهم ظنوا أني أكلتها.

كان عند أمي ما يقلقها. لم تكن هناك أخبار من والدي. لم نعرف أنه وصل إلى إيطاليا وأن الألمان اعتقلوه لأنهم ظنوه جاسوساً. ظل في سجن في ميلانو عدة شهور حتى حرره الأمريكيون. لم تكن لديه رغبة في العودة إلى بلجراد فقد كان لا يحب الشيوعيين، كما أنه لم يكن منسجماً مع أمي. قبل الحرب كان يعمل في شركة أمريكية وكان عنده علاقات عمل أمريكية وأراد دائماً أن يرى أمريكا.

توفرت أسباب كثيرة أخرى للقلق. الشيوعيون كانوا راسخين في السلطة. يجري اعتقال الناس في اليمين والشمال. الكل خائف. كان هناك تلقين أيديولوجي في المدرسة.

أتذكر مجيء شاب ليتكلم معنا عن الشيوعية. قفز موضوع الدين في الكلام. قال إنه لا يوجد إله وسألنا إذا كان بعضنا ما زال يؤمن أن

هناك إلهاً. التزمنا الصمت ما عدا طفلاً صغيراً نحيفاً قال إنه يؤمن بالله. سأل الرفيق الطفل: "ماذا يستطيع الله أن يفعل؟". قال الطفل: "كل شيء". قال الرفيق: "حسنٌ، إذا طلبت منه أن يساعدك في حمل هذه الطاولة، هل سيقوم بذلك؟". قال الطفل وهو يتطلّع إلى الطاولة الثقيلة: "لن أطلب منه ذلك". أصرّ الرجل: "لماذا لا؟". أجاب الطفل بصوت مسموع بالكاد: "سيكون من الغباء أن أطلب منه ذلك".

هكذا انتهى الأمر. لكن كانت هناك أمور أكثر خطورة. في أحد الأيام سألنا نفس الشاب عما إذا كان أهلنا في البيت يشكون من النظام الجديد. لم يقل أحدٌ شيئاً هذه المرة. عندما حكيتُ لأمي ما حدث أخبرتني بعبارة لا لبس فيها، أنها ستقتلني إذا قلتُ شيئاً. في كل الأحوال هي لم تكن لتترك الأمر للصدفة. لقد كان البالغون يسكتون وينظرون لي كلما دخلت الغرفة. كان لديّ ما يكفي لأشعر بالذنب، ولا بد أنه كان بادياً على وجهي، لهذا يبدأ عادة استجواب طويل: "ماذا قلتَ لهم؟"، "أقسمُ، لا شيء"! وهكذا.

أيضاً، بدأت حياتي في الشارع تصبح أكثر تعقيداً. أتسكّع مع أولاد أكبر مني. نمارس السرقة. نسرق من أجل الربح ولمتعة السرقة نفسها، أي شيء يمكن أن نضع أيدينا عليه ويبدو ذا قيمة. كنتُ عادةً من يقوم بالخطف، حيث كنت أصغرهم وأسرعهم. أتذكّر أن رجلاً طاردني ورفع البلطة عليّ لأنني أخذت منفاخ دراجته من خلف البيت بينما كان ظهره لي. أتذكّر دخول دكان أخطف شيئاً من على المنضدة،

وأهرب. كان ذلك عاديّاً. لم يكن هناك الكثير في هذه الدكاكين. معظم الأطعمة كانت تمويناً شهريّاً. إذا أخذت حصّة شخصٍ ما من السكر فأنت تقوم بجريمة لا تُغتفر.

هذا يذكّرني أن بعض الناس كانوا يحتفظون بالدجاج والخنازير إذا استطاعوا الحصول عليها في شققهم. أظن أنهم كانوا خائفين من تركها في الأفنية خلف بناياتهم. سيكون عليهم أن يعينوا حارساً عليها على مدار الساعة. ربما كان ذلك حتى ضد القانون.

كان ذلك يحدث سراً. تكون هناك شائعة أن فلاناً الفلاني عنده خنزير في الحمّام. المفروض، عندما يكبر الخنزير، أن يتركوا له غرفة المعيشة، وأن ينتقلوا هم أنفسهم إلى الحمّام. الشائعات تكون هكذا على كل حال.

أمي كانت تحب الفضائح. الشقة المُشتبه فيها كانت تؤول في الماضي إلى مدرس بيانو. الآن يسكنها بعض الفلاحين الأجلاف ولكن البيانو ما زال هناك. استمرت أمي في القلق على البيانو، متخيلة الخنزير وهو ينام تحته أو يهرش ظهره على قوائمه. فكرتُ أن هذا مضحك للغاية.

لكن الأمر لم يعد مضحكاً. عندما سمع أصدقائي بالموضوع، اقترحوا علينا سرقة الخنزير. كان من المفروض أن أتسلق شرفة الدور الثالث عندما يكون السكان في العمل، أفتح الباب الأمامي، وأترك

العصابة تدخل وتحرر الخنزير. فكرة مقابلة الخنزير أخافتني ربما أكثر من فكرة التسلق. تخيلته ضخماً جداً. خنزيراً وحشيّاً له حدبة تصل إلى السقف. من يعرف ما الذي كان يمكن أن يحدث إذا لم نكن قد سافرنا في ذلك الوقت.

سمعتْ أمي أن أبي حيٌّ وبخير في تريستي. قرّرتْ أن نلحق به بأسرع ما يمكن. كانت الحدود بين إيطاليا ويوغوسلافيا ما زالت مفتوحة، حيث يتنازع البلدان على المنطقة حول تريستي. لم يكن أمامنا إلا أن نعبر متسللين ولكن ذلك كان خطيراً. بالطبع من الممكن أن تُعتقل، أن تُطلق عليك النيران أيضاً. أمي لم يكن عندها أوهام حول هذا ومع ذلك شعرت أن عليها أن تحاول.

غادرنا بلجراد إلى الساحل في خريف ١٩٤٥. استمرت رحلة القطار إلى الأبد. ما زالت القضبان في حالة سيئة. رأينا طوال الطريق قطارات خارجة عن قضبانها ومحطات مقصوفة. رأينا جنوداً في كل مكان وزحاماً شديداً من أناس يحاولون اللحاق بالقطار. مع أن الألمان كانوا قد ذهبوا إلا أن حضورهم ما زال قويّاً. كنا صربيين في كرواتيا، حيث قضى الفاشيون الكرواتيون الحرب يبيدون الصربيين. لم نكن نفتح فمنا.

فكرت أنه نفس القطار الذي استقله أبي. ما أراه الآن، كان قد رآه. هذه المجموعة من الأشجار على سبيل المثال، أو هذا البيت المرتفع

على الهضبة. قضينا الليلة في فندق في زغرب. أتذكر الشوارع الخالية سيئة الإضاءة. كان الوقت متأخراً. غرفتنا صغيرة وباردة. كل شيء بدا مختلفاً. لم نعد في نفس البلد.

في اليوم التالي، عندما وصلنا (أوبشي فيياما) ذلك المنتجع النمساوي المجري، الذي كان أنيقا في يوم ما، سمعنا أن الحدود مغلقة. مع ذلك، إذا كانت لديك واسطة فيمكنك أن تعبر الحدود بشكل غير قانونيّ. لهذا انتظرنا.

أقمنا في فندق ساحليّ قديم له سقفٌ عال مزخرف وثريّات من الكريستال ومرايا في كل مكان. نتناول وجباتنا في قاعة واسعة شديدة النظافة. قاعة الطعام كانت شبه خالية وتطل على البحر الرماديّ. أتساءل من وقتها مَن هم النزلاء الآخرون. كانت هناك غلالة من السريّة تغلفهم، لا يتحدثون مع بعضهم البعض، ونادراً ما يتجاوبون مع إيماءاتنا. يمكنني أن أتمشى لساعات في الطرقات دون أن أقابل أحداً أو أسمع صوتاً. مرة سمعت عويلاً، عويلاً مكتوماً، حتى أنني وضعت عيني على ثقب المفتاح لكني لم أستطع رؤية شيء. كان هناك فقط البحر الرماديّ من باب البلكونة المفتوح وصمت الفندق حولي. لقد توقّفت المرأة عن البكاء.

عُدنا إلى بلجراد، لكن أمي كانت عنيدة. عثرتْ على رجلٍ يعرفُ شخصاً موثوقاً به ويستطيع ـ في مقابل نقود ـ أن يأخذنا عبر الحدود إلى

النمسا. لم تقل لي شيئاً. كنتُ أظن أننا سنقضي إجازة الصيف في جبال سلوفينيا. مرة أخرى، وجدنا أنفسنا في شاليه أنيق نصف خالٍ، نصحو متأخرا ونتمشى طويلاً في الجبال.

في إحدى الأمسيات مشينا أطول مما اعتدنا. جلسنا على صخرتين في الغابات، وأخبرتني أمي أن هذه هي الليلة التي سنذهب فيها إلى أبي.

كان الظلام دامساً عندما جاء رجلٌ ليأخذنا إلى بيت ريفيّ حيث ينتظرنا مسلّحان. قضينا بقية الليلة نتسلق الجبال وأمي تحمل أخي الرضيع بين ذراعيها. أعطوه شيئاً لينام. كان علينْا أن نلتزم أقصى درجات الهدوء، حتى ونحن نأخذ راحة قصيرة.

لم نكن قادرين على الرؤية معظم الطريق. طلع القمر عندما عبرنا الحدود في ساعات الصباح الأولى. كنا في جانب الهضبة بينما يوغوسلافيا تحتنا. جلسنا على الحشيش وتحدثنا للمرة الأولى في تلك الليلة، دخن الرجلان وكان هذا خطأ كما سيظهر بعد ذلك. سمعنا شخصاً يصرخ بكلمات ألمانية. واحد من الحارسين قفز على قدميْه وأطلق النار ثم انطلق كلاهما هاربين في اتجاه يوغوسلافيا، تركانا وحدنا. بعد برهة طويلة، كان هناك صراخ آخر بالألمانية. أجابت أمي في هذه المرة، وفي لمح البصر جاءوا من بين الأشجار. كنا بين أيدي حرس الحدود الأمريكيين النمساويين وهذا أسعدنا للغاية.

أخذنا الأمريكيون إلى ثكناتهم حيث قضينا بقية الليلة. في الصباح

رأيت لأول مرة الجيش الأمريكيّ. كان بعض الجنود من السود وهذا فتنني. جميعهم كانوا ودودين، أعطونا اللبان والشيكولاتة. أكلنا مع الحشد في القاعة الضخمة فطوراً كبيراً من البيض ولحم الخنزير المقدد. حتى أنه كان هناك كوكاكولا! بدت أمي أسعد من أي وقت آخر رأيتها فيه. كانت تلك هي الجنة.

بدأت مشاكلنا عندما سلّمنا الأمريكيون إلى الجيش البريطانيّ الذي كان يحتل تلك المنطقة. سأل عقيد في الجيش أمي بصرامة عن جوازات سفرنا. ضحكت أمي. بعد مسيرتنا ليلة في الجبال أصبحت ملابسنا في حالة يُرثى لها، كما تغطت أيدينا ووجوهنا بالخدوش. حاولت أمي أن تستخدم خفة دمها. قالت له بأفضل ما عندها من إنجليزية، لو كان عندنا جوازات سفر لكنّا بالتأكيد أخذنا عربة نوم في قطار. الرجل لم يُعجبه هذا. ضاعت كل تفسيراتها وشروحها في آذان صمّاء. الذي فعله بعد ذلك ـ وكان رعباً ومفاجأة كبيرة بالنسبة لنا ـ أنه قادنا إلى الحدود وسلّمنا لخفر الحدود اليوغسلاف. حيّاهم، حيّوه، وعدنا إلى يوغوسلافيا معتقلين.

لم نكن نعرف بالطبع أن مثل هذه الأشياء كثيراً ما تحدث. كان الإنجليز يُعيدون أسرى الحرب الروس أو أي شخص من أوربا الشرقية يقع في أيديهم. تضرّع الناس لهم، رموا أولادهم من القطارات، انتحروا. لم يهتم الإنجليز بما يحدث. رفيقهم ستالين شحن الجميع إلى معسكرات السُخرة، حيث، لقي الكثيرون حتفهم بالطبع.

وضعُنا لم يكن مأساويّاً. نقلونا طوال الأسبوعين التاليين من سجن إلى سجن، حتى وصلنا إلى بلجراد. بعض الأوقات كانت مثالية كأن نمشي على أقدامنا عبر جبال سلوفينيا البديعة مع حرّاسنا ونتوقف في بعض بساتين الطريق الجانبية لنأكل التفاح. في أوقات أخرى تكون الزنازين مكتظة، ويكون هناك شخصيات سحنتها شريرة. أتذكر رجلاً عجوزاً طويلاً قالوا إنه قتل عدّة أشخاص. كان طوال اليوم يقف في وسط الزنزانة وعيناه مغمضتان. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه أو أن يتكلم بجانبه بأكثر من الهمس.

في بلجراد أخذونا وسلّمونا أنا وأخي إلى يد جدّتي، بينما ظلت أمي في السجن لأربعة شهور أخرى. كان دفاعها أنها ببساطة أرادت أن تكون مع زوجها وأنهم لم يعطوها الأوراق القانونية اللازمة لذلك. هذا كان حقيقيّاً، ولكن على الأرجح لم يكن ذلك هو السبب في الإفراج عنها. لقد كانت السجون في ذلك الوقت مملوءة بمَن عندهم قصص سياسية أكثر خطورة. لم نكن مهمين. صفعوا أمي على وجهها عدة مرات منها مرة أمامنا، وكان ذلك كل ما حدث.

أما بالنسبة لي، فقد استمتعتُ بوجودي في السجن. وضعوني مرتين مع الرجال. كان ذلك صعباً بالنسبة لأمي لأنها خافت أن نفترق وألا تراني مرة أُخرى. يتم فتح أبواب الزنازين في ساعة منحوسة من الليل، حيث يأخذون الناس للاستجواب، وهذا الطفل يُدفع به للداخل. المساجين كانوا مذهولين. الزنازين مكتظة. يقومون بإخلاء

مكان لي، يتأكدون أن عندي أغطية كافية. أرادوا أيضاً أن يسمعوا قصتي. كنتُ مُكرهاً. جعلت حشرات الفراش النوم مستحيلاً. كنت في مركز الانتباه. في البيت، أيضاً، أراد الأقارب والأصدقاء أن يستمعوا إلى ما حدث. ليلة بعد ليلة، أعدتُ تمثيل معركة المسدسات وعمليات ضرب أمي أمام كل هذه الوجوه المتجهمة الضجرة، مخترعاً تفاصيل خيالية أكثر وأكثر، حتى أنهم بدأوا يسخرون في آخر الأمر مني، فتوقفت.

٤

طفولتي فيلمٌ بالأبيض والأسود. مساءات ممطرة، وشوارع إضاءتها خافتة. تأخذني أمي من يدي إلى قاعة سينما كئيبة ويكون العرض قد بدأ بالفعل؛ يركض ولد في طريق زراعيّ بينما السماء ملبدة بغيوم سوداء، لاحقاً ينحني الولد على قبر شخص ما وهو يزيل الأعشاب الضارة بينما الرياح تنتحب بين الصلبان والأشجار العارية. بعد ذلك يزور عجوزاً غريبة الأطوار تجلس على ثوب زفافها فوق طاولة عفنة، طعام مُغطّى بخيوط عنكبوت. وكانت الفئران تدخل وتخرج من كعكة العُرس الكبيرة. الأكثر من كل ذلك، كانت هناك فتاة جميلة تمزح مع الولد بقسوة، وهو سيقبلها مرة على السلالم المعتمة.

لقد كانت عصور الظلام التي وصفتها لكم، أشياء حدثت منذ خمسين سنة. ذاكرتي ضعيفة وكل شيء يبدو وكأنه تحت إضاءة خافتة وظلال كثيفة. حتى صباحات الصيف الجميلة تفتقد الإشراق الذي لا بد أنه كان هناك. والليالي ثقيلة مثل أحلام يستيقظ الواحد منها مضطرباً

وغير قادر على تذكّر ما جرى. هل يحدث هذا للجميع يا تُرى؟

الكتابة تعيدها. هناك منطق تقسيم الزمن الذي يجبر الناس على التفكير في تتابع الأحداث. هناك أيضاً منطق المخيّلة. صورة تستحضر الأخرى بدون تسلسل أو سبب. ربما هناك كثير من الأسباب والروابط الخفيّة. عليّ أن أصدق ذلك. وإلا كيف أستطيع أن أشرح لماذا ذكرني الفيلم بعلامات وأشياء أخرى؟

في تلك الأيام البعيدة، اعتادت النساء رتق الجوارب في المساء. وجود مَزق في جوربك كان يُعدّ كارثة. الرتق كان مكلفاً جداً، وكذلك كانت الكهرباء. كن يجلسن حول طاولة ليس عليها إلا مصباح واحد، جدتي تقرأ الجريدة، ونحن الأطفال نتظاهر بالقيام بواجباتنا المدرسية بينما نراقب أمي وهي تفرد أظافرها المطلية بالأحمر داخل جوربها الشفاف.

حكت لنا أمي أنها عندما كانت طفلة، سمعت رجلاً يتوسّل ألا يقتلوه. تتذكر النجوم وشبح الأشجار الأسود على طرفي الطريق حيث كانوا يفرّون من الجيش النمساوي أثناء الحرب العالمية الأولى في عربة بطيئة تجرّها الثيران. قالت: "بدا الرجل خائفاً مذعوراً، هناك، وسط الغابة". بعد ذلك، لم يكن بإمكانهم أن يسمعوا إلا صوت دوران العجلات المزعج مع كل منعطف.

لقد تقاسمت عزلة طفولتي مع قطة سوداء. كنت أجلس عند نافذة الغرفة لساعات طويلة أراقب الطريق الخالي بينما هي جالسة على السرير تنظف نفسها. عندما يحل الظلام نتبادل الأدوار فأكون مستلقياً على السرير بينما هي تراقب الطريق.

في منتصف الليل يرن هاتف البيت المقابل لمدة ولا يردّ أحد. بعد ذلك تهز القطة ذيلها لمدة طويلة مما يجعلني أنام.

في الأيام الممطرة ألعب الشطرنج مع القطة بينما هي تتظاهر بالنعاس. مرة، عندما أضاءت أمي مصباح الطاولة الجانبي، تضخمت ظلال ما تبقى من قطع الشطرنج على الحائط حتى أنني شعرت بالخوف. لم أستطع حتى أن أتنفس.

عندما انتظم تنفّسي، كانت القطة قد اختفت مع قطع الشطرنج وتركتني كما كنت في نفس الغرفة الصغيرة بنافذتها الوحيدة التي تطل على شارع خالٍ من الحياة.

سمحت لي الخادمة في بيتنا بوضع يدي تحت ملابسها. كنت في الخامسة أو السادسة. أتذكر رطوبة فرجها وكذلك دهشتي بوجود كل ذلك الشَّعر هناك. لقد أحببت ذلك جداً. كانت تزحف تحت الطاولة حيث أكون في قلعتي العسكرية وبين جنودي الذين ألعب بهم. لا أتذكر ما قلناه، إذا كان هناك ما قد قيل، فقط يدها وهي تقود أصابعي بحزم إلى ذلك الموضع.

هناك ذكرى مبكرة أخرى: عربة طفل تدفعها امرأة حدباء طاعنة في السن، طفلها يجلس فيها، ساقاه مبتورتان. كانت تساوم بائع الخضار عندما أفلتت منها العربة. الشارع كان شديد الانحدار، تدحرجت العربة بسرعة لأسفل بينما المُقعد فيها يلوّح بعكازه كأنه يريدها أن تُسرع أكثر وأكثر؛ أمه تصرخ طلباً للمساعدة، استمرّ الآخرون في الضحك كأنهم يشاهدون فيلماً كوميديّاً ... كأن رجال الشرطة في أفلام Keystone على وشك الذهاب إلى الهاوية.

ضحكوا لأنهم كانوا يعلمون أن مشهداً كهذا سينتهي على خير في الأفلام . ولكنهم فوجئوا بنهاية أخرى في الحياة.

بعد عدة سنوات، قرأت في السيرة الذاتية للشاعرة الروسية مارينا تسفيتاييفا أن أول قراءة شعرية لها في باريس كانت في السادس من فبراير من العام ١٩٢٥. أشارت الجريدة التي نشرت الخبر وقتها إلى اشتراك ثلاثة موسيقيين في الأمسية؛ مدام كونيللي التي غنت أغنيات إيطالية قديمة، بروفيسور موجيلويسكي الذي عزف على الكمان، وف إي بيوِتسوف يرافقهما على البيانو. كان هذا مذهلاً بالنسبة لي، فمدام كونيللي ـ التي كان اسمها الأول نينا ـ إحدى صديقات أمي، بل ودرستا معاً عند نفس مدرسة الغناء ـ مدام كيدروف في باريس ـ وبعد ذلك ولسبب ما، انتهى المطاف بنينا كونيللي في بلجراد أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث علّمتني أغنيات روسيّة وفرنسيّة عندما كانت تأتي

لزيارتنا، أغاني ما زلت أعرفها جيداً. أتذكر كم كانت امرأة جميلة، أكبر قليلاً من أمي، وأنها بعد انتهاء الحرب غادرت إلى مكان ما بالخارج.

أنا لم أخبركم كيف أصبتُ بالقمل من جرّاء ارتداء خوذة ألمانيّة. لقد اشتهرت تلك القصة في عائلتي. كلما اجتمع الأقارب فلا مفر من أن تحضر القصة عاجلاً أو آجلاً، شخص ما عليه أن يثير قصة خوذتي الألمانيّة المليئة بالقمل. يعتقد الجميع أنها من أطرف القصص التي سمعوها في حياتهم. تكاد ترى الدمع يطفر من عيون كبار السن من شدة الضحك. هذا الغلام كان مغفلاً بما فيه الكفاية ليعتمر خوذة ألمانيّة مليئة بالقمل ويتمخطر بها في الحي. لقد كان القمل يزحف عليها كلها وأي أحمق كان باستطاعته الانتباه لذلك.

جلست هناك صامتاً، مدعياً أنني مستمتع مثلهم، أومئ برأسي بينما أقول في سري يا لهم من أغبياء. ليس لديهم أدنى فكرة عما مررتُ به من أجل الحصول على هذه الخوذة، ولم أكن أنوي إخبارهم.

في اليوم التالي لتحرير بلجراد، كنت في المقابر القديمة مع بعض أصدقائي. استطلعنا الأجواء هناك بلا هدف محدد في أذهاننا. بعد ذلك، فجأة، شاهدناهما! جنديين ألمانيين ممددين على الأرض، من الواضح أنهما ميّتان. اقتربنا لنلقي نظرة عليهما. لم تكن معهما أسلحة، اختفت بيادتاهما، ولكن كانت هناك خوذة ملقاة بجانب أحدهما. لا أعرف ما الذي أخذه أصدقائي ولكني اتجهت إلى الخوذة على أطراف أصابعي،

كأنني أتفادى إيقاظ صاحبها الميت. تجنبتُ النظر إليه، لم أر وجهه قط وإن كنت أحياناً أعتقد بأنني قد رأيته. كل ما يخصّ تلك اللحظة ما زال واضحاً تماماً بالنسبة لي.

٥

كان أكثر المشاغبين الذين رأيتهم في حياتي شراً. يسمونه سنْجه لأنه كان يشبه مجرمي سجن سِنج سِنج الأمريكيّ. رغم كونه في بلجراد وفي يوغوسلافيا الشيوعية إلا أن فرصته في الوصول إلى ضفاف نهر الهدسون الرماديّ ضئيلة. ضخامته لافتة بالنسبة لولد في السادسة عشرة من عمره. كان مشهوراً بالشر ولكن قدرته على القيام به حتى في أبسط أفعاله جعلته يبدو أكبر وأقوى مما هو في الحقيقة. لا أعرف أين كان يعيش، وما الجرائم التي ارتكبها في الواقع، ولا كيف كانت نهايته. ما أتذكره أنه جاء مرة في بداية يوم دراسيّ وجلس على سلالم مدرستي الابتدائية. جلس أسفل السلم، وكان واضحاً أنه في مزاج سيئ. لم يجرؤ أحد أن يمرّ أمامه كي يدخل المدرسة. مئات الطلاب يقفون في الجهة الأخرى من الشارع ناظرين إليه. راجت شائعة بأنه قد يسمح لك بالدخول إذا تركته يضرب رأسك بقبضته. خاف واحدٌ من الطلاب من التأخّر عن الدراسة فقبل التحدي وجرى إلى داخل المدرسة وهو ينتحب ماسكاً رأسه بيديه. نظرنا إلى بعضنا البعض في استغراب بينما

سنْجه يُشعل سيجارته. من المدرسة خرج مدرّس الرياضة مفتول العضلات. وقف في أعلى السلالم وأمر سنْجه أن ينصرف على الفور قبل الاتصال بالشرطة. رفع قبضته قليلاً ليهدده. أخذ سنْجه وقتاً ليعترف بوجوده. وأخيراً بصق في اتجاهه. مثل كل شيء يفعله سنْجه؛ كانت بصقته خارقة لقدرة البشر. طارت البصقة، قفزت بدقة رائعة إلى مسافة مستحيلة. وصلتْ إلى حجر سروال المدرس الكتّان المكرمش. ظهرت البصقة على الحِجر وكأن المدرس بال قليلاً على نفسه من الخوف. انسحب المدرّس بسرعة بعد سماعه لضحكاتنا. كان هناك صراخ وصياح بينما سنْجه ينفض رماد سجائره، من دون أن يتكرم وينظر إلينا.

ثم حدث ما يمكن أن يكون أهم لحظة انتصار في حياتي. كان هناك ولد يعيش في منطقتنا، تسرّب من الدراسة وظللنا أصدقاء. مشى إلى الحشد وسأل عما كان يحدث، ورآني، ورأى سنْجه يجلس هناك، لوّح لي أن آتي. لم أعرف فيما يفكر، وكنت متردداً في أن أقترب من الوحْش. اتضح أن شقيق صديقي وشقيق سنْجه صديقان، يعرفان بعضهما البعض، وأنه لم يكن هناك سبب للقلق. على أي حال، وجدت نفسي واقفاً بجانب سنْجه. بينما صديقي يشرح له أنني ولد طيب، نظر سنْجه إليّ ببعض الريبة وكأنه يتخذ قراراً. لم يقل شيئاً؛ فقط أدار رأسه إلى الجهة الأخرى، فصعدت السلالم بأقصى سرعة. عندما وصلت لأعلى وأوشكت أن أفتح الباب الزجاجي الذي يتجمع

خلفه المدرسون، التفتّ لأعاين الحشد في الأسفل. رأيتُ في إعجابهم وحسدهم مجدي. حتى البنات اللواتي لم ينتبهن لي من قبل نظرْن لي في رهبة. وقفت وشاهدتهن من ذلك الارتفاع وقتاً أطول مما تستلزمه الحصافة مع وجود سنْجه بقربي، التفتُّ ودخلتُ، جرّ مدرس التاريخ القديم قدميه وفتح بنفسه الباب لأجلي.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٦

كان جدّي يُعاني من مرض السكّري، لقد بتروا إحدى ساقيه عند الركبة بالفعل ويهددون ببتر الأخرى، اعتاد صديقه سافو لوزانيك أن يزوره كل صباح ليسليه. كانا يستغرقان في الذكريات عن هذا وذاك، حتى إنهما كانا يضحكان أحياناً.

اضطرّتْ جدتي في صباح أحد الأيام إلى حضور جنازة قريب لها، فتركته وحده في البيت. وهذا هو ما ألهمه الفكرة. قفز جدّي من السرير إلى المطبخ، حيث وجد شموعاً وكبريتاً. رجع إلى السرير، وضع شمعة فوق رأسه وأخرى عند قدميه وأشعلهما. بعد ذلك سحب الغطاء على وجهه وظل ينتظر.

عندما طرق صديقه الباب، لم يجد جواباً. لم يكن الباب مغلقاً فدخل وهو يناديه. كان المطبخ خالياً. قطة رمادية سمينة تنام على مائدة الطعام. حين دخل غرفة النوم ورأى الغطاء والشموع، انتحب ثم انفجر في البكاء وهو يتلمس كرسياً ليجلس عليه.

"اخرس يا سافو"، قال جدّي بحزم من تحت غطائه، "ألا ترى أنني فقط أتمرّن"

ذهبنا في ليلة لمشاهدة منوّم مغناطيسي عظيم من المجر. كان ذلك في قاعة فندق كبير عند بحيرة بلِيد في سلوفينيا. رغم ازدحام المكان إلا أنه للغرابة كان هادئاً. أنت تعرف أداء المنومين المغناطيسيين، مسموح لهم أن ينادوك وأن يأتوا بك إلى المسرح، وأن يجعلوك تفعل أشياء غريبة. كان هذا الرجل مشهوراً بقدرته على فعل المعجزات. وكان شكله يشي بذلك: بدلة سوداء رسمية، شعر أسود مصفف للخلف، حاجبان كثيفان، عينان مخيفتان، صوتٌ آمر. لقد جعل أمي تخمن ما في جيوب الناس. جلست على المسرح مغمضة العينين، بينما وقف هو بين الجمهور مشيراً إلى أحدهم. كانت أمي تهمس ببطء وبصوت مبحوح. انبهر الجمهور وصفق.

في الحقيقة أنا لا أذكر ذلك جيداً على الرغم من أنني لن أنسى أبداً صوت أمي. كان هناك كائن آخر داخل شخصها الأليف، شخص غريب تماماً وعلي أن أنتبه له منذ ذلك اليوم.

جلسنا في صباح اليوم التالي مع المنوم المغناطيسي على نفس الطاولة للفطور. بدا الأمر بسيطاً، نحن كنا ثلاثة، وهو كان وحده، ولم يكن في القاعة كرسيٌّ آخر خالٍ.

همست أمي في أذني: "لا تنظر إليه"، وركلتني من تحت الطاولة

للتأكيد على قولها. الساحر العظيم لم يهتم بنا. لا أعتقد أنه تذكر أمي. تناول طعامه ناظراً إلى صحنه وهو يمضغ ببطء، لدرجة أنني خمنت أنه يأكل بطاقم أسنان صناعي. كان طاعناً في السن. وكانت يده ترتجف عندما يستعمل سكين الزبد. انتهينا من الأكل قبله وتركناه بدون النظر للوراء.

مرّت علينا أوقات في ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ لم نكن نجد فيها ما نأكله. لم تكن أمي قد استأنفت عملها في الكونسرفتوار بعد. أتذكر أنني رجعتُ من المدرسة إلى البيت في ظهيرة، قلتُ لها إنني جائع، فانفجرتْ في البكاء. الشيء الوحيد الذي وجدته هناك في ذلك اليوم، كان البصل الذي قطّعته شرائح. لم يكن هناك زيت، فقط بعض قطع الخبز الجافة وملح. فكرتُ ساعتها أن مذاقه لذيذٌ جداً.

اعتادتْ أمي ـ التي لم تكن طباخة ماهرة على كل حال ـ أن تطبخ يخنة بدون لحم؛ تتكون من البطاطس والبصل وربما بعض الجزر. هذا ما كنا نأكله طوال الوقت. في اليوم الثالث، وبعد أن تكون اليخنة.قد تكرر تسخينها مرات، يصبح طعمها كريهاً. أشعر أنني على وشك التقيؤ مع كل ملعقة تدخل فمي فأشرب جرعة كبيرة من الماء لأزدردها. الخبز كان يأتي من التموين. أحافظ على قطعة كبيرة من الخبز الأسود، آكلها عادة في آخر الوجبة على سبيل التحلية.

تحدث الأطفال في شارعنا عن الطعام معظم الوقت. أحياناً، على سبيل المثال، يصف أحدهم بتفاصيل دقيقة قطعة سجق أكلها مرة. نستمع له، نقاطعه من وقت لآخر لنستوضح الفروق الدقيقة في المذاق. عبّر واحد منا عن وجهة نظره في مزايا وعيوب الدجاج المحمر مقارنةً بالدجاج المشويّ. آخرون مغرمون بالحلويّات؛ يتغنون بالآيس كريم، أنواع الكعك المختلفة والفطائر المسكرة. دارت أحلام يقظتي دائماً وأبداً حول آذان الخنزير. من وجهة نظري لم يكن هناك ما هو ألذّ من آذان خنزير رضيع مشويّة.

عندما تحلّ الأعياد، يُمتّع الناس أنفسهم بالطعام. بلجراد مُحاطة بالريف من كل ناحية، وإذا كنتَ تعرف الناس المناسبين فيمكنك أن تحصل على أي نوع من اللحوم بسعر رخيص. تأتي فلاحة سمينة بدهاء لتزورنا، وبعد مساومة على السعر مع أمي، ترفع ملابسها وترينا شرائط من لحم الخنزير المقدد ملفوفة حول وسطها.

نقايض ما نحتاجه بأي شيء حيث لم يكن عندنا نقود. نعطي حذاء الرقص الجلديّ الأسود الذي تركه أبي مقابل دجاجة. لا يستطيع الفلاحون أحياناً أن يقرروا ماذا يريدون مقابل بضاعتهم، فنتركهم يتفرجون على كل شيء وينتقلون من غرفة لأخرى ونحن في أعقابهم، يختبرون البضاعة، يهزون رؤوسهم بالنفي عندما يقترح أحدنا عليهم سلعة محددة. من الصعب إرضاؤهم. قايضنا سجاد وساعات وأرائك وآنية خزفية راقية بحيوانات مختلفة عبر السنوات.

مرّ كل الناس بذلك، تتغطى الأرصفة بخنازير رضيعة مشوية في يوم الكريسماس. كل أنواع الخنازير في أواني شواء مختلفة الأحجام. يُحضرها الناس إلى الأفران، حيث في مقابل مبلغ بسيط، يتم شواؤها كما ينبغي في فرن كبير. لا يكون للأواني مكان على الأرفف عند نهاية اليوم، فتوضع الخنازير المطبوخة في الخارج حتى يأتي أصحابها ويأخذوها.

ما زال هذا المشهد حاضراً في ذهني، رغم أنني لا أعرف عام حدوثه. بدأ الثلج في الهطول، حاول أحد مساعدي الفرّان أن يغطي أواني الخنازير بأوراق الصحف. تصبح الأوراق مبلولة ومُزيّتة بمجرد وضعها. لم يكن من السهل تغطية آذان الخنازير. طُبخت الآذان بطريقة تجعلها تبدو وكأنها تحاول أن تميّز أصوات أصحابها. هناك الكثير من الازدحام والضجة بينما يبحث كل واحد عن آنيته الصحيحة. الجميع في مزاج طيب. بدت الخنازير والتفاح في أفواهها وكأنها تقول التهموني.

كان عليّ أن أحمل خنزيرنا عدّة شوارع على الأرصفة الزلقة. الوعاء كان ثقيلاً ومليئاً بالدهون التي لا أريد أن أُريقها. حملته بحذر، ناقلاً قدميّ خطوة بخطوة.

فجأة هبت عاصفة من الرياح. رفرفت أوراق الصحف أمام وجهي. مال الوعاء برأسه. انزلق الخنزير على صدري، وأغرقتني الدهون. كان هناك مشهد آخر عندما وصلتُ إلى البيت.

تابعتني الكلاب لعدة أيام. حاولتْ أمي بأقصى ما تستطيع تنظيف البقع الدهنية من معطفي الشتوي، ولكن بقيت الرائحة. أضع المعطف فوق اللحاف في الأيام الباردة، أتشمم الشواء، وأرى تلك الخنازير المبتسمة على الأرصفة.

إنه يوم أحد ممطر، ظهيرة رمادية من أواخر الخريف، صوت الراديو خفيض وأنا أقرأ في السرير. توقّف الوقتُ. غطاني شعورٌ قويٌ بوجودي. أحب المطر رغم أنه يمنعني من الخروج للعب.

لا أتذكر عنوان الكتاب ولا في أي عام حدث هذا، ولكن اللحظات مع الكتب من أجمل ذكرياتي. بدأتُ القراءة في عمر مبكر حيث كان عند والدي مكتبة كبيرة، لدرجة أن بعض الرفوف كانت في غرفتي. في البداية قلّبتُ الصفحات بحثاً عن الصور، بعد ذلك حدقتُ في الكلمات حتى علمني والداي القراءة. في عمر العاشرة كنتُ بالفعل مغرماً بالكتب.

اعتاد أصدقائي أيضاً أن يقرأوا. أحببنا قصص رُعاة البقر والألغاز ومغامرات أعالي البحار وبالطبع الكتب الهزليّة. طُبعت معظم هذه الكتب قبل الحرب وأصبح ما تبقى من طبعاتها محدوداً. كانت تأتي لحظة، وهذا حدث لي، وتكون قد قرأت كل الكتب المتاحة في دائرة علاقاتك. لم يكن ممكناً أن تشتري كتباً أو أن تستعيرها من المكتبات. لقد وصلت هذه الكتب من الكبار إلينا ونحن نتبادلها فيما بيننا.

مرت فترات مع ذلك لا تجد فيها شيئاً جديداً لتقرأه. لجأتُ إلى مكتبة أبي. قرأتُ زولا وديكنز وحتى ديستويفسكي من أرفف غرفة النوم. أصبحتُ بعد ذلك مدمناً للقراءة. أحببتُ "أوليفر تويست" جداً، ورواية "آمال عظيمة" كانت أكثر جمالاً. وجدتُ صعوبة في قراءة رواية توماس مان "الجبل السحريّ". أحببتُ الملاحم والقصائد القصصيّة والأغاني الشعبيّة، ولكن لم تهزني الأنواع الشعريّة الأخرى.

لم يغادرني أبداً هذا الاحتياج للقراءة. ما زلتُ أقرأ كل أنواع الكتب في مختَلَف الموضوعات. ربما لذلك أعرف القليل عن أشياء عديدة عظيمة. يمكنني أن أحيا وأموت في مكتبة قيّمة، مع أنّي لست ممن يحترمون التعليم الرفيع. إنني أرتاب في التحذلق الذي يحتوي عليه هذا النوع من التعليم. مع ذلك، يبدو عجيباً وجود شخص لا يريد أن يعرف ما الذي في داخل كل كتاب في هذا العالم.

القراءة والتخيُّل؛ السفر إلى أماكن بعيدة وخلق حيوات وهويّات أخرى للذات. أماكن كثيرة، حيوات متعددة! مَن ذلك الذي لا يريد أن يسترجع تلك الساعات الحلوة من الاستغراق في الخيال عندما يملك كتاب جديد كل مخيلته؟

الموسيقى أيضاً كانت هناك. صوت الراديو حاضر دائماً. اكتشفتُ الجاز الأمريكيّ ولم أكن أشبع من الاستماع إليه. يلتقط الراديو محطات الجيش الأمريكيّ في ألمانيا والنمسا متأخراً في الليل. فكرتُ أن هذا هو

العالم الذي أتمنى أن أنتمي إليه. عالم Mood Indigo لـ ديوك إلينجتون، Lester Leaps In لـ كونت باسي، وMean to Me لـ بيلي هوليداي.

أثناء النهار، غالباً ما يكون عند أمي التي كانت مدرسة صوت وأستاذة غناء أوبرالي طلابٌ من الكونسرفتوار في البيت من أجل الدروس. عرفتُ في عمر الخامسة معظم الأنغام الأوبراليّة لدرجة أنني كنت أدندنها مع نفسي وأنا ألعب جعل ذلك أمي تظن أنني سأكون ملحناً أو موسيقيّاً عظيماً في المستقبل. نتيجة ذلك كانت سيئة للغاية؛ قضيتُ سنتين أتلقى دروساً في الكمنجة تلتها سنتان في البيانو، سنوات من العذاب المحض بالنسبة لي.

كان العالم في طريقه للاشتعال بينما أنا أتمرّن على الكمنجة. مخاط أنف الإمبراطور نيرون قطع مسافة كبيرة... لم تكن الصعوبة في عزف الآلة فقط بل في حَملِها أيضاً، لم أر في حياتي كمنجة مثلها. كانت مصنوعة من الخشب وكبيرة وثقيلة. مقبضها كان في الأعلى وليس على جانبها كما هو مألوف. المقبض مصنوع من النحاس، كما توجد حِليات نحاسيّة على صندوقها. قال لي صديقٌ بعد أن فحصها: إنها تبدو مثل نعش طفل رضيع. كان عنده حق. كل مَن رآها فكر في الأمر نفسه. كان الناس يحدقون ثم يهزون رؤوسهم عندما يرونني أمشي متذمراً في الشارع.

كانت مُدرّستي تسكن في الناحية الأخرى من المدينة، لذا يكون علي أن أقطع رحلة طويلة حاملاً هذا الشيء. وحتى أبدو مُضحكاً

أكثر، كنتُ أرتدي معطف ابن عمي الذي يصل إلى قدميّ. بدوتُ كعجوز صغير الحجم. شقة مُدرستي كانت باردة دائماً. الغرفة التي كنتُ أتلقى فيها دروسي كانت واسعة وخالية تقريباً من الأثاث. هي لم تكن تقول شيئاً إلى أن أعزف عدة نوتات موسيقيّة بشكل سيئ، فتتسع عيناها من الذعر، ثم تبدأ في الصراخ. كم أخافتني ومع ذلك كنتُ أحبها لأنها بعد الانتهاء من توبيخي كانت تعطيني شيئاً لآكله، شيئاً نادراً وغريباً مثل الشوكولاتة المحشوة بالخمور المسكّرة. نجلس في تلك الغرفة الواسعة الجرداء وتراقبني وأنا آكُل. تقول: "مسكين!"، ظننتُ أنها تقصد أنني لم أتمرّن كما يجب، كان وجودي يتلاشى وهي تحاول أن تشرح لي الأخطاء التي ارتبكتُها أثناء العزف، ولكن اليوم أشعر أنها لم تكن تقصد ذلك. في الحقيقة، أظن أنها كانت تقصد شيئاً مختلفاً تماماً. ربما أنا أكتب هذه المذكرات لأدرك ماذا كانت تقصد.

كل هذا انتهى عندما قفز أخي فوق الكمنجة التي تركتُها بـ"إهمال" على السرير. هذه كانت هي القصة التي روّجتُها. الحقيقة كانت أكثر حماقة من هذا. لقد رأيته يقفز على السرير طالعاً ونازلاً بنفس الطريقة التي نقفز بها على الترامبولين. كان يقوم بذلك طوال الوقت. جاءتني الفكرة ذات يوم؛ وضعتُ الكمنجة تحت واحدة من البطانيّات. تكسّرت إلى مئات الأجزاء عندما وقع عليها بكل ثِقله. كان عليّ أن أُمثل أنني مصدوم وحزين، غاضب للغاية، وأشياء من هذا القبيل. مع ذلك لا أعتقد أنني نجحتُ في خداعهم بشكل كامل. كانت الكمنجات

غالية جداً، كما أدركتْ أمي أن قلبي لم يكن في الموضوع. لهذا لم نتحدث عن شراء كمنجة جديدة.

رغم كل ذلك أحببتُ الموسيقى الكلاسيكيّة بجنون. كثيراً ما أخذتني أمي معها إلى عروض موسيقيّة وأوبراليّة. إذا لم يكن الطلاب في بيتنا يغنون، تكون أمي نفسها هي التي تتمرّن. اعتاد أبي عندما كان لا يزال معنا أن يغني أيضاً. لقد أدّت أمي الأغاني الشعبيّة في الراديو. ظننتُ أن أداءها سيئ. صوتها ينتمي للطبقة الوسطى، كما أنه صوت مثقف لدرجة أنه لا يستطيع أداء مثل هذه الأغاني بالطريقة الصحيحة، تلك الطريقة التي يعرف أبي أن يغني بها بعد زجاجتيْن من النبيذ. والدي نفسه كان قد درس الغناء في الكونسرفتوار. قدم هو وأمي عرضاً موسيقيّاً معاً أيام الشباب حيث غنيا لحناً ثنائيّاً لموتسارت. قالت لي أمي مرات عبر السنين: "والدك لم يكن جاداً". قالت إنه قضى معظم وقته يغني في الحانات ويثير المشاكل. في رأيها، هو رجلٌ طيب القلب ولكنه غير جدير بالثقة كزوج. يخرج ليشرب بيرة فيختفي يومين. أول مرة حدث لها ذلك جُنّت من الخوف ولكنها بدأت تعتاد على مثل هذه التصرّفات. وصل به السُّكر أحياناً لأن يزحف إلى البيت على أربع. يا للمشهد! يزحف في بدلته الفخمة وقبعته الإيطاليّة الراقية وحذائه الإنجليزيّ. يمدّ الجيران رؤوسهم من الشبابيك ويستمتعون بما يرون. يصرخ أحدهم: "ها هو جورج سيميك يزحف على أربع عائداً إلى

زوجته"، ويضحكون جميعاً. أنا ضحكتُ عندما سمعت هذه القصة التي تقلل من شأن أمي، أمي التي رأت أنني عندما أكبُر سأكون مثل والدي.

الأسوأ من أن ينتهي بي الحال مثل والدي، هو أن أكون مثل إخوته. كانوا ثلاثة، وفي رأي أمي الصغير فقط، عمي بوريس الذي تمنى أن يصبح مغنياً في الأوبرا، هو المعقول بينهم. أكبرهم موشى كان ببساطة محض مجرم. أوسطهم ملادِن، رغم سحره ووسامته كان محتالاً. أختا والدي كانتا قحبتين قذرتين. والد والدي عجوزٌ بغيض، وجدتي فلاحة أُميّة ومسكونة بالخرافات.

كل هذا جعل من الصعوبة بمكان أن أرى عائلة والدي. في المرات القليلة التي زرتهم فيها، كانت أمي ترسلني مع تحذيرات شتى بألاّ أستمع لكلامهم. جدّي، على سبيل المثال كان يُجدّف ويُطلق تعليقات غير وطنيّة.

لقد سخر من القساوسة والسياسيين وأبطال صربيا القوميين. كل الناس مشبوهين في رأيه. أحببتُ الاستماع إليه، كان يُضحكني، وجدّتي تطعمني أكلاً لذيذاً حتى التُخمة. لكن جدّي حذرني من عمي موشى. لقد طرده من البيت وهو ما زال تلميذاً في الإبتدائيّة. إنه أمر يصعب تصديقه، لكن الجميع أكدوا لي أنه حقيقيّ. كان موشى رجلاً سيّئاً، ومع ذلك كانت القصص التي حكاها لي جدّي مضحكة للغاية.

عمل موشى مرة سائقاً لترام على خطّ يمرّ ببيت جدّي. كان كلما رأى أُحد أفراد الأسرة منتظراً على المحطة، ينحرف يميناً رافعاً قبضتيه بينما يقود العربة. لحُسن الحظ، لم يستمر طويلاً في هذه الوظيفة. في ليلة بعد انتهاء العمل، أخذ موشى صديقته في جولة بالترام عبر شوارع بلجراد المظلمة النائمة. قاد الترام بأقصى سرعة مُطلقاً الجرس دون توقف.

قابلتُ موشى للمرة الأولى عندما كنتُ في الثانية عشرة. كان قد خرج من السجن للتوّ. عندما كان الروس واليوغوسلاف يحررون بلجراد من الألمان، هو، الذي لم تكن لديه أية اهتمامات سياسيّة، فجأة أعلن نفسه ملكيّاً في إحدى الضواحي. تصرّفٌ يخلو من الحكمة في تلك الظروف. على كل حال، كان يسأل عن أخبار أبي. إنه وسيم، طويل، يرتدي معطفاً شتوياً رماديّاً شديد الأناقة، ويتحدث بأدب جم معي ومع أمي. لم تكن تلك صورته في ذهني قبل أن أقابله.

عائلة أمي كانت مختلفة عن كل هذا. يُمكن أن تسمي أفرادها بـ "المحترمين". يسكنون في شقق مكتظة بأثاث قديم راقٍ، لوحات زيتيّة، سجاد فارسي سميك. تخلو لغتهم من الألفاظ النابية. يتحدثون بالفرنسيّة عندما يكون هناك ما لا يجب أن يفهمه الأطفال. يعيشون في خوف مستمر، خوف مستمر من كل شيء. إذا حدث وعطستُ، تضعني جدّتي لأمي على الفور في السرير. تخبط يديها ببعضهما كأنني

مُتّ بالفعل "يا إلهي! يا إلهي!". لقد دفنتْ ثلاثة من أولادها الستة، وعندها أسبابٌ شتى لتتوقع الأسوأ.

ظلت حياتها محدودة. كانت تسكن الطابق الذي تحتنا، ترعاني أنا وأخي بينما أمي في العمل، وتطبخ لنا معظم الوقت. حبي لها كان عميقاً. كانت حنونة، وتُظهر حنانها أكثر مما كانت تفعل أمي. في نفس الوقت، لم تكن سعيدة. استمرت تعاستها. تزوجت ضابطاً شاباً قامر بمعظم أموالها، حبّلها بستة أطفال، تقاعد في الأربعين ليعيش في قريته مسقط رأسه. عانتْ ماديّاً ولكنها حافظت على المظاهر الاجتماعية. كان جدّي يزور بلجراد أحياناً، ولكنهما ظلا منفصلين لأسباب عمليّة كثيرة. كان هناك جو من الضغينة والكآبة العميقة.

بدأتُ أواجه صعوبات كبيرة في ذلك الوقت. توقفتُ عن الذهاب إلى المدرسة ولم أخبر أحداً. طردتني المدرسة التي كنتُ أحبها وأدرسُ فيها. ما حدث هو أنه تم هيكلة المدارس جغرافيّاً حسب أماكن سكن الطلاب، لم يخبرنا أحدٌ بذلك، وعندما وصلتُ مع أمي في أول يوم من السنة الدراسيّة السادسة، أخبرونا أنني من المفروض أن أذهب إلى مدرسة مختلفة في الناحية الأخرى من المدينة. عندما حضرتُ إلى هناك في صباح اليوم التالي، لم أجد اسمي في قوائم الطلبة المنقولين حديثاً. نصحوني أن أظل في البيت الثلاثة أيام التالية وأن أعود يوم الاثنين، حيث ستكون أوراقي قد وصلت وتمّ تسجيلي.

حسنٌ، لم أعد إلى هناك مرة أخرى. في البداية أردتُ فقط أن أُطيل إجازتي الصيفيّة. واصلتُ تأجيل العودة للدراسة، مضتْ أسابيع حتى أصبح من المستحيل أن أعود. لم تعرف أمي شيئاً. أخرج من البيت في الصباح للمدرسة وأعود مع أطفال الجيران في الظهيرة. في منتصف يناير، انتبه شخصٌ ما أنني في عداد المفقودين وأرسل الشرطة ورائي.

اعتدتُ عندما كان الجو معتدلاً، أن أستمتع بالتسكع في الشوارع والحدائق في بلجراد، لكن بعد ذلك بدأ البرد والمطر. إذا كنتُ محظوظاً ونجحتُ في سرقة بعض النقود من حقيبة يد أمي، أذهب إلى السينما. إذا لم يكن معي نقود، أرتجف في مداخل البنايات. الأيام المشمسة الباردة كانت أفضل؛ أقطع المدينة من أولها لآخرها لأبقى دافئاً وتمرّ الساعات بسرعة. مرتان كنتُ مشغول الذهن بأفكاري ومخاوفي، اجتزتُ أطراف المدينة إلى الريف. أتذكر لحظة مُرعبة كهذه، أنني أتلفّت وأرى المدينة من بعيد.

كان للأفلام رعبها أيضاً. كانت دور السينما رثة، قرضت الفئران ستائرها القطيفة الحمراء، وكراسيها الخشبيّة مُكسّرة. تكون باردة وعرضة للرياح في الصباح. كان المشاهدون من المتسربين من المدارس وطلبة جامعات وأناس مرهقين لأنهم عادوا من ورديّة عمل ليلية. كانوا ينامون على الفور ويستيقظون في منتصف الفيلم، عيونهم محتقنة وعلى وجوههم نظرة استغراب.

معظم الوقت، لم أكن أنا أيضاً أعرف ما يحدث، رغم أنني كنتُ منتبهاً. بعض الأفلام كانت قديمة. من الصعب أن تخمن إذا كان الطقس دائماً غائماً أم أن نسخة الفيلم القديم بهتتْ بهذا الشكل. تتحدث الشخصيّات على الشاشة الإنجليزية والفرنسيّة، الترجمة المكتوبة إما باهتة أو ليس لها معنى. بعد برهة كنتُ أتوقف عن قراءة الترجمة وأتابع المشاهد فحسب. كان هناك دائماً نساء جميلات لتتأملهن وتخزّن كل تعبيراتهنّ في الذاكرة. من ناحية أخرى، لم تكن هناك أحداث في هذه الأفلام. يجلس أناسٌ ويتحدثون بلا انقطاع في غرف معيشتهم. كم تمنيتُ أن أراهم في قطار، أو فيما هو أفضل من ذلك، في سفينة تشق المحيط. أحياناً تكون هناك مشاهد سريعة لمدن غريبة. الشوارع مزدحمة والناس يهرولون إلى مكان ما. بعض الناس كانوا سودا، وبعضهم كان حتى صينيّ الملامح. رأيتُ مَدرسة أخافتني؛ حيث كانوا يرسلون اليتامى قبل مئة عام ويضربونهم بالعصا. قضيتُ ساعات أستعيد هذه المشاهد في عقلي، مورطاً نفسي في حياة هؤلاء الأبطال ومشاركاً إيّاهم في مغامراتهم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٧

من العنوان، "سارق الدرّاجة"، والذي يحذّرنا من أن درّاجة ما سوف تُسرق، كل شيء كان محدّداً مسبقاً في الفيلم. يقول الرجل الذي حصل على وظيفة بعد سنتين من الانتظار: "إلى الجحيم أيها الفقر". دراجته سوف تُسرق، وسيكون العثور عليها مثل البحث عن إبرة في كوم قش. يقول الرجل لابنه: "إما أن نعثر عليها أو نجوع"، وهذه هي قصتك، لا مفرّ من حمل ثقلها مثل مأساة يونانية.

يسير الرفيق بالبدلة البالية وتبدو شوارع ومباني روما مألوفة. يوجد تطابق في الفن المعماري في بعض أحياء المدن الأوربية الكبيرة. قضيت طفولتي بين الشقق السكنيّة وبنايات المكاتب التي بُنيت أواخر القرن التاسع عشر في وسط مدينة بلجراد. أصبحت هذه البنايات بعد الحرب رمادية، جدرانها مُقشّرة وآيلة للسقوط.

رأيت "سارق الدرّاجة" لأول مرة في أواخر الأربعينيات. عادة ما كنت أهتم فقط بالأفلام الأمريكية، خاصة أفلام رعاة البقر، لكنه كان

من النادر استيرادها أيام مجد ستالين. شاهدنا أفلاماً معظمها سوفيتية والقليل مما يسمى بسينما الموجة الجديدة الفرنسية والإيطالية. الشيء المحزن في سينما الواقعية الاشتراكية هو أنه حتى الطفل ذو العشرة أعوام سيجد أن شخصياتها المثالية ورسالتها المفيدة شيء ممل ومزيف لدرجة ميئوس منها. ذهبت بشكوك كبيرة لأرى فيلماً للمخرج دي سيكا وفاجأني كم أثّر فيّ بشكلٍ عميق.

مثل الناس في الفيلم، معظم الأسر التي عرفتها كانت فقيرة وعاطلة عن العمل وليس عندها ما يكفي لتأكل. الصغار والكبار في حيّنا كانوا يسرقون. دخلت مرة إلى مخبز، أخذت من الفترينة خبزاً، وهربت من مطاردة الزبائن. لسنوات بعد ذلك، ظلّ هناك جيران يتهمونني بسرقة خرطوم حديقة، فأس، عربة طفل، وكانوا مندهشين من أنني أنكر ذلك في كل مرة. فيلم عن سرقة دراجة كان شيئاً يمكنني فهمه تماماً حتى في ذلك السن الصغير.

أتذكر القليل من المشاهدة الأولى للفيلم ما عدا بعض المشاهد التي بقيت حية: قرر الأب وابنه بعد يوم من البحث عن الدراجة المسروقة أن يبدّدا النقود القليلة التي تبقّت معهما على وجبة في تراتوريا. هناك طفل غني في الطاولة المجاورة، يأكل بحذر بالشوكة والسكين بصحبة أسرته، يستمر في الالتفات لمشاهدة برونو يزدرد طعامه. كان يلبس نفس ما اعتاد أطفال طبقته الاجتماعية أن يلبسوا حتى في بلجراد الشيوعية خلال سنوات ما بعد الحرب. ترى واحداً

منهم في الشارع مرتدياً بدلة بحّار وممسكاً بيد أمه. دائماً يذهبون إلى كل مكان بصحبة أمهاتهم؛ وإلا سيتم الاعتداء عليهم بالضرب. في نفس الوقت، كانوا يتلفّتون حولهم ذهاباً وإياباً تماماً كما في الفيلم.

وأتذكر أيضاً ملاءات السرير التي رهنها ريكي لإخراج الدراجة من الرهن. رفوف ورفوف مكتظة بالملاءات القديمة. يتسلق رجل الأرفف مثل قرد ليضيف ربطة جديدة. آلاف الملاءات التي نام الناس عليها ومارسوا الحب. كمية من الملاءات المستخدمة تتجاوز ما رآه أي شخص في حياته. يأخذ هذا المشهد بأنفاسي كل مرة أشاهد فيها الفيلم.

شاهدتُ الفيلم أكثر من مرة على مر السنين، وفي كل مرة يمر ببالي نفس الخاطر: هذه هي الصورة المشوّشة بالأبيض والأسود لطفولتي. الشوارع في الصباح الباكر ليوم الأحد، مثلاً، برفقة جامعي القمامة في جولاتهم. أو سوق اللصوص تحت المطر. أو رأس الحصان المحنيّ المنحوتة على باب مطعم تراتوريا. الموسيقيون في الداخل يذكرونني بسجناء الحرب الإيطاليين الذين جاءوا إلى باب بيتنا مرة يتسولون الطعام. يمضي الفيلم كله بهذه الطريقة. الطريقة التي يرى بها طفلٌ فقير الدنيا.

لا تحتاج هاملت أو لير أو اغتيال رئيس لتجرّب المأساة. أنطونيو هذا بوجهه الفلاحي الذي جففته الشمس، فيه النقاء، واللطف، والنظرة التراجيدية للسيد المسيح في مسرحية درامية. ابنه صبي ذكي وحساس. هو ضمير والده، قيل لنا ذلك، وهو يشبهنا أيضاً. وكذلك

الأم بعينيها الحزينتين. هي تتفهم أيضاً كل شيء. لم يعلن دي سيكا عن حبه لهؤلاء الناس. هم ليسوا بملائكة. يكمن فنه في رؤيته الواضحة لمحنتهم وفي الكثير من التفاصيل المضيئة في حياتهم اليومية.

ما يجعل الفن والذاكرة يعيشان هي التفاصيل، شعرية التفاصيل. يركب أنطونيو وماريا الدرّاجة عند الغسق من مكتب الرهونات كأنهما شابان عاشقان. طفل ما صغير يلعب الأكورديون وصديقه يتسول، بينما أنطونيو يلصق صورة ريتا هيوارث على جدار. المشوه الذي يريد من برونو أن يشتري جرساً للدرّاجة من سوق المستعمل. رطانة طلبة اللاهوت الألمان وهم يحتمون مع أنطونيو وبرونو من المطر في أحد المداخل. مطبخ الحساء حيث الأغنياء يطهرون نفوس الفقراء بعظة قبل أن يقدموا لهم البطاطس والمكرونة. يجعل الأب ابنه يحسب، بكعب قلم رصاص على ورقة صغيرة، كم كان سيحصل على المال من الوظيفة التي يوشك أن يخسرها.

كل مشهد في الفيلم ليس فقط مثيراً بصريّاً ولكنه أيضاً لا يخلو من حكمة. مثل القدور على الموقد في مطبخ السارق بينما والدته مهتاجة، يدرك المرء أن هؤلاء الناس أشد فقراً من الضحية نفسها. مع ذلك، لا شيء من ذلك يبدو مفتعلاً، مقصوداً، أو ليحمل "رسالة". يعرف دي سيكا أن الفقراء يكذبون و يسرقون لكن هذا ليس سبباً لئلا نحبهم. "هذا الطفل لا يستطيع أن يؤذي ذبابة" يقول شخص ما عن اللص، ونحن الجمهور نضحك.

عندما يقرر أنطونيو سرقة دراجة هوائية بنفسه، نتفهم أسبابه: أحتاج درّاجة لإطعام أسرتي، وهنا مئات الدرّاجات خارج ملعب كرة القدم حيث انتهت المباراة للتو. هناك مشهد رائع يجلس فيه الأب والابن على جانب الرصيف، تتدفق حشود الناس ووجوههم سعيدة بعد فوز فريقهم. نعرف أن أنطونيو سيُضبط متلبساً. وهو يعرف ذلك. مع أول صرخة "لصّ" سيتم إنزاله من على الدرّاجة المسروقة. يقول له شخص ما في الحشد: "أنت تعلّم ابنك أشياء لطيفة". ولكن ماذا بالضبط - في حياتنا البائسة تلك - سيعلّم أي والد في أوروبا ما بعد الحرب أولاده؟ يتجنب دي سيكا أي تحديدات. في نهاية الفيلم يمشي الوالد وابنه ممسكين بأيدي بعضهما والدموع في أعينهما. هناك الحب الذي يحمله كل منهما للآخر ولكن لا شيء غير ذلك. لكن يا لهذا الحب!

سيظن الكثير من المشاهدين أن المأساة نتجت عن عدم دفع الزوجة نقوداً للعرّافة التي تنبأت بأن الزوج سيحصل على وظيفة. أنطونيو نفسه يشتبه في ذلك، ولهذا السبب يعود ليسأل العرّافة عن الدراجة المسروقة في غرفة نومها المزدحمة، حيث الجميع يستمع إلى مشاكل الجميع. إنه يدفع النقود لها، ولكن بعد فوات الأوان. العرّافة تقول وتكرر: "إما أن تجدها الآن، أو لن تجدها أبداً"، ونفهم أنها لا تتحدث فقط عن الدراجة بينما تنظر من النافذة التي وراءها روما، ووراءها بعيداً، بالطبع، بلجراد مدينتي.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٨

حالتي الشخصيّة كانت مأساويّة، لدرجة أنني لم أستطع أن أتكلّم عنها مع أعزّ أصدقائي. لسببٍ ما كانوا لا يزالون منتظمين في الذهاب إلى المدرسة القديمة. لم تكن لديهم أدنى فكرة عما كنتُ أمرّ به. كان عليّ أن أخدعهم باختراع أكاذيب تفصيليّة عن نشاطاتي في المدرسة. في الحقيقة، كنتُ أكذب كثيراً. شعرت بالراحة عندما قام المسئولون بطردي بشكلٍ رسميّ بسبب غيابي.

مع ذلك، يا لها من مغامرة! عرفتُ كلّ ركنٍ وكل واجهة محلّ في تلك المدينة. أستطيع أن أرى بوضوح كل غرض مُغبّر في نافذة محل تصليح الأحذية الفقير، في شارع بمنطقة سكنيّة هادئة. كنتُ أتوقّف أمام ذلك المحلّ كلّما مررت من تلك المنطقة متأملاً أغراضه برفاهيّة شخص ليس لديه ما يفعله وليس هناك مكان يذهب إليه.

مرّة كنتُ أنظر في هذه الواجهة ورأيتُ انعكاس صورة أمي على الزجاج وهي مسرعة في الجهة الأخرى من الشارع. سيطرتُ على

نفسي وتابعتُ تأمّل الأحذية، وعلب تلميعها التي كنتُ أعرف بشكلٍ ما أنها فارغة. كان هناك ماركة أجنبيّة اسمها "كيوي"، قلتُ لنفسي وأنا أقف هناك "كيوي" مرات ومرات.

قال لي الناس: "أنت ستذهب إلى أمريكا في يوم ما، وستعيش مع والدك". لم أصدق هذا أبداً. لم يكن من المعقول أن أترك هذا الشارع يوماً، وواجهة المحلّ المتربة هذه التي مرّ عليها للتوّ انعكاس صورة أمي.

بالنظر للماضي، من حُسن الحظ أنني ذهبت إلى أمريكا. لو كنتُ بقيتُ هناك، لانتهى بي الحال في مدرسة للإصلاح والتهذيب. هذا ما حدث لبعض أصدقائي. لم أكن أفضل منهم. عندما التحقت بمدرسة في سبتمبر التالي، كنتُ أخلفهم بسنة، كرهتُ المكان. كنتُ أعرف أنها مسألة وقت قبل أن أتورط في مشكلة جديدة.

في فصل الصيف، كان يتم إرسالي إلى جدّي في الريف، جدّي لأمي، كان لديه بيتٌ وبستانٌ كبيرٌ في القرية التي وُلد بها. عاش وحده هناك طوال الوقت يعتني بنفسه بقدر المُستطاع. عندما تعرّفت عليه كانَ قد مرّ على خروجه على المعاش أكثر من ثلاثين سنة. كان مُميّزاً بوسامته وثقل دمه. والده كان قسيساً وكذلك كان جدّه وجدّه الأكبر. أما هو فكان ضابطاً وشارك في اغتيال الملك الصربيّ في ١٩٠٥.

اقتحم مع الضباط الآخرين غرفة النوم الملكيّة ووجدوا الملك والملكة مختبئين في الخزانة أو تحت السرير، نسيتُ أيهما. طلب الملك

منهم العفو عارضاً عليهم الأموال والترقيات. لم يشترك جدّي في قتلهما، أو هذا ما كان يُقال في عائلتي، ولكن مَن يعرف! بعد ذلك ترقّى إلى مرتبة قائد على يد الملك الجديد.

تاريخه العسكريّ كان قصيراً ولكنه متميّز. عُيّن عقيداً أثناء الحرب العالميّة الأولى بعد أن شنّ بقواته هجوماً ذات ليلة ثلجيّة في مكان ما بمقدونيا. قال بعد ذلك أنه كان يشعر بالبرد في خيمته، غير قادر على النوم، وأراد أن يُدفئ نفسه من خلال ذلك الهجوم.

بعد انتهاء الحرب أرسله الملك إلى التقاعد وهو ما زال في الأربعين. لم يكن يريد وجوده في الخدمة. استمرّ في مراقبته أيضاً. جنّد فلاحين محليين ليتجسسوا عليه، كانوا يراقبونه وهو يأخذ قيلولة تحت شجرة البلوط الضخمة في فناء بيته. اعتاد أن يرتدي قبعة من القش وسترة بيضاء وكان يستخدم عصا ليهشّ كلاب القرية بعيداً.

الإقامة معه كانت تعذيباً حيث كان مصاباً بوسواس قهريّ، كان هناك كل أنواع المحظورات الغذائية وهواجس النظافة. فيما يخصّ الكلام، لم تكن موضوعاته تخرج عن علله الوهميّة ورجال الدين. كان يكره القساوسة، عندما ماتت زوجته رفض أن يسمح لأي قسيس بحضور الجنازة. يقول الناس باستغراب إن كل ذلك بسبب والده. ابن عاهرة من الدرجة الأولى. القساوسة لا يقلون سوءاً عن الجنرالات. إنهم حثالة الأرض.

كان في المنطقة قسيسٌ مشهورٌ بركوب حصانه الأسود في كل مكان. كان يمرّ على بيتنا كثيراً، متباطئاً في كل مرة ليلقي التحيّة على جدّي. العجوز الجالس تحت شجرة البلوط لم يكن يعيره اهتماماً. ذلك كان يُحرجني. أينما ذهبت في القرية كان الناس ينظرون لي بسخرية. أغاظني الأولاد بسبب جدّي المخبول حتى أنني تعاركت معهم مرتين بسببه. وعلى الرغم من أنني قضيت إجازات صيفية عديدة هناك، لم يكن لي أصدقاء. لقد شعرتُ أنني أفضل منهم لأنني من المدينة، وهم شعروا أنهم أفضل مني لأنّهم خبراء في حياة الريف.

انتظرت للغاية انتهاء فصل الصيف. هناك دائماً تطورات هامة في المعارك التي تنتظرني في حيّنا. على الواحد أن يستعيد سلطته السابقة مرة أخرى. كانت هناك حتى كلمات جديدة، تعبيرات عاميّة لم أسمع بها من قبل ولكن الجميع يستخدمونها في كل مكان. كنت أخشى أن أسأل عن معنى هذه الكلمات. أسمعها كل يوم، حتى أنني كنتُ أستخدمها بنفسي ولكن الأمر استغرق أسابيع قبل أن أعرف معانيها. في هذه الأثناء، شعرتُ بأنني غريب وهو ما سأشعر به مرّات كثيرة في حياتي.

٩

غادرتُ كرسي طبيب الأسنان بعد مدة تصوّرتُ أنها أبدية. إنها ليلة من ليالي يونيه، أمشي في شوارع تحدّها الأشجار وترزح في العتمة، كأنّ الأشجار تهمس بحيّنا في بلجراد. إضاءة الشوارع ضعيفة وكان هناك بعض الأفراد يتنزهون قريبين من بعضهم البعض كأنهم عشاق. مرت بذهني فكرة أن هذه أجمل لحظة في حياتي.

ما لم تخبرني إياه أمي المتكتمة هو أننا قد نترك يوغوسلافيا. لقد تقدّمت بطلب للحصول على جواز سفر، حيث تحسّنت العلاقة بين الولايات المتحدة ويوغوسلافيا بما يكفي ليسمح الشيوعيون لبعض الناس بالمغادرة. المشكلة أن هناك قائمة انتظار طويلة أمام السُلاف الراغبين في الهجرة إلى الولايات المتحدة. كان علينا أن ننتظر ولكن أمي خافت أن نبقى في بلجراد وتُغيّر السلطات رأيها مثلما تفعل غالباً وتسترجع جوازات السفر منا. بمجرد حصولها على الجوازات، قررت

أن نترك البلاد إلى باريس في نفس الليلة. كان أخوها يعيش هناك، يمكننا أن نسكن معه، أو أن يساعدنا في إيجاد غرفة متواضعة، بينما يرسل أبي الذي كان بالفعل في أمريكا النقود لنا ويدعمنا حتى نحصل على تأشيرة السفر لأمريكا.

كنتُ ألعب كرة السلة في الحي عندما استدعتني أمي وأخبرتني أننا سنسافر في إجازة في الحال. بدا الأمر شديد الغرابة. لم يحدث أي كلام عن إجازة في الساحل الدلماسي. حزمت الحقائب بحماس وطلبت مني أن أُسرع وألا أحدث ضجة، "كُفّ عن الأسئلة الكثيرة"، كررت أمي قول ذلك لي مرات ومرات.

شعرتُ بالحيرة؛ "ما كل هذه الحقائب؟"، "لماذا يزورنا أقاربنا لتوديعنا والدموع في أعينهم؟"، "لماذا لا يُسمح لي بتوديع أصدقائي؟". فكرتُ أن أمي قد جُنّت. هناك معتوهون رسميون كثرٌ في أسرتنا كقدوة لها. خالة أمي مارينا، على سبيل المثال، أو أيّاً كانت درجة القرابة التي تربطني بها! ترتدي ملابس سوداء عتيقة، تغني وتبتسم لنفسها، ولا تخرج من البيت إطلاقاً. كنت في العاشرة عندما أدركت أن الجنون قد أصابها.

تحرّك قطارنا في الساعة العاشرة مساء، لكن أمي لم تخبرني بالغاية الحقيقية لرحلتنا إلا في اليوم التالي ونحن بالقرب من الحدود الإيطالية. أدهشني ذلك. قبل أن أتجاوز دهشتي وصلنا إلى تريستي. ذلك المكان الذي طالما تُقنا إليه، تريستي شبه الأسطورية، التي عاش والدي فيها

بعد الحرب. في محطة القطار ركضت لشراء الآيس كريم لنا جميعاً. كان الأمر لا يُصدّق، كل من حولنا يتكلم الإيطالية كما في فيلم "دي سيكا". محطة ميلانو ضخمة للغاية. أكلنا ساندويتشات وشربت أول كوكاكولا في حياتي. تدريجياً بدأت أستمتع بوقتي وأتشوق لما هو آت.

استغرقت رحلتنا يومين حتى وصلنا إلى باريس. بالطبع كنا مرهقين للغاية. قابلنا خالي على المحطة. أخذنا إلى فندق صغير بالغ القبح حيث استأجرنا أصغر غرفة فيه بسرير لاثنين وشباك. نامت أمي وأخي على السرير بينما نمت أنا على الأرض. بقينا على هذه الحال لمدة عام كامل. كنا فقراء، هذا ما أدركته. في تمشيتنا الأولى في الشانزليزيه خلال ذلك المساء الأول، وفي مرات أخرى كثيرة، لاحظت كم كانت ملابسنا قبيحة. كان الناس يحدقون بنا. بنطالي قصيرٌ للغاية. معطفي عبثيّ، ولا مثيل لغرابة طرازه. اقترب نادلو المقاهي منا بحذر. كان لنا سمت مَن لا يدفعون بقشيشاً. في المحلات عاملونا كلصوص محتَملين. كانوا يندهشون عندما نُخرج النقود من جيوبنا. حتى الشابات اللواتي يبعن المشمش والكرز في السوق كن يتفحصن النقود في الضوء ليتأكدن منها. بعد أسبوعين في فرنسا، أدركت أن لديّ هوية جديدة. منذ ذلك الحين أصبحتُ الأجنبيّ المريب.

لم تكن أمي لتشتري ملابس جديدة لنا. دائماً ما كانت تقول: "ستحصلون على كل شيء في أمريكا". طال الأمر عن توقعاتنا. في أواخر الصيف أصبح واضحاً أننا سنظل في باريس لفترة إضافية. ظننت

أمي أنه من الأفضل لي ولأخي أن نلتحق بمدرسة وأن نتعلّم الفرنسية. درستُ الفرنسية في المدرسة بيوغوسلافيا وكنت أعرف ما يكفي ليجعلني أخجل كل مرة أفتح فيها فمي. الأمر كان أسهل بالنسبة لأخي. كان لم يزل في الثامنة من عمره ولم يكن يكترث بكيفية نطقه للكلمات.

المدرسة التي التحقتُ بها كانت مخصصة لِمَن لن يؤهلهم مستواهم للالتحاق بالتعليم العالي. يتخلص الفرنسيّون من الأغبياء في عمر مبكر ويصنفونهم في هذه المنزلة الدونيّة. لقد شعرتُ أنا نفسي بالدونيّة. لم يكن باستطاعتي القيام بالواجبات المدرسية حتى في ذلك المستوى. لم يساعدني المدرسون. كأنهم لم يصدقوا حقاً أنني لا أستطيع التحدّث بالفرنسيّة. ربما أنني كنتُ أدعي ذلك لأخدعهم! أتظاهر بذلك لأسخر منهم! استمروا في إعطائي صفراً. في كل موضوع، في كل امتحان، في كل كتابة، كانت علامتي الدائمة صفراً. في البداية كنتُ منزعجاً وحاولتُ أن أبذل جهداً، لكن الأصفار استمرت في الهطول، لذلك استسلمت.

بشكل عام لم يهتم بي زملائي في الفصل. القلّة التي اكترثت لوجودي كانوا من الأغبياء والمشاغبين. صادقت تلك العينة، مما أكد رأي المدرسين فيّ. أصبحت الآن واحداً ممن لا أمل في علاجهم. قالوا لي ذلك مرات كثيرة أمام الفصل كله، بينما أعدّ فضلات الذباب في السقف وأناقش في عقلي إيجابيات وسلبيات أن ألكمهم على أفواههم.

إحدى إيجابيات المدرسة التي أعجبت أمي كانت تقديم وجبة غداء مجانية. في الأوقات الأخرى كنا نطبخ في شقة خالي، أو نأكل ساندوتشات في غرفتنا بالفندق. تقريباً، لم نأكل أبداً في مطاعم. لم يكن عندنا ما يكفي من المال، وكانت أمي من النوع الذي لا يهتم بالأكل. خبرتي الوحيدة بالمطعم الفرنسي كانت في المدرسة. أعجبني كثيراً الطعام ولم يشاركني زملائي هذا الرأي. كانوا يعتقدون أن هذا الأكل لا يناسب إلا الخنازير، مما يعني أنني كنت آكل نصيبهم أيضاً. أحببت بشكل خاصّ حساء الخضروات الكثيف الذي كانوا يشمئزون منه. كنت آكل ثلاثة أو أربعة أطباق منه مما يجعل من الصعب بقائي مستيقظاً بعد الغداء. مرة نمت بينما كنتُ أرسم تمثال إلهة إغريقية. "سيميك، سيميك"، ما زلتُ أسمع مسيو برتراند يصرخ.

امتدّ ذلك العام الدراسيّ مئات السنين، وكان الجو يمطر دائماً، دائماً باردا! ليس عليك أن تصدقني، لكنها كانت كذلك في باريس. دائماً اللون الرماديّ، دائماً الرطوبة.

حتى يزداد الطين بلة، التهبت أذني في يوم من تلك الأيام وكنت أتألم بشدة. أخذتني أمي إلى مستشفى في الناحية الأخرى من المدينة لأن خالي يعرف طبيباً سيعتني بنا هناك. الطبيب سيخرق طبلة أذني ويُخرج الصديد. هذا ما قالته أمي ونحن في الطريق من أجل أن تشجعني. إنها خبيرة بكل التفاصيل لأن ذلك حدث لها وهي طفلة صغيرة. ربما تحسب أن أمي عندها مسحة من القسوة، لكن الأمر غير ذلك. إنها فقط غبية.

نحن في المترو المزدحم بالذاهبين إلى العمل. لا أحد يبدو سعيداً، ولكن من الواضح جداً لي أنهم لا يعانون من آلام الأذن. إنهم ممتلئون بالثقة في أنفسهم. هذه هي مدينتهم. أنوف النساء الجميلات ترتفع عالياً تحت البودرة. إنهم يستطيعون شم غريب برأس مليئة بالصديد في القطار.

المستشفى قديم. حوائطه عالية وهناك حراس على بوابته كأنه سجن عسكريّ. يمكنك أن تدرك في الحال أن الناس هنا متذمرون. في الداخل الجدران مقشرة، والأرضية قذرة. الممرضات في مزاج سيئ. المرضى في غرفة الانتظار المكتظة بهم مستسلمون للانتظار الطويل وبعضهم مغمض العينين.

جلسنا وانتظرنا. أتألم بضراوة. جلستُ محدّقاً في الأرضية ثم في حذاء إحداهن وكأنه أكثر الأشياء إثارة في هذا العالم. لا يوجد معنى للوقت. لابد أن الأبدية نفسها لا تختلف عن ذلك. حذاء رجاليّ أسود تلبسه امرأة عجوز وأنت تحدق فيه إلى أبد الآبدين.

عندما رأينا الطبيب أخيراً وجدناه جذاباً. رجل وسيم، لقد ظل يغازل الممرضات حتى بعد دخولنا. لا توجد إبر من أجلي اليوم، فقط بعض البنسلين والكودين. قال لنا إن اليوغوسلاف أناسٌ رائعون. لقد ذهب إلى هناك في مؤتمر أو شيء من هذا القبيل، لهذا فهو يعرفهم جيداً. هو يحب المارشال تيتو أيضاً. إنه واحد من أعظم زعماء العالم. وافقناه لمجرد أن نجعله سعيداً. نعم، نعم، "إنه رجلٌ رائع".

فجأة، بدأ يتساءل! كيف تركتم يوغوسلافيا المجيدة، ولماذا؟ أخبرته أمي عن وجود أبي في أمريكا، وعن تطلعها للمّ الشمل مع زوجها، ولكن كان واضحاً أن اشتباهه فينا يزداد. هل أنتم من المتعاونين مع النازي أو أسوأ من ذلك؟ هل هناك مَن يترك يوغوسلافيا ـ التي كما يعلم الجميع ـ الجنة على الأرض.

تحدث مثل هذه الأمور كثيراً. اليساريون كانوا متأكدين من أننا فاشست، واليمينيون كانوا متأكدين من أننا شيوعيون. سرد قصة حياتنا كان يزيد الأمور سوءاً، خاصة الجزء الخاص بمغادرة والدي إلى إيطاليا أثناء الحرب حيث لم يكن يستطيع السفر إلا النازيون. أعترف بأن الأمر لا يخلو من ريبة، لم يعد طبيبنا ودوداً، والممرضات بدوْن وكأنهن آسفات لعدم استخدام الإبر.

ما زالت تمطر في الشارع وما زالت أذني تؤلمني، ولكني لم أركز في الأمر، في كل الأحوال، عندي حجة تجعلني لا أذهب إلى المدرسة لعدة أيام على الأقل.

تسليتنا الرئيسية في باريس كانت المشي. نتمشى حتى في المطر لنهرب من الجحر الذي نسكن فيه. في اللحظة التي ننتهي فيها من العشاء ـ وهو ما يحدث مبكراً ـ ننطلق. نختار كل يوم منطقة مختلفة من المدينة. إذا كان معنا نقود نأخذ المترو إلى إحدى المناطق البعيدة ثم نعود مشياً. كان هدفنا أن نرى باريس كلها، وهو ما نجحنا فيه بالفعل. مع

ذلك، كانت هناك مناطق نفضلها ونعود إليها مرات ومرات، مثل المنطقة حول الأوبرا أو المحلات الراقية في شارع سان أونو. كل منا كان يفضل فترينة محل مختلف. نزورها كل أسبوع كما يزور الآخرون دور السينما. كانت معظمها محلات ملابس، ومعارض سيارات. يقف أحدنا هناك معجباً بطريقة العرض، بينما يفقد الآخران صبرهما ويبدآن بالمشي بعد برهة من الانتظار.

اعتدتُ على المشي وحدي أيضاً، متأخراً في الليل بينما أمي وأخي نائمان. كنتُ أتسلل من الغرفة بحجة شم الهواء النقي ثم أذهب للتجوّل. في تلك الساعة، كنت أذهب عادة إلى الشانزليزيه الذي يبعد مسافة قصيرة أقطعها متقافزاً. بالطبع كانت هناك سينمات ومقاهٍ كثيرة، وأيضاً الكثير من النوادي الليلية. نادي الليدو كان أشهرها على الإطلاق. كنت أقف على المدخل أتأمل الناس يدخلون ويخرجون. بعضهم من نجوم السينما، يرتدون نظارات داكنة في الليل، وقد أبهرني ذلك للغاية. اشتريتُ واحدة رخيصة، كنتُ أرتديها وأنا أراقب النساء الجميلات وتعثرهن السكران الأنيق وهن يتجهن إلى الليموزين المنتظرة. أتسكع حولهن وكأنني أتوقع منهن القيام بدعوتي.

لم يكن أحد ينظر إليّ على الإطلاق، لكن ذلك كان حسناً. المشي أفضل من الاستلقاء على أرضية الفندق الصلبة والاستماع لشخير أمي وأخي وكلامهما أثناء النوم.

نسيتُ نفسي مرة أو اثنتين. تأخّر الوقت فجأة. ازداد الليل برودة؛

الشارع العظيم أصبح خاوياً، وأغلقت مقاهيه وسينماته أبوابها. أُسرع إلى البيت آخذاً شارع فيكتور هيجو الذي لا يقل خواء وعتمة أيضاً، حيث أنه محاط بأشجار كبيرة تحجب إضاءة الشارع. لم أكن أرى شيئاً، وكنتُ أرتعش. انتبهت أن عليّ أن أخلع نظارتي. تحسنت الرؤية كثيراً. شارع مليء بالبنايات القديمة الضخمة، كل نوافذه معتمة. إنها لحظة لا تُنسى. تملكني شعور جليّ بوجودي في تلك اللحظة وفي ذلك المكان وحدي، تأثرتُ جداً.

ذهبت في بعض الليالي مع زملائي من المشاغبين في المدرسة لمشاهدة الأفلام. سمحتْ لي أمي بذلك ظناً منها أن ذلك سيُحسّن من لغتي الفرنسية. لم يكن لديها فكرة عن نوعية أصحابي. في البداية كنا فقط نشاهد الأفلام. فيما بعد ادعينا أننا نقوم بذلك بينما كنا نذهب إلى بيجال وبلاس بلانش لنراقب العاهرات. بدأنا نهتم بأناقتنا. ارتديتُ ربطة عنق، أبقيت على شعري مُمشطاً للخلف، ودخنت السجائر على الطريقة الفرنسية، معلّقاً العُقب في زاوية فمي. لم يأخذنا أحد على محمل الجد. لم يكن لدينا نقودٌ للبنات. كنا نأمل في صداقة، حب من أول نظرة. المشكلة كانت أن علينا العودة إلى البيت في ساعة معينة. مهما كانت الفرص المتاحة بعد منتصف الليل، لم يكن بإمكاننا أن نكتشفها.

كان الشبان الفرنسيون الذين أقضي معهم وقتي لطفاء للغاية. ينتمون لأسر فقيرة. ولأن مستواهم في المدرسة كان سيئاً، أدركوا أن

أمامهم حياة صعبة. لم يكن لديهم أدنى شك في ذلك. في نفس الوقت، امتازوا بذكاء الشوارع، حس الفكاهة والرغبة في المغامرة، مما ذكرني بأصدقائي الذين تركتهم خلفي في بلجراد. بالرغم من محدودية فرنسيتي كنا نفهم بعضنا البعض تماماً. كانوا يضحكون عليّ بسبب هذا أو ذاك، ولكن ذلك كان دائماً ودياً. بالطبع، كانوا يعرفون ما يدور في باريس.

في ظهيرة ما ذهبت مع صديق إلى أحد عروض التعرّي. أتذكر أننا فكرنا طويلاً في الأمر قبل أن تواتينا الشجاعة على الذهاب. كنا خائفين أن يطردونا وأن يسخروا منّا. كان ذلك واحداً من أرخص الأماكن. لم يسألنا أحد أي سؤال. وجدنا أنفسنا في مسرح شبه خال. جلسنا في الأمام بعد أن جربنا الصفوف الأخيرة. تضمن العرض مغنياً وممثلاً هزليّاً. كانت النساء عتيقات، أو بدوْن لنا كذلك. أفخاذ وصدور ضخمة والكثير من طبقات الدهون. من موقعنا كان يمكننا أن نرى العلامات والندوب في أجسامهن. بدا الأمر كله رثاً، قبيحاً إلى أبعد حد. أتذكر أني احمررتُ خجلاً. لم نمكث حتى نهاية العرض.

١٠

ما زلنا في ١٩٥٣. أنا مهاجر عمري ١٥ عاماً وأسكن في باريس. أكره المدرسة. المدرسون لا يتحملون رؤيتي ويسعدهم على الأرجح أن أبقى بعيداً. أرسب في كل المواد ما عدا مادة الفن التي أحصل فيها بالكاد على علامة النجاح. لا أجيد التحدّث أو الكتابة بالفرنسية، لكن عديمي الرحمة لا يهمهم عذري هذا، لذلك أغادر الفصل خلسة كلّما تسنت لي طريقة للهروب. أتسكّع في الشوارع إلى أن يحين وقت عودتي إلى البيت. البيت عبارة عن غرفة في فندق حيث تنتظرني أمي مع أخي الأصغر الذي يذهب إلى مدرسة أخرى. عندنا سرير واحد. ينامان عليه بينما أنا أنام على الأرض، مرتدياً كامل ملابسي عادة بسبب رطوبة الأرضيّة. اكتشفتُ أن المرء يحتاج إلى مرتبة ليتقلّب عليها مؤرقاً ويتفلسف. معلّم مادة الرياضيّات، مسيو برتراند، كثيراً ما يجعلني أقف في زاوية الفصل كعقاب على أصغر إثم أقوم به، وكأنني طفل صغير. أنا لا أُمانع في قضاء اليوم كله في الركن ووجهي في الحائط. يمكنني أن أقضي الوقت في مراجعة بعض الأفلام التي شاهدتُها مؤخراً وأعجبتني.

ذات مرّة كان على زميلي في الفصل أن يربت على كتفي ليعيدني من لوس أنجلوس لأنني لم أسمع المدرس يأمرني بالعودة إلى مقعدي. بعد خمسة وأربعين عاماً ما زلتُ أحلم بذلك الركن. عاد الجميع إلى منازلهم وتركوني، حلّ المساء وكعب قدميّ متجمدٌ من البرد. عندما نظرتُ خلسة خلفي، رأيتُ سواد الليل ونوافذ الفصل الستة مبللة بالمطر. لا أعرف إذا كان عليّ أن أنتظر المدرّس حتى يعود ويسمح لي بالذهاب. إنه مجرّد حلم حيث لا شيء يحدث على الإطلاق مع ذلك أستيقظ منه حزيناً ومذعوراً.

من المنطقيّ أن تلعب الهوكي عندما يكون الجو دافئاً ومشمساً، ولكن ليس هذا ما يحدث هنا. كلما كان الجو أكثر تعاسة، كلّما أردت أن أهرب بعيداً. صباح الاثنين هو الأسوأ. لا أركب القطار من أجل التوفير. أحتمي بالمباني من المطر وأنا ذاهب في طريقي إلى جراند بوليفار، حيث الأروقة والمتاجر والسينمات وأماكن أخرى أجد فيها المأوى لأمضي بقية اليوم. اختبأتُ يوماً في كنيسة، نظرت لي العجوز التي كانت بمفردها هناك بقلق. خافت أن تركع لتصلي وظهرها لي. في صورة تعود لهذه الفترة، ألبس معطفاً أسود فضفاضاً له ياقة مرفوعة وبنطالا فاتح اللون مكرمشا للغاية وثنية الساق مهترئة، يدهشني أن أمي كانت تسمح لي بالخروج بهذا المنظر. ليس عندي قبّعة وأحتاج ـ بشكلٍ لا يختلف عليه اثنان ـ إلى قصّ شعري أو على أقل تقدير إلى تمشيطه. من نظرة البائعين لي، عرفتُ أنه لا يجب أن أضع قدمي في

المتاجر الفاخرة. على الرغم من كل ذلك، تعبير وجهي في الصورة مبهج بشكل واضح. قد يكون معطفي وقدماي مبلولين، لكنني في طريقي لمقابلة جين تيرني.

بالمبالغ القليلة التي كانت معي، لم يكن ممكناً أن أدخل العروض الأولى للأفلام. تعرّفت جيداً على السينمات الصغيرة الرثة بالمدينة. من الأماكن المفضلة التي أتردد عليها كثيراً دور السينما الكثيرة في جادة ديه تيرن، جحر مختبئ في إحدى فتحات شارع في جراند آرمي حيث تُعرض فقط أفلام رعاة البقر، سينمات متفرعة من شارع سان ميشيل في الحي اللاتيني حيث يتعانق طلاب السوربون، سينما ماك ماهون في شارع يحمل الاسم نفسه حيث شاهدت "غناء تحت المطر" عشرات المرات.

إذا كان الفيلم أمريكيّاً، كنت أدخل لمشاهدته على الفور. كانت أمي تأخذنا إلى الأفلام الفرنسية، لكني لا أتذكر عندما أكون وحدي إلا مشاهدة الأفلام المخصصة للكبار فقط حيث امرأة مثل مارتين كارول ـ كما قيل في المدرسة ـ كشفت عن ثدييها. في صباحات الأيام الممطرة، لم يكن قاطعو التذاكر يهتمون بعمري. بمعايير اليوم كانت تلك الأفلام محافظة جداً. نظرة سريعة هي كل ما يتمناه المرء. نعم، لقد كان هناك مؤخرات وأثداء كثيرة في السينما الفرنسية القديمة، لكن الأحداث الجريئة كانت رومنتيكيّة الجوهر. إضافة إلى ذلك، كنتُ قد أصبحت متيّماً بأفلام النوار الأمريكية.

لم أكن أعرف أن هذه الأفلام تُصنّف تحت هذا المصطلح بالطبع. كنتُ قد شاهدت Asphalt Jungle and Key Largo في بلجراد وأحببتهما جداً، وبحثت عن أفلام شبيهة بهما. في تلك الأيام، كانت السينمات تعرض لقطات من الأفلام التي سيتم عرضها لاحقاً وبالتالي تستطيع أن تأخذ فكرة عن الفيلم. من نظرة واحدة كنت أعرف نوعها. إذا كان هناك رجلٌ قويّ يرتدي معطفاً واقياً من المطر ويصوّب مسدساً أو شقراء متعجرفة تُظهر جزءاً كبيراً من ساقها المرفوعة على كرسي البار، أندفع داخلاً، غالباً في منتصف الفيلم. أجد نفسي في شارع خال في الليل. تظهر بعض الغيوم الفضية فوق ناطحات السحاب المظلمة، وتكون هناك سيارة مشبوهة تنتظرني. عادة لا يكون لديّ فكرة عن قصة الفيلم، ولهذا لا يبقى في الذاكرة إلا بعض المشاهد. لقد تأملت كل الوجوه، كل الغموض الداخليّ، وكأن الفيلم ورقة تاروت وأنا العرّاف المبتدئ. كنتُ مهووساً بفرونيكا ليك، لورين باكول، إيدا لوبينو، وحتى جلوريا جراهام، لكنني لم أضع عينيّ من قبل على جين تيرني إلى أن رأيتُ فيلم "لورا".

التقينا في دار سينما كهفيّة في جادة ديه تيرن. مجموعة من الأشخاص يجلسون متباعدين. قادتني المرشدة المألوفة إلى مقعدي داخل القاعة المظلمة ووضعت في جيبها البقشيش. إذا لم يكن معك المبلغ المناسب، كانت تعود وتسلّط الضوء على وجهك وتجبرك على الخروج أمام كل الحاضرين في القاعة لكونك بخيلاً. عادة ما أعدّ البقشيش مرات

قبل تسليمه إليها، وحتى بعد ذلك أجلس في ذعر الخمس دقائق الأولى من الفيلم.

"لورا" عبارة عن جريمة قتل غامضة تبدأ ببطلة الفيلم الجميلة ميتة بالفعل. رسمة زيتية للضحية مُعلّقة في شقتها الأنيقة تستحوذ على تفكير رجل المباحث الذي يحقق في القضية. تدريجيّاً يقع في غرام المرأة الميتة، وهذا ما حدث لي وأنا أشاهد الفيلم. للمفاجأة، تظهر لورا على قيد الحياة بغموض لا يقل عما كانت عليه أثناء اختفائها. لم أهتم كثيراً بالشخصيات ولا الأحداث الأخرى في الفيلم. إنها تيرني التي جذبتني بشعرها الداكن وجمالها الفاتن في ذلك اليوم. بأثير رقتها ولهجتها الأرستقراطية، بدت لي كروح للعطف والتفاهم. مع ذلك، بقدر ما تأملتها، ظلت بالنسبة لي قناعاً، لغزاً محيّراً. تقول إحدى الشخصيات في الفيلم: "يأتي إليها الأصدقاء في أوقات غريبة بالليل والنهار". في لحظات كان يمكنها أن تكون مومساً غالية أو مدمنة أفيون صينيّ. أتذكر تسللي إلى الصفّ الأماميّ لأتفحصها عن قرب.

بقيت للعرض التالي والذي تلاه. كنتُ في ورطة، ومع ذلك لم أكن أرغب في مغادرة مقعدي. مرّ بذهني أن بإمكاني الاختباء خلف إحدى الستائر السميكة طوال الليل، ثم أستأنف مشاهدتها غداً في الثانية عشرة. كنت منجذباً إليها بشدة. من الصعب أن أخرج إلى الظهيرة الداكنة الممطرة بهذه الإثارة الإيروتيكية، شاعراً بالذنب بسبب تغيبي عن المدرسة ومعرفتي أن أمي ستكون قلقة بجنون عليّ. يقول

الشاعر: "الموت هو أصل الجمال". أراهن أن هذا صحيح، لقد كنتُ خائفاً حد الموت من اهتياجي الداخلي كما كنتُ خائفاً من مقابلة أمي.

مرت عدة أيام قبل أن أستطيع أن أرى الفيلم مرة أخرى. بعدها تغيّر البرنامج. لم يكن هناك أفلام أخرى لتيرني معروضة في باريس. لقد بحثت في الجرائد والمجلات الترفيهية الأسبوعية حتى أتأكد ولكن لم يحالفني الحظ. وحيث أنهم لا يكتبون كل أسماء الممثلين المشتركين في فيلم، كان من الحصافة قطع طرقات باريس مُفتشاً إعلانات الأفلام المعروضة بنفسي.

في هذه الأثناء، كما تقول أغنية الفيلم، لم أستطع أن أُخرجها من رأسي. لا يهمني عدم اهتمام الفتيات من عمري بي. لقد كنتُ أتجول في الشوارع وذراعي في ذراع نديمتي السريّة. بالطبع لم يكن لديها وقت للأحاديث العابرة. كانت تتركني أناجي نفسي. أطلعتها على ما بداخلي ـ لكن في أية لغة؟ إنجليزيتي كانت ضعيفة، لم تكن فرنسيتي بأفضل حالاً، لا بد أنها كانت لغة مُبسطة من الاثنتين مع بعض كلمات متفرقة من الصرب كرواتية. في كل الأحوال، أصبحتُ أيضاً مهتماً بشكلي. لقد دهنت شعري بالفازلين، وبدأت ألبس ربطة عنق حمراء اشتريتها من محل عربيّ في شارع تمبل. استمرت أمي في إزعاجي بتكرار أن الشيوعيين فقط هم من يرتدون ربطة عنق حمراء. كل ما كان ينقصني كما قالت، أن أضع صحيفة الحزب الشيوعيّ ـ لومانيتيه ـ في جيبي.

قضيتُ ساعات أمام المرآة. أحياناً كانت لورا تصحبني هناك.

تخيلتُ نفسي ريتشارد بيسهارت عندما كان شاباً، بوجهه الذكي الحساس ذاك. كنتُ أضبط أخي ورائي مقلداً تعبيراتي، فننفجر في الضحك معاً، أو تبدأ أمي في مخايلتي لأقوم بعمل الواجب. لا يمكن أن يكون الجلوس في غرفة الفندق على الأرض مع أخي نلعب بعرباته بينما أمي تغلي وعاء آخر من المكرونة ممتعاً بالنسبة للسيدة تيرني.

حياتي الخيالية المعقّدة تُذكرني الآن ببوستر كيتون في فيلم شيرلوك جونيور، حيث يقوم بدور من يعرض شريط الفيلم ويتخيل نفسه داخل الفيلم المعروض على الشاشة. يشاهده الجمهور وهو يمشي مباشرة إلى الشاشة ويصبح جزءاً من الحدث. عندما يصل إلى هناك، يكون تحت رحمة الطريقة التي يتم بها قطع المشاهد. إنه يدخل غرفة المعيشة، غرفة المعيشة تتبخر، ويجد نفسه أمام الباب الأماميّ. يطرق الباب، ولكن في نفس اللحظة يحدث قطع وتختفي السلّمات والفناء. يحاول أن يجلس ولكنه يجد نفسه في وسط حركة مرور وعربات يتفاداها في آخر لحظة. وبعدها في قمة تلّ، ثم بين أسدين في غابة، عندها، يختفي الأسدان، هو في صحراء على وشك أن يدهسه قطار. وبعدها على صخرة في البحر. يغوص في عباب الأمواج ولكنه ينتهي على كتلة من الثلج. يُخلّص نفسه ويعود إلى الساحة الأولى حيث تبدأ الأحداث من جديد. في داخل البيت رجل وامرأة ما زالا يتعانقان.

هكذا كان الحال بيني وبين تيرني. كنا نلعب استغماية بين الحلم والواقع. في لحظة أتناول معها الغداء في الجونكان، في اللحظة التالية

نقف أمام نادي موسيقى الجاز في شارع سان أندريه مستمعين عبر الباب الموارب لـ دون بيس يعزف "لورا". حتى لو كانت معي النقود الكافية ما كانوا ليسمحوا لي بالدخول خاصة وأنا أكلّم نفسي بهذه الطريقة. تقول دانا أندروز التي تلعب دور المخبرة المسئولة عن القضية: "كم تتلاعب بك النساء"، يمكنني أن أوافق على ذلك بسهولة.

حتى تزداد القصة تعقيداً، شاهدتُ فيلماً آخر لتيرني. عنوانه "اتركها للجنة"، وكان مُدبلجاً. كانت تُثرثر بالفرنسية. نسيت أن أذكر أن لديّ نفوراً من الأفلام المدبلجة، كنت أذهب دائماً لما كان يُعرف بـ (النسخة الأصلية)، لكني لم أنتبه لذلك في هرولتي لرؤية معشوقتي.

في هذا الفيلم كانت المدموزيل قاتلة وانتحارية. نقابلها في أول الأمر في مقهى بعربة قطار. لقد غفت وسقط الكتاب الذي كانت تقرأه على ركبتيها، وهرع كورنيل وايلد ليلتقطه. استيقظتْ، أنيقة كالعادة، شكرته بذلك الهدوء والهمس الذي في صوتها، ووقع في الغرام. الفيلم مُلوّن، هكذا عرفت أن عينيها زرقاوان. عندها عادة الاقتراب من الشخص الذي تتحدّث إليه كأنها حسيرة البصر أو كأن هناك صعوبة في السمع. أصابني ذلك بتوتّر شديد.

الرجل الذي التقط الكتاب كاتبٌ، في الحقيقة هو مؤلف الكتاب الذي كانت تقرأه. تلعب تيرني دور المرأة التي، بعد زواجهما، تُصاب بالغيرة من كل شخص وكل شيء، بما في ذلك قضاء زوجها الساعات أمام الآلة الكاتبة بعيداً عنها. حتى أخوه المراهق، المُقعد، تعتبرهُ منافساً

لها. ففي يوم من الأيام تأخذه للخارج إلى زورق في بحيرة، وتحثه على السباحة مسافة طويلة، وعندما يفقد توازنه ويطلب نجدتها، تتوقف عن التجديف، بهدوء تصل إليه، تضع نظارتها الشمسيّة، وتتفرّج عليه وهو يغرق.

المشهد الأشد حقارة كان على الشاطئ بعد موت جنينها؛ حيث خططت متعمدة لأن تسقط من على الدرج. ساحرة بلباس البحر الأحمر الضيق، تمرح بالأمواج ثم تركض لتجفف نفسها، باسمة مما جعلني أرتجف في مقعدي. أدركت أن هذه المرأة مُعقّدة. لا مزيد من التمشيات قبيل الغروب على نهر السين ولا منظرنا متشابكي الأيدي في حديقة لوكسمبورج. ليس سهلاً أن تكون لديك صديقة مجرمة حتى لو كانت خيالية. كم كانت مستمتعة بكونها شريرة. كم كان ذلكِ كله مربكاً. رأسي كان يخبرني بشيء، بينما أتمتم بشيء آخر. خرجتُ من السينما دائخاً، فقط لأُفاجأ بنور الشمس يعميني. أتذكر أنه كان عليّ حماية عينيّ حتى أجد ببطء طريقي إلى المترو في سان ميشيل. كان ذلك أول يوم ربيعي دافيء، في كل مكان، لاحظت التحديق من حولي، لقد كان هناك شابات يعبرن في ملابس صيفيّة خفيفة، حتى أنني تابعتُ واحدة أو اثنتين منهن لمسافة حتى اختفتا في زحمة الظهيرة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

١١

أهمّ ما قمنا به في باريس كان دراسة اللغة الإنجليزيّة. اكتشفت أمي وجود دروس ليليّة مجانيّة مرتين في الأسبوع، تقدمها خدمات الكنيسة العالميّة. التحق بها ثلاثتنا. قبل ذلك، لا أعتقد أنني كنت أعرف عشر كلمات إنجليزيّة. أمي كانت تعرف الإنجليزيّة بعض الشيء. على أيّ حال، كنا في الفصل مع مجموعة من اللاجئين من كل أنحاء أوربا الشرقيّة، ومُدرّسنا كان قساً أمريكيّاً غاية في اللطف. عملت بجديّة لأول مرة، وأحببت اللغة على الفور.

بدأنا في شراء جريدة الساترداي افينينج بوست ومجلة لووك من أجل التدرّب على القراءة. كنتُ أفهم القليل مما أقرأه، لكن الصور والإعلانات كانت مسلية جداً. الألوان الأمريكيّة زاهية. لم يكن الواحد يرى مثل هذا الأصفر والأحمر والبرتقاليّ في أوروبا. أرعبتني صور الأطفال؛ كانوا بالغي النظافة وسعداء للغاية. غالباً ما كان عند الفتيات نمش، ويضحكن كثيراً. كل الناس يضحكون. المسنون لديهم أسنان

كاملة، نجوم السينما، السياسيّون أيضاً، كلهم لديهم ابتسامة عريضة تملأ وجوههم. لا أحد يبتسم هكذا في فرنسا؛ خاصة الحلاقين. أتذكّر وجوهاً تشبه بورتريهات نورمان روكويل على غلاف مجلة حيث كان هناك طفل أحمر الشعر يجلس على كرسي الحلاقة والحلاق منحنٍ عليه مبتمساً وبيديه المقصّ. اعتاد الحلاقون في باريس أن ينظروا لي باحتقار في المرات النادرة التي ذهبت فيها لقصّ شعري.

عندما ذهبنا إلى السفارة الأمريكية من أجل الفحص الطبيّ المطلوب من طالبي الهجرة، توقعت أن يكون الطبيب مبتسماً. ولكنه بدا عابساً وهو يستمع إلى صدري. قلت لنفسي لا بد أنني مريض جداً. لم تبتسم الممرضات أيضاً. بات واضحاً أنه سيتم رفضي. سيذهب أخي وأمي إلى أمريكا، أما أنا فسأبقى في فرنسا أتلاشى تدريجيّاً من مرض ليس له علاج في إحدى المستشفيات الحكومية المكتظة القذرة.

مرّت أسابيع قبل أن نحصل على نتيجة الفحص. في أثناء الانتظار، كنا قلقين نقلّب صفحات المجلات الأمريكية، نتعرّف على السيارات، ولحم الخنزير المُعلّب والحلويات اللذيذة ذات الطبقات المتعددة. الصيف على الأبواب. تمشينا طوال الوقت. في أحد المساءات، بعد الغروب مباشرة، في جادة فيكتور هوجو الأنيقة، رأينا الأمير بول، شقيق ملك يوغوسلافيا المقتول والذي هو نفسه كان قد خُلع من منصبه في حادثة ورّطت يوغوسلافيا في الحرب سنة ١٩٤١. ذهبتْ إليه أمي لتقول له إننا يوغسلاف. ما زلتُ أتذكر الرجل العجوز شديد

الأناقة وهو ينحني بتصنّع أمام أمي ويسألني عن اسمي. شعرتُ بأنه لم يكن ليكترث أيّاً كان اسمي.

في تلك الأيام، سواء في باريس أو في أمريكا، قابلنا بالصدفة سياسيين مشهورين، ممن كانوا مسئولين ـ إذا كان هناك من يتحمل المسئولية المباشرة ـ عن مشاكل يوغوسلافيا. هنا، وأنت جالس في مطبخ أحدهم تقطع السجق، ستجد وجهاً مألوفاً تتذكره من صحيفة قديمة، موقعاً اتفاقية ما مع هِتلر أو موسوليني. كان من الصعب تصديق أنهم نفس الناس. إنهم يبدون كأشخاص عاديين ويتكلمون بتفاهة مثل الآخرين. كانوا يتوقعون أن يعودوا الأسبوع القادم أو الذي يليه على أكثر تقدير. ستمتلئ قصورهم وحساباتهم البنكية من جديد. وسترحب حشود عظيمة بهم وهي تهتف: "أنتم كنتم على حق!، أنتم على حق دائماً!" لم يكن يعجبهم على الإطلاق ما أقوله أنا أو أمي عن يوغوسلافيا. أصروا أن لا شيء تغيّر منذ غادروها. شعروا بالأسف تجاهنا لأننا مخدوعون بالدعاية الشيوعية.

حصلنا على التأشيرات الأمريكية في أوائل يونيه ١٩٥٤. استغرق حجزنا لتذكرة السفر عدّة أسابيع أخرى. تكفّلت خدمات الكنيسة العالميّة بجميع تكاليف السفر. تقرّر سفرنا في الخامس من أغسطس على باخرة الملكة ماري. يالها من إثارة! الجميع قالوا لنا: "ستبدأون حياة جديدة"، حتى البقّال أكد لنا أن حياتنا هناك ستكون رائعة.

مرت أيامنا الباقية في باريس ببطء شديد. أخذتنا أمي إلى المتاحف

يومياً لكي نتذكر كنوز الفن الفرنسيّ العظيم. بدأنا نأكل وجبات محترمة في مطاعم الأحياء المحترمة. كنا نذهب إلى السينما في المساءات، نشاهد الأفلام الأمريكيّة من مقاعد الصفّ الأوّل، محاولين تخيّل مستقبلنا.

لقد رسبت في جميع المواد الدراسيّة ما عدا الرسم والموسيقى، لذلك تحاشيت أصدقاء المدرسة. شعرت بالخجل من نفسي. بعد رعب انتظار نتائج الفحص الطبيّ، بدأتُ أتفاءل ولكن ليس بشكل كامل. لم يكن هناك ما يقنعني بأنني سأنجح في أمريكا.

تلألأت سفينة الملكة ماري بالأنوار ليلة صعودنا إليها. كانت واسعة جداً من الداخل كأنها متاهة حقيقيّة. سافرنا في أدنى درجة ومع ذلك بدت لنا وسائل الراحة غاية في الرفاهية. مرت بضعة أيام من الرحلة قبل أن نكتشف أنه ممنوع علينا أن نترك الدرجة الثالثة. كان هناك باب مكتوب عليه ذلك بوضوح. تسللتُ عبره مرة، وسرتُ في الدرجة الثانية الفخمة في طريقي للدرجة الأولى. هناك مطاعم ومتاجر أنيقة كأرقى ما تكون الأناقة في باريس. رأيت سيدات في فساتين سهرة مفتوحة وأثداؤهن بارزة كأنها على وشك السقوط، رجالاً في الاسموكن يدخنون السيجار، أطفالاً يرتدون ربطات عنق ويبدو عليهم الغرور. لا زلتُ أذكر عجوزاً مرصعة بالجواهر في كرسي متحرّك وتدفعها ممرضة حسناء بلباس أبيض. لم يمض وقتٌ طويل قبل أن يكتشفني أحد مضيفي السفينة هائماً، فأشار لي بأدب أن أعود إلى

الدرجة الثالثة.

لم يكن عندنا أي اعتراض على الدرجة الثالثة. على العكس من ذلك. مقصورتنا كانت صغيرة وبلا نوافذ لكنها مريحة. الأكل ممتازٌ، كما كان هناك عرضٌ لفيلم جديد كل يوم. بدا الجميع ودودين وفي مزاج جيد خاصة في بداية الرحلة.

هبّت عاصفة بعد يوم أو اثنين من مغادرتنا ميناء الهافْر. بدأت في الليل. ترجرجت السفينة بقوة وأصدرت صريراً كأنها ستنهار. أصبح النوم مستحيلاً وأُصيب كثير من الركاب بدُوار البحر. في الصباح لم يحضر الفطور إلا قلة من الركاب. في الظهيرة، وبينما ما زالت العاصفة في أوجها، كانت صالة السينما خالية من الناس ولكنهم عرضوا الفيلم على أية حال. اهتزت السفينة ولطمتها الأمواج من كل جانب، ولكن الناس على الشاشة استمروا في الكلام برباطة جأش.

كانت أمي تتقيّأ في المقصورة، رفضتُ أنا وأخي أن نبقى في السرير. أحببنا الطعام جداً لدرجة أننا سعينا بكل قوانا ألا نقيء. تجولنا في السفينة، بالطبع كان المشي صعباً، فكان علينا أن نستند على الحوائط أو نُمسك بالدرابزين. لم نشعر ولو لوهلة بالخوف. جلسنا في قاعة الاستراحة الخالية ساعات نشاهد الأمواج ترتفع وتنزلق أسفل السفينة. كان هناك الكثير من المياه، المشهد كان بالغ الروعة. لن ننسى ذلك المشهد أبدًا.

في اليوم التالي هدأت العاصفة وانقشعت الغيوم من السماء. أوضح الجدول المعلّق على باب مكتب التحكم ما قطعناه من الرحلة. لقد تجاوزنا أكثر من نصف المسافة. كنا نسأل الطاقم باستمرار: متى سنرى اليابسة؟

ظهرت اليابسة ليلاً. بحلول الصباح، أصبح بإمكاننا رؤية الأرض. إننا نُسرع باتجاه مرفأ نيويورك. بعد الإفطار تجمّع الكلّ على ظهر السفينة. بدأنا نحاول تخمين التفاصيل. كان هناك طريق وفيه سيارة. كل الناس أشاروا للسيارة! أيضاً، عدّة بيوت بيضاء غاية في الأناقة. يمكن للمرء أن يرى الملابس تجفّ على حبال الغسيل في فناء خلفيّ لأحد البيوت. ثم مرّ بجانبنا مركب صيد وعلى ظهره أفريقيّان لوّحا لنا. بسرعة، بدأنا نرى مراكب صغيرة في كل مكان. كان باستطاعتنا أن نرى تمثال الحرية. أعتقد أن الناس انطلقت في الصياح والتهليل.

أول ما أدهشني، وجعلني لا أجد الكلمات من الذهول، كان رؤية منهاتن وناطحات السحاب. بدا ذلك مثل أفلام السينما، إلا أنه كان واقعيّاً. المدينة العملاقة أمام أعيننا بمرافئها وسفنها الضخمة وطرقها السريعة حولها، ولوحاتها الإعلانيّة. كان أبي هناك ينتظرنا في مكان ما. حاولنا أن نجده، لم نعرف أنه ما زال أمامنا أن نقضي ساعات في تخليص أوراق الهجرة. بسبب خبراتنا السابقة في عبور الحدود كنا متوترين للغاية. ماذا لو فاجأونا وأرسلونا مرة أخرى إلى يوغوسلافيا؟

كان أبي ينتظرنا بعد مكتب الجمارك. طويل القامة. عرفناه من

الصور. لوّح لنا ولوّحنا له. كان يرتدي بدلة بيضاء وكان باستطاعتنا أن نرى القميص الأزرق وحمالتيّ البنطال تحتها. فكرنا، كم هو أمريكيّ للغاية. كان يدخّن سيجاراً طويلاً، وابتسم لنا بمودّة.

ثم ارتباك الأحضان والقبلات، تأثُّر أبي وهو يرى أخي لأول مرة، البحث عن حمّال، انتظار سيارة أجرة. يتكلم الجميع في نفس الوقت. كل شيء رائع بشكلٍ لا يُصدّق! القمامة في الشوارع، طريقة ارتداء الناس لملابسهم، البنايات العالية، القذارة، الحرارة، التاكسيّات الصفراء، لوحات الإعلانات وإشارات المرور. لم تكن أمريكا مثل أوربا؛ كانت عظيمة في بشاعتها وجميلة للغاية في نفس الوقت. أحببتُ أمريكا على الفور.

انتظرتنا مفاجأة أخرى في غرفة الفندق؛ جهاز تليفزيون. بينما كانت أمي وأبي يتحدثان، جلسنا أنا وأخي نشاهد فريق دودجرز ضد جاينتس. أتذكر مَن كان يلعب لأن أخي وقع في غرام البيسبول منذ تلك الظهيرة، غرام دودجرز على وجه الخصوص، بل وأصرّ على أن يتم تجهيزه في الحال بقبعة وقفازات بيسبول.

ذلك المساء، بعد تجوّلنا حول تايم سكوير وبرودواي، ذهبنا إلى مطعم وتناولنا الهامبورجر والفرينش فرايز والميلك شيك ثم آيس كريم الموز. لا أعرف ماذا كان رأي أمي في هذه الوجبة، ولكننا أحببناها جداً. الطعام الأمريكيّ هو طعام الأطفال، ولا يوجد طفلٌ في العالم يمكن أن يقاومه. كان أبي يكرّر "تذكّر هذا اليوم!". بالفعل، كان ذلك

العاشر من أغسطس ١٩٥٤. سيأخذنا أبي في الغد لنشتري ملابس وأحذية أمريكية وأشياء كثيرة أخرى.

مَن يستطيع النوم؟ أمي وأخي ناما. جلستُ أشاهد مع أبي التليفزيون ونتحدّث. كان الوقت ما زال مبكراً. قال أبي "تعال نخرج للتمشية". فندقنا يبعُد شارعين فقط عن تايم سكوير. وجدنا أنفسنا هناك مرة أخرى، نشاهد الزحام. شعرت بالراحة مع أبي على الفور. لم يتعامل أبداً مع مَن هم أصغر منه بشكل مختلف. كان يتحدث مع الجميع بنفس الطريقة. يُخاطب طفلاً في الخامسة يبيع عصير الليمون في الشارع وكأنه مدير شركة.

انتهى بنا الأمر تلك الليلة في نادٍ لموسيقى الجاز، اسمه المتروبول، يقع على برودواي والشارع الثامن والأربعين. قاعة ضيقة طويلة، يوجد البار في جانب وموائد صغيرة في الجانب الآخر. منصة الفرقة الموسيقية كانت فوق البار بالضبط، وتتكوّن من ستة موسيقيين سود جاهزين للانطلاق المدوّي.

جلسنا إلى مائدة، طلب أبي ويسكي لنفسه وزنجبيلاً لي. لابد أنه كان يوماً مهماً بالنسبة له أيضاً. استغرقتني الموسيقى كليّاً. كان ذلك أفضل من أي راديو. إنها الجنة.

سهرنا طويلاً، حتى أن أبي أعطاني بعض رشفات من الويسكي. تحدثنا بين المقطوعات الموسيقية. حكيت له عن حياتي وحكى لي عن

حياته. تلك كانت فقط البداية. سنقضي الكثير من الليالي معاً. يحب أبي الحياة الليلية. أسعد حالاته تكون في البارات والمطاعم، في صحبة أصدقائه ومع طعام وشراب جيدين. كان يتوهّج، بهجة حقيقية أن تكون معه حينها. كان مليئاً بالحياة والأحاديث المثيرة. لم أكن أريد أن أذهب للنوم ولكننا ذهبنا في آخر الأمر.

قال "هذا رائع". لقد تمنى دائماً أن يأتي إلى أمريكا. وواتته الفرصة في ١٩٢٦حيث حصل على منحة ما في جامعة كولومبيا، لم يقبلها لأسباب غاية في التفاهة، وسيندم طوال حياته على ذلك. قال لي "حتى في السجن في إيطاليا، كنت أجلس في عزلتي أحلم بنيويورك".

في صباح أحد الأيام أخذه الألمان إلى الساحة، ظنّ أنهم سيطلقون الرصاص عليه. كانت هناك فرقة من الجنود المسلحين وبينهم ضابط، لكن جاء مصورٌ ومعه كاميرا من ذوات القوائم الثلاث وأخذ عدداً من الصور لأبي واقفاً أمام الحائط. لم تكن عنده أدنى فكرة عن السبب. وهم يقتادونه إلى الزنزانة قال للمصوّر: "أريد أن أرى نيويورك قبل أن أموت".

كان أبي ما زال موظفاً في نفس شركة الاتصالات التي بدأ العمل بها في يوغوسلافيا. المقرّ الرئيسي للشركة كان في شيكاغو ولكنه كان يقضي معظم وقته على الطرقات، كلّما احتاجت إحدى الشركات المتعاملة معهم خطوط تليفون إضافية، كان يتم إرسال أبي ليختبر

المرافق ويرسم المخطّطات، ويقيم هناك حتى تنتهي المهمة. بهذه الطريقة، عاش من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤ متنقلاً من بلدة لأخرى، مُمضياً في كل بلدة ما يتراوح بين شهرين إلى سنة. عندما وصلنا كان يعمل في ميدتاون، نيويورك. وبانتهاء إجازته وجد لنا شقة في كوينز، وعاد إلى ميدتاون وذهبتُ معه.

كانت الخطة أن أدرس الإنجليزية وحدي وألا ألتحق بمدرسة حتى بداية الفصل الدراسي الثاني. نقضي أيام الأسبوع في ميدتاون ونأتي إلى نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع. هذا ما حدث بالفعل. سكنا في بيت مشترك بالقرب من عمل والدي. في المساءات كنا نأكل في الخارج ثم نذهب إلى السينما أو نعود إلى البيت حيث نتكلم ونشرب النبيذ.

كعادة أبي، كان لديه الكثير من الكتب، صندوقان ضخمان مليئان بالكتب. في ذلك الوقت كان طموحه أن يكتب تأريخاً نقدياً للماركسيّة، لهذا كانت معظم الكتب تدور حول هذا الموضوع. كان يقرأ إلى وقت متأخر من الليل ويكتب ملحوظات طويلة. تحدّث أحياناً عن هذا المشروع بينما يحكي لي عن حياته. كانت هناك حياته، وكان هناك الماركسيّة والفاشيّة وكل الأشياء الأخرى. كان يحاول أن يفهمها جميعاً.

قصصه كانت مسلية للغاية. اهتمّ أيضاً بقصصي. بدا وكأن لدينا الكثير ليحكيه أحدنا للآخر. ما جعل الأمر مثيراً بالنسبة لي هو أنه ولأول مرة في حياتي أستطيع أن أكون صريحاً بشكل مطلق. أخبرته بكل شيء وهو أيضاً قام بذلك. كنا أنا وهو، كل بطريقته، وحيدين جداً. خلقتْ العشر سنوات التي لم نر فيها بعضنا صعوبة في أن نبني علاقتنا كأب وابن. بدا أن الأسهل هو أن نصبح صديقين وأن نتحدث كأصدقاء. كان الناس يُصدمون عندما يسمعون حديثنا. "تلك الطريقة التي يتحدث بها الولد مع أبيه!".

خلال تلك الفترة كان هو مَن يُعلمني الإنجليزية. أول كتاب قرأته كان "شاهد" للكاتب ويتكر تشامبرز. لا أتذكر منه شيئاً الآن، ولكنه في ذلك الوقت منحني الثقة اللازمة لمحاولة قراءة الآخرين. عندما نكون في نيويورك يفضل أبي أن يقضي صباحات السبت في التنقل من مكتبة إلى أخرى. هو يشتري الكتب، وأنا أنتقي بعضها لنفسي. غالباً ما كنتُ أختار كتاباً صعباً بالنسبة لي. لقد قرأت همنجواي ومارك توين ويعلم الله ماذا أيضاً. تستغرق قراءتي وقتاً طويلاً حيث كان عليّ أن أبحث عن الكثير من المفردات في القاموس، تظلّ هناك مقاطع طويلة لا أفهمها. مع ذلك، كان لديّ الكثير من الوقت أثناء وجود والدي في العمل.

أرعبتني فكرة العودة إلى المدرسة. لقد مضى وقت طويل منذ كنت طالباً مُنتظماً. لا أملك الثقة في قدراتي، وأيضاً ليس لديّ أدنى فكرة عن الصفّ الدراسيّ الذي سيلحقونني به. رؤية من هم في مثل سني ذاهبين

إلى المدرسة كانت تجعلني أرتعش. الطريقة التي أتكلم بها الإنجليزية ستجعل أي شخص يقول فوراً إنني أجنبيّ.

كلما اقترب الكريسماس وبدء الفصل الدراسي كلما ازدادت تعاستي. أبي لم يزل مرحاً، لكن جو البيت أصبح متوتراً. كان جليّاً أن العلاقة بين أبي وأمي ليست على ما يرام. كل من الانفصال لمدة عشر سنوات والاختلاف الكبير بين شخصيتيهما جعل منهما غريبين. أي شيء يعجب أحدهما لا يروق للآخر. أمي، على سبيل المثال، لم يكن يهمها الحياة الأمريكيّة. تعرّفت بالفعل على بعض اليوغسلاف، تراهم بشكل منتظم، ورغم أنها ترغب في تطوير إنجليزيتها حتى تتمكن من الحصول على عمل، إلا أنه ليس عندها أي رغبة للتعرّف على هذا البلد. ولأنني أنا وأخي أخذنا جانب أبي، اشتعلت صراعات متواصلة، ازدادت غيرتها. تقول بشكل مفاجئ: "أنتَ لم تعد تحبني". نقع في الخطأ فنقول: "نحن نستمتع معه أكثر".

رغم ذلك، تم الحفاظ على المظاهر لبعض الوقت. نجلس حول مائدة الطعام ونضع خططاً للمستقبل. سنلتحق أنا وأخي بالجامعة وأشياء من هذا القبيل. كنتُ أشك في ذلك ولكني لم أقل شيئاً.

المدرسة الثانوية التي كان من المفترض أن ألتحق بها كانت تقع في منطقة كوينز. ذهب والداي ليستفسرا عن المطلوب. دعوني بعد رأس السنة مباشرة لإجراء بعض الاختبارات حتى يتم تحديد الصفّ المناسب

لي قبل استئناف الدراسة.

لم أنم الليلة التي سبقت المقابلة. والدي كان في ميدتاون والصباح كان عاصفاً وبارداً بشكل مريع، تمشينا مسافة طويلة من منزلنا للمدرسة. عندما وصلتُ كنت شبه مخدّر من البرد والرعب.

كما يحدث عادة في الحياة، سارت الأحداث بطريقة لم أتوقعها. لحسن الحظ، لم يكن مطروحاً مراسلة بلجراد أو باريس لطلب شهاداتي. النظام التعليمي الأوربي مختلف جداً، وسيكون من الصعوبة معادلة هذه المستندات، هذا إذا وصلت في آخر المطاف. بالتالي بسّطوا العملية؛ أعطوني اختبار ذكاء، أما بالنسبة للباقي، فقد سألوني أن أكتب قائمة بالمواد التي درستها في أوربا.

كان ذلك سهلاً للغاية، كتبت أسماء مواد مثل الجبر، الفيزياء، اللغة الفرنسية، الروسيّة، تاريخ العالم، والأحياء. سألوني سؤالين في كل مادة، وخلال ذلك عرفوا أني درست هوميروس وفرجيل وهذا حسم المسألة. التحقت بالصف الأول الثانوي في الفصل الدراسي الثاني. هذه العملية لم تستغرق أكثر من ساعتين.

شعرتُ بارتياح كبير. ما زال لديّ بعض القلق بخصوص قيامي بالواجبات المدرسية، لكن هذه بداية خارقة. حبي لأمريكا كان مطلقاً. لم يعد هناك المسيو برتراند ولا سخريته التافهة على حسابي. حتى المدرسون في يوغوسلافيا اعتادوا أن يصعّبوا الأمور عليّ بعد أن تدهور

مستواي، كانوا يذكّرونني يوميّاً أن المدرسة ليست للأغبياء من أمثالي. لقد سمعت أنهم صُدموا بعد ذلك بسنوات عندما قيل لهم أنني التحقت بكلية؛ "ذلك المتسكع الصغير! الأمريكيون لا يفهمون شيئاً".

المدرسة نفسها كانت رائعة. مدرسة نيوتن الثانوية كانت مثالاً لفيلم Blackboard Jungle. لقد قابلت كل أنواع الأحداث المنحرفين في حياتي، ولكن ليس بهذا الكم. كانت مدرسة للتهذيب والإصلاح. المدرسون مشغولون بالحفاظ على الانضباط. إذا التزمت بالصمت مثلما كنت أفعل، فستجتاز جميع المواد. أتذكر فصلاً كبيراً في مادة اسمها "علم الصحة". جلست في الصف الأخير ألعب الشطرنج مع ولد أسود. في مقدمة الفصل كان المدرّس يتجادل مع طالبين مشاغبين ممن يرتدون السترات الجلدية. ذلك ما كان يحدث كل يوم، نصف الطلاب يزعج المدرس بينما النصف الآخر غارق في أحلام اليقظة. لم أقم بأي جهد قط، ولم يطلب مني أحد أن أعمل. لا أعتقد أنه كانت لديّ أي فكرة عما يتوجب عليّ القيام به، لكني حافظتُ على صمتي وحصلت في مقابل ذلك على تقدير جيد عند نهاية الفصل الدراسيّ.

الفصول الأخرى لم تكن أفضل حالاً. في فصل اللغة الإنجليزيّة، حاولت العجوز التي تُدرّس لنا أن تقرأ بصوت عال إحدى حكايات إدجار آلن بو. الفصل، رغم كل اعتراضاتها، تبرع بالمؤثرات الصوتية. كان هناك الصرير المشئوم للأبواب وأغطية التوابيت، تكتكة الساعات في منتصف الليل، وهبوب الريح عبر البرج الخرِب. رجتْنا أن نتوقف.

حدث نفس الشيء ونحن نقرأ يوليوس قيصر؛ مزيد من المؤثرات الصوتية والضحكات المكتومة. ذهبت لها مرة بعد الفصل لأطلب تأجيل موعد تسليم بحث نهاية الفصل الدراسيّ، متحججاً أن تأخري بسبب جهلي باللغة الإنجليزيّة. قالت السيدة المسكينة لي: "لا تقلق، أعرف أنك ولدٌ جيدٌ". كنتُ بالتأكيد ولداً جيداً، مهذباً في الفصل وأقوم بعمل الواجب. كنت مهتماً بالبنات، لكني خجلت أن أتكلم معهن بلكنتي الثقيلة. بالنسبة للأولاد، كان أغلبهم من مثيري المشاكل، ولقد عرفت ما يكفي من هذا النوع. أيضاً، لم يكن عندي وقت للتسكع؛ كنت أعمل بعد المدرسة وطوال أيام السبت.

كانت وظيفة رائعة من وجهة نظري. لقد عملت في شركة صغيرة تمد الطائرات بمسامير خاصة. كنت أساعد موظف المخزن في عدّ المسامير، إنها مسامير غالية للغاية لذا يجب عدّها بعناية شديدة وهو ما كنت أقوم به. لم يكن عملاً صعباً، وتقاضيت راتباً على ذلك. اشتريت فونوغراف رخيصاً وأول اسطوانة موسيقى جاز. أيام الأحد، أذهب لمانهاتن وللسينما. بدأت أشعر براحة كبيرة في أمريكا.

الحدث الأكبر في هذا الربيع كان شراء تليفزيون. لقد كان ضخماً، واحد وعشرين بوصة، عانيت أنا وأبي في حمله من المحل إلى البيت. ما إن قمنا بتشغيله حتى استمر بدون توقف. كنا نشاهد التلفزيون طوال الوقت. الجميع أقرّ بأهميته لتطوير لغتنا الإنجليزيّة، كان

ذلك صحيحاً. توقفتُ عن قراءة الكتب وبدأت فقط أتفرج عليه. كل شيء بدا ممتعاً بدءاً من برامج الصباح وحتى أفلام آخر الليل. أعتقد أنني وأخي بدأنا نتحدث إلى بعضنا بالإنجليزية بسبب مشاهدتنا للتليفزيون. كنا بمجرد أن نسمع بعض العبارات من التليفزيون نريد أن نستخدمها على الفور.

أدهشني كيف شعرنا بالاستقرار في أمريكا بهذه السرعة. موقف والدي كان له الدور الأكبر في ذلك، كان يرى أمريكا أكثر الأماكن متعة على وجه الأرض وتمنى أن نشاركه الاستمتاع بها. لم تكن لديه أدنى رغبة في العودة إلى يوغوسلافيا وأراد أن نصبح أمريكيين حقيقيين. أمي، على العكس من ذلك، احتفظت بقناعة أن الأوربيين هم الأسمى. كانت تفتقد أوربا. أنا لم أفتقدها، لقد كنتُ متخبطاً فيها. هنا نجحت في أن أنهي فصلاً دراسياً، أن أحصل على عمل، كما أن الصيف قادم.

ثم كانت هناك مفاجأة أخرى، تمت الموافقة على طلب والدي بنقله إلى فرع الشركة الرئيسيّ، الأمر الذي ما كان يتوقعه. كنا سننتقل إلى شيكاغو حيث سنسكن جميعاً معاً، نراه طوال الوقت، ونعيش حياة طبيعية.

لم أكن لا أنا ولا أمي سعيدين تماماً بفكرة انتقالنا مرة أخرى. هي كانت قلقة أن نترك نيويورك حيث هناك فرصة أكبر للحصول على عمل في مجال الموسيقى. كانت تحاول أن تستأنف عملها كمدرّبة صوت دون أن يحالفها الحظ. في نفس الوقت، أرادت حياة عائلية طبيعية. لم تكن هناك خيارات كثيرة في الحقيقة، تقرّر أن أذهب أنا وأبي أولاً لنجد شقة، على أن يلحق بنا أخي وأمي فيما بعد.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٢

سافرنا إلى شيكاغو أواخر يونيه ١٩٥٥ في قطار اسمه القرن العشرين. كان سفراً مريحاً، ننام في مقصورة ونتناول وجباتنا في غرفة طعام أنيقة. في شيكاغو أقمنا في غرفة في فندق دراك الفخم في شارع ميشيجن. كان الشباك يطل على البحيرة. يوجد شاطئ للسباحة يمكننا ارتياده في المنطقة كما يوجد الكثير من المطاعم والنوادي الليلية. قضينا الأسبوعين الأولين نستمتع بالحياة ولم نبذل أدنى جهد في البحث عن شقة. عندما هاتفتنا أمي قلنا لها إن الموضوع صعب للغاية، المدينة كبيرة جداً وأشياء من هذا القبيل.

مرة أخرى أتحدث أنا وأبي طوال الوقت. بدأت أكوّن صورة واضحة عن خلفية الأسرة عبر تلك الأحاديث المتأخرة في الليل.

على سبيل المثال، جدّي الأكبر، فيليب، كان حداداً في قرية صغيرة في صربيا. جدتي الكبرى ماتت أثناء الولادة، وكان على جدّي أن يعتني وحده بابنته وابنه. يبدو أنه لم يكن لديه أي أقارب في المنطقة.

لقد كان والده أو جده قد هاجر من الجبل الأسود إلى صربيا. لم يكن والدي يعرف بالضبط.

أحببت القصص عن جدّي الأكبر، خاصة قصة منها! كيف أنه امتنع عن دفع الضرائب لمدة وكيف جاء البوليس في أحد الأيام ليقبض عليه بالقوة. توسّل إليهم ألا يأخذوه بعيداً حتى لا يترك أولاده اليتامى. كان لديه اقتراح؛ ماذا لو أعطوه وظيفة صغيرة في قسم البوليس، لو عيّنوه مساعداً لأحدهم أو شيئا من هذا القبيل، حتى يستطيع أن يوفر بعض النقود ويدفع الضرائب.

حسنٌ، تعاطف رجال البوليس لكونهم من المنطقة ويعرفون فيليب. حسموا الأمر داخل قسم البوليس. أعطوه بندقية، وبعض النقود مقدّماً ليشتري ما يلزمه من أجل القيام بالوظيفة. كان هناك الكثير من الدموع والامتنان من جانبه، تأثر الجميع بذلك، وبعد أن شكرهم عدة مرات، غادر فيليب. ذهب مباشرة إلى حانة، أقام هناك ثلاثة أيام يثير المشاكل. عندما فقد عقله تماماً، أمر الجرسونات تحت تهديد السلاح أن يحملوا أربع طاولات إلى الخارج. ثم أمرهم أن يضعوها فوق بعضها البعض، ثم أن يضعوا كرسيّاً وزجاجة خمر على قمتها. ثم صعد إلى الكرسيّ في حالة سُكر بيّن. تجمع الناس بالطبع. كان هناك غجر يعزفون الكمان ويضربون على الدفوف. بدأ فيليب يُطلق الرصاص في الهواء ويصرخ أنه لا يمكن أن يصبح رجلٌ من أسرة سيميك غبياً لدرجة العمل في البوليس. جاء البوليس، أعطوه علقة ساخنة ورموه في السجن.

ابن فيليب، جدّي زيكا، ذهب إلى فيينا وبراغ وهو ما زال صغيراً لتعلّم صناعة الأدوات المعدنية. عندما عاد قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، وعلى مرّ سنوات، أصبح أفضل حرفيّ في هذا المجال في بلجراد. بعد الحرب، كان شغله مطلوباً وأصبح ميسوراً لبعض الوقت. مع ذلك كان مزاجيّاً مثل والده بالضبط. لم يستطع الاحتفاظ بالنقود. كان يكره كل قيم ومؤسسات الطبقة الوسطى. لقد وضع السياسيين، والقساوسة، والمدرسين في قائمة الكائنات التافهة. لم يكن يشبه على الإطلاق جدّي لأمي إلا في اتفاقهما على ذلك. سمعته مرة يقول: "أنا لا أحب إلا الجرسونات".

مع ذلك، تزوج أخت مُدرسة. روديكا، أم أبي، أنجبت أربعة أطفال وماتت بمرض السل عندما كان والدي في الثانية عشرة. ولأنه كان الأكبر بينهم، اعتنى بإخوته الصغار. كان والدي يتكلم كثيراً عن أمه حتى آخر أيام حياته، بينما يموت في مستشفى في دوفر، نيوهامشر. يقول إن غناءها كان جميلاً وإنها كانت تعزف على "كل الآلات". كان لا يزال يتذكر الأغنيات التي علّمته إياها ويحاول أن يغنيها والدموع في عينيه:

كان هناك ثلاثة مراعٍ ولا ظلّ يمكن أن تجده
ثلاثة مراعٍ، ليس فيها إلا شجرة عجوز بلا أوراق ...

لا أتذكر الكلمات بدقة، ولكن والدي لم ينسها حتى مماته. حزنه على أمه، على حياتها القصيرة التعيسة، بعد سبعين عاماً من موتها،

كان أعظم من تفكيره في موته الوشيك. لقد تعامل مع موته الوشيك بتجاهل عجيب.

علاقة والدي بجدّي كانت معقدة جداً. أخبرني مرات عديدة أنه لا يريد أن يشبه أباه في نذالته. ولكن في مرات أخرى قد يحكي لي قصصاً عن جلوسهما معاً يشربان، ويستمعان لغناء الغجر، ويكون هناك الكثير من العاطفة تجاه أبيه. كل أولاد زيكا ـ هناك اثنان من زوجته الثانية ـ كان عندهم نفس العلاقة المعقدة من الحب والكراهية مع والدهم.

أيّاً كان الأمر، هنا في شيكاغو كنت أنا وأبي نواصل الاستمتاع بوقتنا. كل ليلة نقول لأنفسنا إننا سنبحث عن شقة من الغد ولكننا لم نفعل في أي حال، حتى أخبرتنا أمي أنها قادمة في خلال أسبوع لتساعدنا. في هذه الأثناء، بدأت نقود أبي في التلاشي. كان من المفترض أن يستأنف عمله قريباً، ولكنه لن يحصل على الراتب القادم إلا بعد مدة، ومدخراته انتهت. زار في أحد الصباحات مكتب تسليف، حيث حصل على سلفة كبيرة. ما زال أمامنا عدة أيام قبل وصول أمي، وقد قضيناها نحتفل. طريقة أبي في إعطاء البقشيش للجرسونات وشراء الكتب والملابس لنا كانت تدلّ على أننا سنصبح معدمين قريباً. يعطي النادل عشرة دولارات بمجرد مجيئه إلى طاولتنا بقائمة الطعام طالباً منه أن يأخذها معه وأن يُحضر لنا زجاجة نبيذ جيدة وألا يزعجنا حتى نطلبه مرة أخرى.

تهوره جذبني إليه وأغضبني منه. بعد عدة سنوات، عندما كنا في نيويورك، أنفقنا مرة الإيجار الشهريّ على وجبة في مطعم فرنسيّ. كان مطعماً غالياً وأنيقاً. جلسنا بدون طقوس إلى طاولة صغيرة في آخر المطعم، حيث التهمنا المقبلات، الأطباق الرئيسية، وزجاجتين من النبيذ بسرعة وبدون أن ننتبه، مستغرقين كما عادتنا في نقاش فكريّ. عندما أحضر لنا النادل المتعالي الحساب، أدركت أنا وأبي في نفس اللحظة أن: (١) الخدمة كانت سيئة. (٢) تكلمنا كثيراً ولم نستمتع بما كنا نأكله أو نشربه. (٣) لسنا في عجلة للذهاب إلى أي مكان. بدون أن نتبادل كلمة، عرفنا كيف يجب أن تكون الفقرة التالية في ليلتنا. أخبر أبي النادل أنه عوضاً عن الحلويات، نريد أن نكرر الوجبة كلها من أولها، بداية من المقبلات والنبيذ الأبيض. قلتُ له أيضاً لأتأكد أنه فهم: "كل شيء مرة أخرى". ابتعد النادل ثم عاد مرتبكاً، طالباً منا أن نكرّر، لو سمحنا، ما قلناه. كرّرنا الطلب بوضوح ثم استأنفنا نقاشنا. عندما جاء الأكل، تناولناه بشهية أكبر من المرة الأولى. بعد ذلك بدأ المكان يخلو من الزبائن. وقف الجرسونات في الطرف الآخر من المطعم، يراقبوننا بقلق. أخيراً جاء المدير والطباخ بقنينة من الكونياك وسألونا إذا كنا نتناول الطعام هكذا دائماً. طمأنهم أبي: "فقط عندما نشعر بالجوع".

حصلنا على شقة في "أووك بارك" بعد ثلاثة أيام فقط من وصول أمي. لقد اتصلتْ ببعض الصرب الذين تعرّفت عليهم، وأخبروها أن "أووك بارك" منطقة جيدة للسكن. أخذنا القطار في صباح أحد الأيام

واشترينا الصحف المحلية وبحلول الظهيرة أصبح لدينا مكان. كانت الشقة في آخر طابق فيما يشبه بناية سكنية من ثلاثة طوابق، تتكون من غرفتيّ نوم، غرفة معيشة، ومطبخ واسع إلى حد ما. بدا الحي جيداً ببيوته العائليّة وشوارعه المحاطة بالأشجار، لكن الشقة كانت سيئة. بسبب نفاد الصبر في البحث، لم ينتبه والداي أن خطوط السكك الحديدية تقع وراء شبابيكنا الخلفية. كل القطارات المنطلقة من محطة يونيون في اتجاه الغرب كانت تسبب هديراً واهتزازاً لكل شيء في الشقة. كنا قريبين من القطارات لدرجة أنه كان باستطاعتنا أن نرى المسافرين في عربة الطعام حيث يقوم على خدمتهم جرسونات سود، وأن نخمن ماذا في صحونهم. لم يفكر أهلي بتغيير هذه الشقة. أعتقد أنهما كانا مرهقيَن من التنقل ولهذا بقينا.

تم تسجيلي في مدرسة أووك بارك الثانوية. إنها المدرسة التي كان فيها إرنست هيمنجواي. المدرسون يذكروننا بذلك كل يوم. وجدت أمي وظيفة خياطة في متجر مارش فيلد. أخي في الصف الثالث الإبتدائي، إنه يتأقلم بسهولة، يلعب البيسبول ويتحدث الإنجليزيّة أفضل مني. كان يمكن لحياتنا أن تكون طبيعية، لولا أن والديّ كانا يتعاركان مع بعضهما أو لا يتحدث أحدهما إلى الآخر لأيام. كانت لديّ مهمة لا أُحسد عليها وهي أن أمرّر الرسائل بينهما. في رأيي، كلاهما كان على حق، وكلاهما كان خاطئاً. أحببتهما بنفس القدر ولكني كرهت وجودهما معاً تحت نفس السقف.

مدرستي الجديدة كانت بالغة الجدية. على الطالب أن يذاكر، وأن يعمل الواجب كل ليلة، ويكون على استعداد للإجابة بذكاء في الفصل. أغلب زملائي في المدرسة جاءوا من الطبقة المتوسطة، وكان عندهم الثقة والقدرة التي عند الشباب الذين تلقوا تربية جيدة. كانوا لطفاء معي. أظن أنني كنتُ الأجنبيّ الوحيد في المدرسة، ولذلك كنتُ موضوعاً لفضولهم. بسرعة بدأت أعيش الحياة النموذجيّة لمراهقي البلدات الصغيرة. ذهبت إلى مباريات كرة القدم الأمريكية وتمشينا حول الصيدليات ومطاعم الهمبورجر التي يذهب إليها رفقائي.

كان عندي مدرسون ممتازون أيضاً. مدرس اللغة الإنجليزيّة، كان اسمه دولميتش، اهتمّ بي كثيراً. لقد عرف أنني قارئ نهم، فأمدني بالكتب. أعطاني "صورة الفنان في شبابه" لجيمس جويس وعدداً من الكلاسيكيات الحديثة لأقرأها. أمدني مدرس الفرنسيّة بكتب الشعراء الفرنسيين المعاصرين. بالإضافة إلى الكتب التي حصلت عليها من المدرسة، اكتشفت المكتبة العامة. لم أكن أصدق أن من حق المرء استعارة كل هذه الكتب والاسطوانات الرائعة إلى البيت. اعتدتُ الذهاب كل يوم تقريباً لأحصل على مدد جديد.

بدأتُ أهتم أيضاً بالرسم. رسمتُ، استخدمت الألوان المائية، وحتى بعض الألوان الزيتية في تلك السنة. كان ذلك نشاطاً مهماً. اكتشفت الفن الحديث وجمالياته. لم يكن عندي أوهام حول موهبتي، وتوقفتُ عن الرسم في السادسة والعشرين، لكن بعض اللوحات التي

رسمتها تدل على معرفة بالتعبيرية التجريدية، ولم تكن بالغة السوء.

في المدرسة، انجذبتُ إلى الطلاب المهتمين بالفن. في يوم اعترف اثنان من أصدقائي أنهما يكتبان الشعر. طلبت منهما أن أقرأه. لم يعجبني ما قرأت. ذهبت إلى البيت وكتبت بعض القصائد بنفسي من أجل أن أبيّن لهما كيف يجب أن يُكتب الشعر. في البداية كان فعل الكتابة والانطباع الأول عنه ممتعاً. لكن لدهشتي، أدركتُ أن قصائدي ليست أقل غباء من قصائدهما. لم أفهم السبب في ذلك. هذه المحاولة جعلتني أنتبه للشعر بطريقة مختلفة. قرأت أنطولوجيتين للشعر محاولاً أن أتكهن بالسر. حاولت أن أكتب مرة أخرى، لم تتحسّن كتابتي. بالتأكيد، كل شيء بدأ عندما كتبتُ بغرض نيل إعجاب أصدقائي، ولكن وقتها، ومن خلال عملية الكتابة، اكتشفتُ جزءاً من نفسي، مخيلة ورغبة في التعبير عن أشياء محددة لا أريد نسيانها.

١٣

أتينا جميعاً إلى أمريكا متوقعين لعب دورٍ في فيلم هوليودي. كان يتم إنتاج معظم الأفلام الأمريكية في جنوب كاليفورنيا، لذلك إذا كنت قد شاهدت أشجار النخيل والريح تؤرجحها، وريتا هيوارث تتجول تحتها في سيارة مكشوفة، فعندك كل التصورات الخاطئة الفادحة عن المكان. هل يعيش الناس حقاً بهذه الطريقة؟ ماذا سيقولون عن أسناني السيئة ولكنتي المضحكة؟ أمريكا كانت جنة مخيفة.

طمأنني أن أجد فقراء في شيكاغو. شوارع تتناثر فيها القمامة وملابس معلقة لتجف على سلالم الحريق. مسنون يترنحون وهم يشربون الخمر من أكياس ورق بنية في أركان الشوارع. أطفال يتشاجرون مع بعضهم البعض في فناء مدرسيّ. الكثير من المتسولين. عجوز تعزف أورغن في الشارع ومعها قرد. تعزف بيديها الاثنتين بينما يدور القرد على الناس بكوب صفيح. بدا القرد صغيراً وشقيّاً. كل هذا مفهوم. شعرت بأنني في وطني.

كانت شيكاغو في الخمسينيّات لا تزال بلد المصانع. قبحها وقذارتها يُذكران بوصف ديستويفسكي لحواري موسكو وسانت بطرسبرج. بدا الذين ينتظرون الحافلة المتوجهة إلى نورث أفينيو وكأنهم قد وصلوا للتو من جزيرة أليس. مع ذلك، كانت هناك فرص عمل كثيرة. يأتي المهاجر إلى شيكاغو، يحصل على عمل في مصنع، ويحافظ عليه بقية حياته. يتعلم القليل من الإنجليزيّة، البولنديّة، المجريّة، وبعض الإيطاليّة لأن تلك هي لغات من يعملون معه. كان ياما كان مهاجر يعرف مَن هو، الثقافة التي ينتمي إليها. الآن لم يعد متأكداً من شيء.

يعمل المهاجر طوال الوقت. غالباً ما يكون للمهاجرين هذا السمت الرماديّ المُرهَق لأناس يعملون ساعات طويلة يوميّاً وحتى في عطلة نهاية الأسبوع ولكنهم لا يشتكون من ذلك. تشم في أحيائهم رائحة الشواء والفراخ المقلية، بينما في بلادهم الأصلية لا تشم إلا رائحة الكرنب. الغواية الكبيرة للمهاجر الذي عنده طموحات أدبية هي أن يترك كل هذا خلفه، أن يرتدي التويد الإنجليزيّ، أن يقرأ هنري جيمس، وأن يدخن البايب. ربما يريد أن يتكيّف، ألا يظل أجنبيّاً للأبد. ربما يكون ذلك ممكناً في إحدى البلدات الجامعيّة الصغيرة، لكن هذا مستحيل في شيكاغو.

كانت المدينة تتمتع بجو من الرخاء، مليئة بالبنوك ومكاتب ناطحات السحاب، والمباني السكنية الحديثة على جانب البحيرة. مع

ذلك لم تبدُ شيكاغو مدينة كبيرة. بعد الثامنة مساء، تظلم الشوارع ما عدا بعض دور السينما والبارات الرثة. من الصعب أن ترى أحداً في شوارعها في ليالي الأسبوع. ربما بعض الريفيين والجنود السكارى يتسكعون خارج محطة أتوبيس جراي هاوند، بينما يعبر القطار فوق مبنى المحطة فيظهر وجه أو وجهان خلف نوافذه، ينظران للعتمة. يزداد الوضع سوءاً في الشتاء، حيث تقشعر العظام من الرياح التي تهب من فوق البحيرة. العمل طوال الوقت يجعلك على الأقل تحتفظ بدفئك.

تمثل شيكاغو صورة حقيقية لأمريكا أكثر مما تمثلها البلدان الصغيرة أو نيويورك. إنها خليط من الوجود، من الأصالة والحداثة، وهذا هو جوهر القومية الأمريكيّة. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن ندرك أن ازدهارنا القوميّ يعتمد بشكل كبير على الأيدي العاملة الرخيصة. المهاجرون والسود لهم الفضل في ذلك.

أحب فوضى المدينة. كانت هناك ملاهٍ ونوادٍ ليلية على مرمى حجر من فندق ريتز، ومن معهد الفن الضخم بممتلكاته البديعة من اللوحات. شيكاغو كانت سوقاً لعرض كل تناقضات أمريكا. يبدو برج مياهٍ صدئ على قمة مستودع قديم خارقاً في جماله ولا يقلّ في ذلك عن عجائب العمارة على شاطئ البحيرة. إذا كان لك أن تمتن لهذه المدينة، فيجب أن تعيد التفكير في كل تصوراتك السابقة عن الجمال. أستاذي العظيم في الأدب والعمارة، كان التسكع في الشوارع.

تخرجتُ من المدرسة الثانوية في أغسطس ١٩٥٦. كانت تنقصني

بعض العلامات فأخذت بعض المواد الدراسية في الصيف. كان من المفترض أن ألتحق بالجامعة. أبي كان متفائلاً، لقد صدق الحلم الأمريكيّ. لم يكن الحلم قابلاً للتحقق. أنفق أبي كل ما حصل عليه وكانت عليه ديون كثيرة. لم يكن لا هو ولا أمي يستطيعان التخطيط للمستقبل. لم يفكرا في معرفة تكاليف الجامعة وما إذا كانت هناك وسائل لتغطيتها. لم أكن أحتاج وقتا لأعرف أن عليّ تدبير أمري.

وجدتُ وظيفة ساع في جريدة الصن تايمز مع نهاية الصيف والتحقتُ بكورسات ليلية في جامعة شيكاغو. آخذ المترو إلى المدينة في الصباح الباكر وأعود في آخر الليل. شعرت بالوحدة، كل أصدقاء المدرسة التحقوا بجامعة، ووالداي يتعاركان معظم الوقت. كان الجو خانقاً. كنتُ أقضي أقل وقت ممكن في البيت.

قابلت في صن تايمز كاتباً شاباً، زميلاً أكبر مني قليلاً، ويسكن في غرفة مفروشة في شمال المدينة. ذلك ألهمني الفكرة؛ عثرتُ على غرفة لنفسي. تقع الغرفة في طابق أرضيّ من بناية سكنية تواجه مرجل تسخين المياه. مع ذلك كان شارع أووك على بعد خطوات. كنت أستطيع الذهاب للسباحة وقتما أحب. وصلت إلى البيت مبكراً في ليلة وأخبرتُ والديّ أنني سأتركهما. اندهشا للغاية. للحظة تكتّلا معاً ضدي. أنت صغير، ليس لديك خبرة، وأشياء من هذا القبيل.

لم أتزحزح عن رأيي. صرختُ فيهما في النهاية أنني أكره عراكهما، لم أعد أتحمل صوتيهما على الإطلاق. غادرتُ في الصباح التالي. جاءا

ليزوراني بعد ذلك بمدة قصيرة، كل على حدة. فزعا من القذارة التي كنت أعيش فيها. لم أنتبه لذلك، لقد كنتُ سعيداً.

تمت ترقيتي إلى وظيفة مصحح لغة، وهي وظيفة تحظى بحماية نقابيّة. راتبي كان ممتازاً. اشتريتُ كتباً واسطوانات لموسيقى الجاز، وبدأتُ أرسم. أذهب إلى بيت والديّ عندما أكون معدماً، أو يأخذني أبي لنأكل في مطعم. استعادت علاقتنا قوتها مرة أخرى. كنا نفعل ما نفعله عادة جيداً، نسهر خارج البيت نشرب ونتحدث.

أصبح عندي أصدقاء في الحيّ، وتعرّفت على بنات في المدرسة الليلية. أطفال المهاجرين، أولاد وبنات الطبقة العاملة، كلهم يعملون لتحسين أوضاعهم. انفتح عالم الفن والأدب والفلسفة والعلم أمام عينيّ. أردتُ أن أعرف كل شيء على الفور. كلما سمعتُ عن كاتب أو عن فكرة جديدة، كنتُ أفكر: "يا إلهي، أنا جاهل للغاية! يجب أن أذهب إلى المكتبة وأن أبحث".

المكتبة العامة في وسط البلد كانت أكثر الأماكن إثارة، كانوا يسمحون لك بأن تأخذ كتاب فن سميك إلى البيت حتى تجلس في مطبخك، تأكل الهوت دوجز واللوبيا، وتدرس لوحات جوتو دي بوندوني ورامبرانت. استمتعتُ بما تقدمه المكتبة من مزايا. قرأتُ وأنا في القطار إلى العمل؛ وأنا أتظاهر بتنظيم الأوراق على مكتبي، قرأتُ في السرير حتى وقعت في النوم تاركاً الغرفة مضاءة.

عندما يحين موعد الفصول الليلية في اليوم التالي، أكون ميتاً من التعب. كانت الفصول كبيرة وحيوية، هناك دائماً طالب أو طالبان في مشاحنات مع الأستاذ. يقولان أشياء من قبيل: "ليس معنى أن ذلك مذكورٌ في الكتاب، أنه صحيح". مهما كنا مرهقين، كنا نستعيد طاقتنا لنتابع مراوغة المدرس.

بعض الناس الذين تعرفتُ عليهم كان عندهم طموحات فنية، هذا شجعني لأجتهد. كنت أرسم أكثر مما أكتب، ولكن الشعر كان طموحي السريّ. بدأتُ أتورّط ببطء. قابلت كتاباً ناشئين في أندية الحي، أحدهم عرفني على قصائد لروبرت لووِيل وجاريل. آخر أعطاني أعمال ستيفنز وباوند. عندما لا يكون عندي فصول ليليّة، أذهب إلى مكتبة نيوبري لأقرأ السرياليين الفرنسيين والمجلات الأدبية. قابلت أيضاً الروائي المشهور نيلسون آلجرين في حفلة.

في المرة الثانية التي قابلته فيها كنتُ أحمل كتاباً لروبرت لووِيل. قال لي: "دعكَ من هذا، ولد مثلك، وصل للتو من المركب... اذهب واقرأ ويتمان، اقرأ كارل ساندبيرج وفاتشيل لِنزي". أخذت نصيحته بجدّية.

كان المشهد الأدبي في شيكاغو صغيراً. كان يمكن لشقة ليس فيها ماء ساخن أن تحتوينا جميعاً، شقة معتمة إلا من شمعتين موقدتين مثبتتين في زجاجة نبيذ شيانتي، وشارلي باركر أو ستان جيتس يحتلان آلة التسجيل الرخيصة. تلبس النساء الأسود عادة. شعرهن يسقط على عيونهن مما يعطي الواحد إحساساً بأنهن يلعبن استغماية طوال الوقت.

الباريسي الذي ترك ضفة الوجودية وصل أخيراً إلى شاطئ بحيرة ميشيجن. كنا نقرأ سارتر وكامو ونستشهد بهما ونحن ندخن السجائر. يكون هناك زجاجة من الويسكي الرديء أو النبيذ الرخيص حيث كنا جميعاً معدمين على الدوام.

في ذلك الزخم الأدبي كان هناك اشتراكيون، وحتى بعض الشيوعيين السابقين. في تلك الأيام، كنت تجد مثقفين راديكاليين قادمين من خلفية عمالية أكثر مما تجد الآن. كانوا عمالاً، وأعضاء نقابيين، وأولاد مهاجرين، وعندهم نصائح كثيرة للقادمين الجدد. يخبرونني أن عليّ تجنب التقاليد الأدبيّة القديمة. يقولون لي: إذا لم تنتبه، سينتهي بك الحال إلى كتابة سوناتات عن الآلهة اليونانية بينما من المفترض أن تكتب قصيدة عن عجوز بولندية تمسح أرضيّة مكتب ما في وسط المدينة في الليل.

عندهم حق. عندما يكون الواحد شاباً ـ وربما أهم من ذلك ـ عندما يكون أجنبياً، فإنه يبحث عن قدوة يحتذي بها. أردتُ أن أتأقلم بسرعة. كنت جاهزاً لأن أرتدي معطفاً من التويد الإنجليزي برقع جلدية على الكوعين ولأن أدخن البايب، لكنهم لم يسمحوا لي بذلك. يذكرونني مرة بعد أخرى: "تذكر من أين أتيت يا ولد". شكراً لهم، فرغم رغبتي الشديدة إلا أنني فشلتُ في أن أصبح مزيفاً.

إلى اليوم، أنا مندهش من التغيرات التي مررت بها في مدة الأربع أو الخمس سنوات تلك. في لحظة ـ كما يبدو ـ كنت مجرد تلميذ

يوغوسلافي، في اللحظة التي تليها كنت في قطار في طريقي إلى العمل. إنه الشتاء. برد مرعب. كلما فُتح باب القطار، نرتعش، تصطك أسناننا. عندما يُغلق، ترتفع درجة الحرارة، ويزيد ازدحام أجسادنا الأمر سوءاً. أنام واقفاً. إذا لم أنتبه، ستفوتني المحطة وسأستيقظ في نهاية الخط. سأكون في منتصف الطريق إلى آيْوا. الساعة الثانية صباحاً، وأنا الشخص الوحيد على الرصيف المكشوف أذهب جيئة وذهاباً حتى أدفئ نفسي قائلاً لها: "يا لها من حياة! يا لها من مدينة! يا له من بلد".

١٤

الشوارع خالية، إنها تمطر. أجلس أنا وأبي في حانة فندق شيرمان نستمع إلى موسيقى البلوز من عازف البيانو. لا يسمح صغر سني بأن أطلب كأساً، ولكن أبي بسمته وملابسه الأنيقة له سلطة ورهبة، لدرجة أن النادل لم يجرؤ على السؤال عن سني.

يتذكر أبي ذبابة منعته من النوم ذات صيف منذ خمسين سنة. أحكي له عن المعطف الذي جعلتني أمي ألبسه بعد الحرب وكيف كان ضِعف مقاسي. كان الوقت شتاء. يتوقف الناس في الشارع أحياناً ليتفرجوا عليّ. يتجرجر المعطف على الأرض مما يجعل المشي صعباً. في يوم كنت واقفاً على ناصية منتظراً حتى أعبر الشارع، وأعتقد أن شكلي كان بائساً لدرجة أن شابة وضعت في يدي عملة صغيرة ومضت. لقد أخجلني ذلك للغاية.

سأل أبي وهو يضحك: "هل كانت جميلة؟".

أكدتُ له: "إطلاقاً، كانت تبدو ريفية، وربما كانت راهبة".

فكر والدي: "أوفيليا الصربيّة".

ولم لا؟ كل شيء ممكن.

أخبرتُ مرّة فتاة في القطار إلى شيكاغو أنني روسيّ. وصفتُ لها شقتنا في لينينجراد، رعب الحصار الطويل أثناء الحرب، موت والديّ رمياً برصاص على يد فرقة إعدام ألمانية، أنه كان علينا نحن الأطفال أن نشاهد ذلك، الجوع في مخيمات اللاجئين في أوربا، جدّتي التي كانت ترى ملائكة وأيقونات. في لحظة كان عليّ أن أُسرع إلى الحمام وأضحك بصوت عالٍ.

إلى أي درجة صدقت كلامي؟ من يعرف؟ في ذلك الصباح الباكر، قبل أن تغادر القطار في أوهايو، قبلتني قبلة طويلة عند الفراق، قبلة تحتمل معاني متعددة.

نُشرتْ قصائدي لأول مرة في عدد شتاء ١٩٥٩ من دوريّة شيكاغو ريفيو. القصيدتان اللتان نُشرتا كنتُ كتبتهما منذ حوالي عام ونصف، كانتا مختلفتين عن بعضهما للغاية. يمكنك أن تشك في انتمائهما لنفس الشاعر. ذلك كان نموذجاً لإنتاجي في ذلك الوقت. في شهر أتأثر بهارت كرين، في الشهر الذي يليه والت ويتمان وحسب. عندما وقعت في غرام إزرا باوند، كتبت قصيدة من ثمانين صفحة عن الحرب الأهلية الأسبانية. كانت رديئة، ولكن الجهد الذي وضعته فيها كان هائلاً. كنتُ أشتغل عليها طوال الليل، وأذهب للعمل نصف نائم، ثم أجبر نفسي على الذهاب للكورسات المسائيّة بعد ذلك. ما

كتبته من قصائد بين عاميّ ١٩٥٦ و١٩٦١ يفوق عدد ما كتبته في كل السنين بعد ذلك. ما عدا بعض القصائد، كانت غالبيتها سيئة. ولقد سعدتُ كثيراً يوم مزقتها جميعاً.

في شتاء ١٩٦٢ أي بعد مرور ستة أشهر على التحاقي بالخدمة في الجيش، طلبت من والدي أن يُرسل لي ملف القصائد. جلستُ على سريري في نفس مساء وصولها وقرأتها. كل من في الثكنة كان مشغولاً بشيء؛ منهم من يلمع الأحذية، يلعب الكوتشينة، يستمع إلى الراديو، بينما كنتُ أنا أقرأ مجموعتي الشعرية. ربما يكون وجودي بعيداً عنها لمدة طويلة، أو مروري بتجارب عديدة هو ما جعلني أراها بشكل مختلف. لاحظتُ كل التأثيرات الجليّة وأنها كتابة تنقصها السلاسة. كانت هناك مئتا صفحة على الأقل. مزقتها بسرعة ورميتها في القمامة. لقد أخجلتني القصائد. كنتُ ما زلتُ أريد أن أكتب الشعر، لكن ليس هذا النوع من الشعر.

الآن ألتفت بعاطفة ومودة تجاه فترة شيكاغو تلك. إذا كنتُ قد التحقت بكلية مثل بقية الناس، أو كنتُ بقيت في بيت والديّ، ربما لم تكن حياتي لتأخذ هذا المسار. ربما لأنني كنتُ وحيداً بهذا الشكل، كان عليّ أن أبرّر وجودي أمام نفسي. اتضح لي أنني لن أنجح في الحياة بالطرق المعهودة، لهذا كتبتُ ورسمت.

غير ذلك، لم أكن أعرف ما الذي سأفعله. علمتني حياتي السابقة أن التخطيط للمستقبل مضيعة للوقت. اعتاد أبي أن يسألني مازحاً: "إلى

أين ستهاجر المرة القادمة؟". ما زالت تجربة القرن العشرين في المنافى مستمرة. مَن هم مثلنا كانوا حيوانات تجارب. أغرب ما في الأمر، أن يقوم واحد من فئران التجارب بكتابة الشعر.

أن يكون أحد أبنائك شاعراً لهو خبر سيئ؛ حتى الرومان القدماء عرفوا ذلك. أخذتُ احتياطاتي. غادرتُ البيت عندما كنتُ في الثامنة عشر. في السنتين التاليتين سكنتُ في قبو بجانب جهاز تدفئة يُهسهس ويزمجر كأنه على وشك الانفجار. كنتُ أترك الشبابيك مفتوحة في مختلف أحوال الطقس، معتقداً أنه بهذا سيمكنني القفز سريعاً إلى الرصيف. كتبتُ قصائد رديئة ورسمتُ لوحات سيئة طوال الشتاء، لابساً معطفاً ثقيلاً وقفازاً في تلك الحفرة تحت الأرض.

كنت أصحح فقرات النعي والإعلانات في عملي بصحيفة شيكاغو. في الليل، أحلم بكلاب ضائعة وجنازات. كنت أدخر يوميّاً من عملي. في يوم كان معي ما يجعلني أترك وظيفتي وأذهب في رحلة إلى باريس، ولكني بدلاً عن ذلك دعوت أصدقائي إلى بوفيه مفتوح في مطعم سويسري راقٍ. لم يكن كما توقعنا: على المائدة أكثر مما ينبغي من السمك المدخن والرنجة المملحة. بعد أن دفعت الحساب، كنا لا نزال جائعين، فذهبنا لنأكل بيتزا في الشارع.

أراد أصدقائي أن يعرفوا: متى ستذهب إلى باريس؟ أعلنت لهم وأنا أطلب دوراً آخر من زجاجات البيرة: "أنا سأنتقل إلى نيويورك، لأن

نقود باريس طارت". ذلك أحبط النساء ولكن الرجال هنأوني. لم يكن من المنطقي أن أعود إلى أوربا بعد أربع سنوات فقط في أمريكا، بالإضافة لذلك، مَن الذي سأعرض عليه قصائدي المكتوبة بالإنجليزية في باريس؟

قال أصدقائي "قصائدك عبارة عن صور مجنونة متلاحقة بشكل اعتباطيّ". كنت أجادلهم: "ألم تسمعوا عن السيرياليّة والتداعي الحر"؟ أعز أصدقائي بوب بيرليه، حاصل على شهادة في الإنجليزيّة من جامعة شيكاغو ويمتلك كل الأدوات النقدية التي تمكنه من التحليل الدقيق لأي قصيدة. كان رأيه هو: "قصائدك ليس لها معنى".

كان ردي المُقرّر عليه هو: "ما دامت تبدو لي جيدة فسأحتفظ بها". مع ذلك، ظللتُ قلقاً بيني وبين نفسي. كنت أعرف أن قصائدي عن شيء ما، لكن ما هو هذا الشيء؟ أنا لا أستطيع أن أُعرّف هذا "الشيء" مهما حاولتُ. اعتدتُ أن أتناقش مع بوب حتى طلوع الشمس. من أجل أن أثبت له أنني قادر على الكتابة بشكل مختلف، كتبت قصيدة الثمانين صفحة تلك عن الحرب الأسبانية. على طريقة إزرا باوند في مقاطعه. ضمنتُ القصيدة بكرم بالغ أوصاف التعذيب والحرق العام. لم تكن قصيدة سيرياليّة، جميعهم اتفقوا على هذا الرأي، مع ذلك لا أحد يستطيع أن يفهم منها ما الذي يحدث بالضبط. في جزء منها، أدخل مع الراهب الأسبانيّ توماس دي توركيمادا في مناقشة فلسفية، تماماً كما فعل إيفان مع المحقق العام عند ديستويفسكي. قرأتُ القصيدة لامرأة

تُدعى ليندا في مطعم رخيص في شارع كلارك. عندما ركضنا لنلحق بالحافلة، نسيتُ القصيدة خلفي. في الصباح التالي حاولتُ أنا والطباخ أن نجدها في القمامة خلف المطعم، ولكنه كان يوماً صيفيّاً حاراً، والقمامة فاحت رائحتها الكريهة في الزقاق وغطتها طبقة كثيفة من الذباب. لذلك لم نبحث بدقة.

بعد ذلك، وقفتُ على الناصية في المكان الذي أخذنا منه الباص في الليلة السابقة. دخنتُ الكثير من السجائر. هرشتُ رأسي. توقفتْ عدة باصات، لكني لم أتوجّه لأي منها. السائقون كانوا ينتظرون أن أحسم أمري ثم يرمقونني بنظرة حانقة قبل أن تنطلق الباصات بسرعة وبحشرجة من الدخان الأسود.

١٥

في ١٩٥٨ تركت شيكاغو إلى نيويورك، مرتدياً بدلة صيفيّة وقميص هاواي أزرق.

في عشاء ليلة الوداع سكرتُ للغاية. ذهبتُ في لحظة ما إلى الحمّام ولم أعرف طريق الرجوع. المطعم كان واسعاً ومليئاً بالمرايا. أرى أصدقائي جالسين عن بُعد، ولكن عندما أُسرع في اتجاههم، أواجه في نهاية الأمر صورتي في المرآة. بسبب نموّ لحيتي لم أكن أتعرّف على نفسي على الفور، وتقريباً كنتُ على وشك الاعتذار لصورتي. يئست، فجلستُ إلى طاولة رجل عجوز. استمر يأكل في صمت، تجاهلني، أشعلتُ واحدة من سجائره. مرّ الوقت. بدأ المطعم يخلو من الزبائن. أخيراً، انتهى العجوز من طعامه ومسح فمه بمنديل ودفع بكأس نبيذه الذي لم يُمسّ ناحيتي. كنتُ سأظل جالساً معه، لولا أن إحدى صديقاتي عثرت عليّ، وقادتني إلى الخارج.

في نيويورك كان الجوّ حاراً ورطباً. إعلانات الأفلام في الشارع الثاني والأربعين تظل مضاءة أربعة وعشرين ساعة في اليوم. البحّارة في كل مكان، وهناك بعض رجال البوليس على أحصنتهم. أحضرتُ سيجاراً طويلاً وأشعلته بلا مبالاة من أجل شابتين وقفتا على الرصيف خائفتين من عبور الشارع المزدحم.

ترنّح سكّير أمامي في حديقة بريان وقال: "أنا أنبحُ على الكلاب". أخْرج عاهر تمثالاً صغيراً للمسيح من بنطاله الضيق وأراني إياه. في الحيّ الصينيّ قرأت عاهرة بيضاء حظي وهي ترقص على مشواة ساخنة. في سنترال بارك، تغضن عشب الصباح المبكر في الموضع الذي نام فيه عاشقان مجهولان. كنتُ أقف أمام مرآة غرفتي في الفندق راسماً تعبيرات غرائبيّة بملامحي. عندما أجبتُ على رنين الهاتف مرة في الرابعة صباحاً، قالت لي امرأة صوتها أجش: "يا حُلوي"، فوضعتُ السماعة فوراً.

كان الجو حارّاً، لهذا نمتُ عارياً. شباكي الوحيد مفتوح، لكن هناك حائطاً حجريّاً على بُعد عدّة أقدام منه ولا يوجد تيار هواء. اشتبهتُ في وجود فئران في الحائط، لكن ما باليد حيلة.

في بداية الظهيرة جلستُ في مطعم صغير في إنجلش ستريت للغداء، أقرأ أخبار الرياضة وأكتب قصائد:

في نيويورك في الشارع الرابع عشر
حيث الباعة الجائلون يصطادون زبائنهم

ورجال الشرطة ينظرون في الناحية الأخرى
هناك تقابل الأبديّة
المحتالون يبيعون ساعات، رابطات عُنق، مظلات.
بعد حلول الظلام
عندما تصبح الرياح العابرة للمدينة باردة
وتلقي صاحبة المنزل بدجاجة هزيلة
في وعاء لتسلقها، ترتفع الأدخنة.
يمكنني أن أرسم وجهها القبيح على شباك المطبخ.
ثم ألقي نظرة سريعة على الشارع تحتي.

استمرّ الصيف. زرتُ صديقة قديمة لأمي كانت قد نصحتني أن أزورها. أحضرتْ لي شاياً وساندوتشات خيار وسألتني عن خططي المستقبليّة. أجبتها بأنني لا أعرف بعد. كان بإمكاني أن أرى صدمتها. من أجل أن تُشجعني، حكتْ لي عن شخص كان يعرف في سن العاشرة أنه يريد أن يكون طبيباً وأنه الآن يدرس في كلية طب مرموقة. وافقتُ أن آتي للعشاء حيث سأقابل عدداً من الشباب والشابات الممتازين الذين في نفس عمري لأتخذ منهم قدوة لي. بالطبع، لم أذهب.

من مكتبة فونيكس في حي فيلدج، اشتريتُ كتاباً للقصص الفرنسيّة. كان عليه تخفيض وسعره رخيص جداً، رغم ذلك لم يكن يكفي ما تبقّى معي إلا لشراء كوب قهوة وفطيرة صغيرة. أخذت وقتي

أرشف القهوة الفاترة وأقضم الفطيرة بينما أقرأ في الكتاب. كانت ليلة معتمة وماطرة. مشيتُ في الشوارع القريبة الخالية لساعات بحثاً عن الشخصين الذين أعرفهما في المدينة. عندما لم أجدهما في بيوتهما رجعتُ إلى غرفتي، زحفتُ مرتجفاً تحت الغطاء، وقرأتُ في صمت، لم يزعجني إلا نحيب سيارة إسعاف من وقت لآخر:

> مسيو لانتين كان قد قابل البنت في حفل على شرف منصبه الرفيع، ووقع على الفور في شِباك الحب. كانت ابنة جامع ضرائب مات منذ عدة سنوات. جاءت إلى باريس مع أمها المرتبطة بمعارفها من الأسر المتوسطة على أمل أن تزوِّجها. كانوا فقراء ومحتشمين ودمثين. البنتُ مثالٌ ممتازٌ للمرأة الفاضلة التي يحلم أي شاب راشد بأن تكون زوجة له. جمالها البسيط فيه حياء، سحر ملائكيّ، وابتسامتها الخفيفة التي تحوم على شفاهها تبدو وكأنها انعكاس لقلبها.

يصبح الفندق الذي أقيم فيه بعد منتصف الليل هادئاً مثل مقبرة. عليّ أن ألصق أذني بالراديو في الظلام. كانت امرأة تغني ويردد خلفها فريق ديكسي المتحمس: "صفّق بيديك، فقد جاء تشارلي"، لكني لم أجد ذلك مسلياً.

عندما كان الجو لا يزال معتدلاً، كنتُ أجلس على دكّة في حديقة ميدان واشنطن، أتأمل الناس وأخترع قصصاً تناسب وجوههم. إذا

كنتُ مرتدياً بدلتي الوحيدة وهناك مطر، أجلس في قاعات استقبال الفنادق الكبيرة أدخن السيجار. أذهب للتفرّج على واجهات المحلات كل ليلة تقريباً. أعود للتفرّج مرة أخرى حتى بعد منتصف الليل إذا كان هناك حذاء أو قميص قد جذبني. أخذتْ الأفلام جزءاً كبيراً من وقتي. أخرج بعد أن أشاهد فيلماً مرتين، مصاباً بدوار، مشوّشاً، وجائعاً. اعتدتُ أن يصيبني وجع الأسنان وأن أنتظر عدة أيام حتى يخفّ. أكتبُ على آلة كاتبة عتيقة ماركة أنداروود بإصبعين فقط وصوتها يوقظ جيران الفندق. كانوا يدقون على الجدار حتى أتوقف. في صباح يوم اثنين وبينما الجميع كان يهرول إلى العمل، أخذتُ القطار إلى شاطئ فار روكواي. كلما خرج القطار من تحت الأرض، ألقي نظرة على مَن يعملون في المكاتب والمصانع. يمكنني أن أقول إنهم يشعرون بالحرّ والعرق يبللهم. على الشاطئ كان هناك عدّة مستحمين متفرقين وكأن أميالاً تفصل بينهم.

عندما تمدّدتُ على الرمال ونظرتُ إلى أعلى، كانت السماء زرقاء وصافية. في وقت متأخر وأنا في الطريق إلى البيت، خرج مخمورٌ فجأة من مدخل مظلم ومعه سكينة في يده. كان يترنح ولم يكن باستطاعته أن يُعلن مطالبه. جريتُ. جريتُ عدة شوارع قبل أن أتوقف رغم أنني أدرك أنه غير قادر على الإمساك بي. عندما توقفتُ في النهاية، لم أكن أعرف أين أنا. خلال تلك الفترة كتبتُ:

خاطفو محافِظ الجيب
ابتعدوا عن العواجيز الفقيرات
لديهن القدرة على الصراخ بأعلى صوت.
الشابات الصغيرات،
الحالمات ممن تزوّجن حديثاً
يشترين مخدّات على شكل قلوب لأسرّتهنّ.
كبديل عنهنّ، ارتطموا بالمخمور
اعرضوا عليه قلم رصاص للبيع.
عندما يُخرج لفّة نقوده،
استولوا على كل ما معه واهربوا.
تجنّبوا هراوة الشُّرطة
وإلا ستصفّر آذانكم
حتى في الكفن.

لا أبالغ كثيراً عندما أقول إنني لم أكن أذهب إلى الحمّام من غير كتاب في يدي. أقرأ حتى أسقط في النوم وأستأنف القراءة بمجرد أن أصحو. أقرأ في وظائفي المختلفة، مخبئاً الكتاب بين الأوراق أو في دُرج المكتب نصف المفتوح. أقرأ كل شيء من أفلاطون إلى ميكي سبيللين. يوماً ما، عندما أكون في نعشي المفتوح، سأحمل معي كتاباً. "كتاب التبت عن الموتى" سيكون مناسباً، ولكني أُفضّل دليلاً للجنس أو قصائد إميلي ديكنسون.

الكتاب الذي غيّر كل أفكاري عن الشعر كان "أنطولوجيا شعر أمريكا اللاتينية المعاصر" وكنتُ قد اشتريته من إنجلش ستريت. الكتاب صدر من دار نيو دايريكشن في ١٩٤٢ وكانت طبعته قد نفدت عندما حصلتُ على نسختي منه، عرّفني على قصائد خورخي لويس بورخيس، بابلو نيرودا، جورج كارّيرا أندرادي، نيكولاس جيلين، فينسنت هيودوبرو، جورج دي ليما، سيزار باييخو، أوكتافيو باث وآخرين غيرهم. بعد هذه المختارات، بدا الشعر الذي أقرأه في الدوريّات الأدبيّة الأمريكيّة تافهاً وخفيفاً. لا يمكنني أن أجد في سويني ريفيو أو هدسون ريفيو قصائد مثل "سيرة لاستخدام الطيور"، أو "قُدّاسٌ لسيقاني"، أو تلك القصيدة للشاعر إميل رومير من هايتي، "الفلاح يُعلن حُبه":

الذهب في قلبي، من الثديين الذين يشبهان اليوسفي.
طعمُك ألذّ من الباذنجان المحشو بالكابوريا،
أنتِ "الكِرشة" في وعاء الفلفل،
الفطائر أغمسها في بازلائي، شايي المخلوط بالأعشاب العطريّة.
أنت لحم مقدّد مكانه قلبي،
عصيدتي بالعسل وهي تتغلغل في حلقي.
أنتِ طبقٌ يصعد منه البخار، عشّ غراب مطبوخ في الأرز،
بطاطس مقليّة ومقرمشة، معها القليل من السمك المحمّر..
شوقي للحب يتبعُكِ أينما تذهبين.

عجيزتُكِ سلّة رائعة ممتلئة بالفواكه واللحوم.

(من أنطولوجيا شعر أمريكا اللاتينيّة المعاصر، تحرير دودلي فيتتس. نيو دايريكشن ١٩٤٢، ص ٥٠٣).

السيرياليّة، التصوّف، الشبق، والترحال الوحشيّ للرومانسيّة والبلاغة، كل ذلك بدا أكثر جاذبيّة لي مما أجده عند شعراء فرنسا وألمانيا الحداثيين الذين أعرفهم بالفعل. بدأتُ أقلد شعر أمريكا اللاتينيّة في الحال:

أنا آخر نسل الغراب العجوز الأسود
الذي كان يعيش على لحم المهزومين ...
عشٌّ معتم مَليء بالعواجيز سيئي الحظ،
الرياح المحتدمة فوق رؤوس الأشجار المحترقة،
رياح الشمال الباردة تبحث عن نفير.

كنتُ في مكتبة نيويورك العامة في الشارع الثاني والأربعين في صباح يوم حار شديد الرطوبة أقرأ كتاباً لياكوب بومه عندما وصلتْ امرأة ترتدي فيما يبدو فستان حفلة من الليلة السابقة. لم تكن أكبر مني كثيراً، ولكن الوقت وقلة النوم منحاها سمتاً مُنهكاً. راجعتْ الكاتالوج، ملأتْ بطاقة الاستعارة، استلمتْ كتابها، وجلستْ على طاولة في مواجهة طاولتي. مددتُ رقبتي وحدّقتُ بطريقتي حسيرة النظر، عبرتُ بجانبها مرتين، لكنني لم أستطع تخمين الكتاب الذي

تقرأه. لم تكن به صور، ولم يكن ديواناً شِعريّاً، ولكنها كانت مستغرقة إلى درجة أن شَعرها سقط على عينيها، ربما كانت نائمة.

ثم فجأة، بعد أن قررتُ أنها غفتْ تماماً، قلبتْ الصفحة، بإصبعها الطويل الرفيع جداً. في رأيي، أصابعها كانت رفيعة للغاية. هل المسكينة لا تأكل كما ينبغي؟ هل كانت مريضة بالسلّ؟ من ناحية أخرى، بدا صدرها عفيّاً من فتحة فستانها الواسعة.

هل لاحظت تجسّسي عليها؟ مؤكد لا، إلا إذا كانت ممثلة ماهرة، تربّت على يد جين تيرني.

كم من الناس الذين راقبتهم خلسة على مرّ السنوات انتبه لي وما زال يتذكرني كما أتذكره؟ عليّ فقط أن أغمض عينيّ، وسأراها هناكِ، ما زالت تقرأ كتابها الغامض. أنا لا أرى نفسي في ذلك، ولا أتذكّر كيف بدوتُ أو ماذا كنتُ ألبس. نفس الشيء ينطبق على كل الآخرين في غرفة القراءة الواسعة. ليس لديهم ملامح، لم يكونوا هناك. هي تقرأ ببطء وتقلب الصفحات بعناية. الهواء ثقيلٌ ورطبٌ، ومروحة السقف ليس لها تأثير. قد يكون يوم اثنين أو ثلاثاء، شهر يوليو أو أغسطس، إنني حتى لستُ متأكداً إذا كان ذلك قد حدث في ١٩٥٩ أو ١٩٦٠.

ذهبتُ لأستمع إلى آلن تيت يقرأ قصائده في جامعة نيويورك. لم يتجاوز الحضور العشرين شخصاً: بعض أصدقاء الشاعر، أستاذان للأدب الانجليزيّ، بعض من طلاب الدراسات العليا، وواحد أو اثنان

من غريبي الأطوار مثلي يجلسان في آخر القاعة. تيت كان نحيفاً وأنيقاً ودمثاً، ويقرأ بطريقة يمكن وصفها بلهجة الجنوب المصقولة. قرأتُ من قبل بعض مقالاته وأعجبتني جداً، لكن شِعره، بجديته وحذلقته الأدبية كان مملاً للغاية. فكرتُ أنه من الجنون أن يكتب المرء بهذه الطريقة، وتذكرتُ قصيدة لجورج دي ليما يصف فيها الرب وهو يشِم جسد العذراء: "تعالَ، دعنا نقرأ العذراء، دعنا نتعلّم المستقبل ...آ أيها الإنسان حسير النظر". لا توجد بقعة في جسدها بدون وشم، يقول الشاعر البرازيليّ: "لهذا فإن العذراء جميلة جداً".

أثناء هجمة الكريسماس، كنتُ أجهّز الطرود في الطابق السفليّ لمتجر لورد آند تيلور مع مجموعة من الفاشلين. واحدٌ منهم مُخترع، صنع حوض سمك وفي داخله أنابيب للموسيقى، ذلك يجعل الأسماك تبدو وكأنها تلعب الباليه المائيّ، كل سمكة ذهبيّة هي استر ويليامز، لكن العالم لا يعنيه ذلك. زميل آخر يعيل زوجاته الثلاثة السابقات، عنده وظيفة أخرى ليليّة بالإضافة إلى عمله معنا، عيناه مغمضتان طوال الوقت. إنه شاحب، تحسبه جثة في تابوت مفتوح.

ثم هناك الرفيق فيلِكس، يشبه الفأر، يكبرني قليلاً في السن ويدّعي أن هناك قرابة من بعيد مع الأسرة المالكة الإنجليزية. مرةً أحضر رسماً لشجرة عائلته حتى نعرف الحقيقة ونتوقف عن السخرية منه. فقره

المدقع كان شيئاً لا يمكن تصديقه. قال لنا إنه كاتب ولكنه لم يخبرنا ماذا يكتب. البنت القاسية من بورتريكو سألته: "هل تكتب بورنو؟".

كان اسمها روزي. تحب الملاكمة. مرة خرجنا معاً لنشاهد مباراة في حديقة. جلسنا في مربّع مليء بالأسبان. ظلت تصرخ طوال الوقت: "اقتل ابن الزانية". في نهاية المساء كانت مُرهقة من الصراخ، رفضت أن تشرب شيئاً معي وسارعتْ إلى بيتها.

في إحدى القراءات في جامعة نيويورك، لشاعر أكاديميّ من الخمسينيّات لم يعد يذكره أحد، كان هناك صوت تمزيق أوراق بمجرد ما يغلق محبو الشعر المحترفون من الجمهور أعينهم بسعادة، متوقعين كليشيهات الشاعر الحاشدة الأليفة. التفتنا جميعاً لنرى مصدر الصوت. كان عجوزاً رثّاً يُمزّق أوراق الجرائد في حقيبة تسوّق بُنيّة. رأى الناس يحملقون فيه فتوقّف. في اللحظة التي عُدنا فيها إلى الشاعر الذي استمرّ في القراءة ببطء روتينيّ غافلاً عن كل شيء، استأنف العجوز التمزيق، ولكن الآن بحرص، بوقفات طويلة بين كل دورة تمزيق وأخرى.

واستمرّ الحال: يلتفت الجمهور بوجوه غاضبة، يتوقّف العجوز برهة ثم يستأنف التمزيق، بينما الشاعر يقرأ ويقرأ.

بعد التنقل بين فنادق عديدة مليئة بالبراغيث، وجدتُ غايتي في فندق ألبِرت في الشارع العاشر ومنطقة الجامعة. كانت غرفتي صغيرة، وبالطبع شباكها يواجه حائطاً حجريّاً، لكن الموقع كان ممتازاً، ولم يكن

الإيجار أغلى من السابق. عادة ما تكون معي نقود كثيرة من ظهيرة يوم الجمعة وحتى صباح يوم الأحد. بقيّة الأسبوع أجد بصعوبة البسكويت المسكّر، وأتناول هامبورجر أو أكلاً صينيّاً رخيصاً في العشاء. أيضاً أشتري زجاجة بيرة بخمسة عشر سنتاً وأشربها على مهل حتى تبقى إلى الأبد.

جاء نشر قصائدي بطيئاً. كل يوم يُحضر لي البريد خطاب رفض جديد. واحد منها ما زلتُ أتذكره؛ احتوى على ملحوظة شخصيّة من المحرر تقول: "عزيزي سيميك، من الجليّ أنك شابٌ ذكيّ، فلماذا تُضيع وقتك في كتابة غزيرة عن الخنازير والصراصير؟".

أردتُ أن أرد: "لأُبصق على رجال مثلك".

بعد انتهاء العمل في يوم الجمعة أذهب مع صديقي جيم براون في جولة عبر البارات. نبدأ بعدّة زجاجات بيرة بالقرب من غُرفنا في حانة سيدر، ثم نمشي إلى بار سان ريمو في شارع مكدوجال، حيث يطلب براون مارتيني وأشرب أنا النبيذ الأحمر. بعد ذلك، نذهب إلى حانة وايت هورس حيث لدى براون حسابٌ باسمه هناك، فيشرب الويسكي مع بعض زبائن البار الدائمين. يناقش براون كل شيء، من الاشتراكية إلى الأفلام القديمة. لم أكن أفتح فمي كثيراً لأنني في اللحظة التي أتكلم فيها ويسمع الناس لكنتي، يكون عليّ أن أشرح من أين أنا، وكيف، ولماذا. فكرتُ في طباعة بطاقة من ذلك النوع الذي يحمله الشحاذون

الخُرس، أكتب عليها تلخيصاً لقصة حياتي، ومختصراً مفيداً لجغرافيا وتاريخ البلقان.

قرب منتصف الليل نمشي أنا وبراون عائدين إلى حانة سيدر التي تصبح مزدحمة للغاية في هذا الوقت، نطلب كأساً أخيرة. يوبخني براون ونحن نأكل الهامبورجر لأنني حتى الآن لم أقرأ فرانسوا رابليه ولا سير توماس براون. بعد ذلك، لا أستطيع النوم؛ أتمدّد في سريري، مع كأس وأفكار تسبح في رأسي بينما تصلني من الغرف الأخرى أصوات فِعل الحب وأنين الأسرّة وسُعال المدخنين. أراجع الأشياء المثيرة والأخرى الغبيّة التي سمعتُها الليلة.

على سبيل المثال، في تلك الأيام كان لا يزال هناك مَن يؤمن تماماً بمثالية الحياة في الاتحاد السوفيتي ويستخفّ بها في الولايات المتحدة الأمريكية. كان يُغضبني حقاً أن تومئ شابة جميلة برأسها موافقة في مثل ذلك النقاش. لمتُ نفسي لأنني لم أخبرها كيف أن الناس هناك أصبحوا ملائكة تحت تهديد السلاح. ضايقني للغاية خجلي وجُبني. لساعات لا أستطيع أن أنام، ثم بمجرد ما أنجرف ناحية النوم، تبدأ واحدة من أسناني العفنة في التحدّث إليّ.

عندما تعارفنا، قالت لي المرأة ذات الوجه الحادّ: "أنتَ تبدو مثل الموسيقيّ فرانز شوبيرت في شبابه".

تحدّثتُ في نفس الحفل مع المحامي الذي أصرّ أننا تقابلنا منذ عامين في لندن. في حديثي مع طالب طب برّرتُ له غرابة لكنتي بأنني قد نشأتُ في أسرة خرساء.

أيضاً، كان هناك فتاة ظلت تبتسم لي دون أن تقول كلمة. شرحت لي أمها أنني أُذكّرها بأخيها الذي أُعدمه النازيّون في النرويج. كانت تريد أن تحكي لي أكثر، ولكني وجدتُ عُذراً، معلناً للجميع أنني أعاني من وجع أسنان مفاجئ وأن الأمر يستدعي الذهاب إلى الصيدليّة.

١٦

سيدتي المحبوبة الحلوة كوني بخير ... لقد ضعتُ في هذه المدينة الكبيرة.
ألن يكون عندك بعض الشفقة؟

أيرا وجورج جيرشوين

قالت لي: "هذا الشيء جاء من سجن شديد حراسة"

لم يكن باستطاعتي تخمين المعدن الذي صُنع منه أو كيف كان يتم استخدامه في الأصل. قد يكون جزءاً من آلة صدئة، نوعاً من المسامير. لمسته بلساني وفوجئتُ ببرودته. فكرتُ أنها برودة أرضيّة حجريّة في زنزانة.

قلتُ: "يُمكن للمرء أن يكتب سنواته في السجن بشيء كهذا"

ردّت بطريقة غامضة: "على شرط أن يُخبئه طوال الوقت"

لقد أعطاه لها شخصٌ كان حبيبها لعدة شهور. حدث ذلك منذ سنوات.

قالت لي: "لقد اعتاد أن يخمش ظهري به في الليل"

كانت ترتدي روباً حريريّاً مليئاً بالورود وشبشباً أحمر في قدميها. يسقط الشبشب عن قدميها كلما وضعت ساقاً على ساق. ما زلتُ أُمسك بهذا الشيء المعدنيّ في يدي. تساءلت بيني وبين نفسي إذا ما كانت ستعطيني إياه إذا طلبته منها، إذا مثّلتُ أنني أستعطفها.

رداؤها كان مفتوحاً قليلاً. وضعتُ الشيء المعدني بيننا على الطاولة. بدأت تُمطر في الخارج. قفزت لتُغلق الشبابيك، مختلسة النظر إليّ، بصدرها ورجليها الطويلتين. بسرعة ازداد المطر غزارة حتى أظلمت الغرفة.

تكلّمتْ، واستمعتُ.

قالت لي: "عندي انطباع أن الليالي في حياتي أكثر من النهارات. كأن الليل يكون على وشك أن ينتهي، ومن المفترض أن يبدأ نهار جديد، لكن يحلّ مكانه ليلٌ آخر بسرعة"

"نسيتُ وجوه عشاقي لأن الوقت كان دائماً ليلاً. أجسادهم فقط ما زالت تحتفظُ ببياضها الشبحيّ في ذاكرتي، أريد أن ألمسهم، لكن لم يعد عندي الحق في ذلك"

أضاءت مصباح الطاولة وأنا على وشك الانصراف لتقرأ لي قصيدة. ما زلت أتذكر ذلك المشهد إلى الآن.

في الغابة في يوم أحد، عندما كانوا أطفالاً، رأت هي وأخوها رجلاً وامرأة نائمين على الأرض. يدها في يد أخيها، خائفان أن يكونا قد تاها، رأيا ما ظنا في البداية أنه كومة من الثلج. في بقعة نادراً ما يزورها أحد، والرياح تتأوّه فوق أوراق الشجر، وصلا إلى الجسدين المتلاصقين العاريين على الأرض الباردة. كان الفصل ربيعاً، وبدأت الغابة تكتسي بذلك الظل البنفسجيّ. كان هناك أيضاً طائر يغني ويصمت بينما هما يختلسان النظر.

عندما خرجتُ إلى الشارع كانت لا تزال تُمطر. كنت في العشرين من عمري وكانت في الأربعين على الأقلّ. الشِّعر يربط بيننا، نكتبه ونقرأه لبعضنا. أتوقّف في بيتها في آخر الظهيرة، غالباً بدون موعد. ببساطة جذبتني إليها، وأحببت قصصها، لهذا عاودت الزيارة. من جهة أخرى لم أكن أعرف شيئاً عنها، باستثناء أنها كبرتْ في مكان قد يكون ميناسوتا أو مونتانا، وأنها قضت في أوربا فترة طويلة. كان لها عينان متعبتان وجمال يتلاشى مثل شخص امتلأت حياته بالتقلبات. يُمكن تخيلها امرأة غنيّة منفيّة تعيش وحدها وتشرب كثيراً في فيلا في فلورنسا. قد تكون مغنية في ملهى ليليّ في عصر آخر. في كل الأحوال، كانت وحيدة دائماً، تتركني أزورها لساعات ثم، بدون تمهيد، تتخلص مني، بحجة تذكّرها للتو أن شخصاً ما قادم لزيارتها أو أن لديها موعداً.

تجسستُ عليها مرتين عبر الشارع. في المرة الأولى غادرتْ البيت مهرولة مرتدية قبعة بحوافٍ عريضة ونظارات شمسيّة، أوقفت تاكسي من

الناصية. المرة الثانية لم تخرج على الإطلاق. دخل بيتها الحجريّ البنيّ طفلٌ صغير يرتدي نظارات ثم زوجان يحملان أكياس تسوّق. في العاشرة كان البيت لا يزال مُضاءً. عبرتُ الشارع ووجدت الباب الأماميّ غير مغلق. صعدتُ السلالم بدون تفكير، فقط رغبة عارمة في أن أراها. في الدور الثالث وضعتُ أذني على بابها. لم أسمع صوتاً. أردتُ أن أطرق الباب، كان يجب أن أفعل، ولكن بدلاً عن ذلك وقفتُ هناك، مستمعاً إلى دقات قلبي السريعة. بعد انتظار طويل، غادرتُ إلى غرفتي.

البيت المواجه لسكني في شرق الشارع الثالث عشر، كان بيتاً متهدماً من الحجر البنيّ، وفيه طابق سفليّ يستخدمه أحد الباعة الجائلين لتخزين بضاعته. عندما يتوظف بعض المنبوذين عنده، فإنهم يبيعون مظلات، رابطات عنق، ساعات سويسريّة مزيفة، مقشّرات بطاطس إعجازيّة، وما يشبه ذلك من سقْط المتاع. صاحب العمل كان أشبه بشخصيّة زامبانوا ـ أنطوني كوين؛ فنان السيرك الذي حطّم قيوده الثقيلة في فيلم لاسترادا. كان يفحص رجاله في الصباح، يتخلص ممن يبدو رث المنظر، مريضاً للغاية، أو ببساطة من يظهر عليه السّكر. كل مرة انتبه فيها لأنني أراقبه كان يمنحني نظرة شريرة معناها "سألْوي رقبتك أيها الولد في يوم من الأيام".

في المساء، وحتى ساعة متأخرة من الليل، يكون موجوداً خارج مؤسسته، ينظر إلي بشررٍ وأنا أمرّ. أظن أن هذا الرجل ما زال يسبب لي أحلاما غريبة.

حلمتُ، على سبيل المثال، أنني في غرفة ملابس، قد تكون تابعة لفرقة مسرحيّة، أو سيرك، أو حلبة رياضيّة. كانت المرايا مشروخة، وحشو الكنبة خارجٌ للعيان. خمنتُ أن هناك مصارعين، راقصين، لاعبي أكروبات، ومقلدين في طريق عودتهم إلى هنا. عندما جاءت كانت تلبس فستاناً أسود بشرائط رقيقة وبلا أكمام، لم يبدُ أنها رأتني. تمددتْ على الكنبة وعيناها مغمضتان كأنها مُتعبة ومرهقة للغاية. عندما اقتربت منها، فاجأني في الحلم الهيمنة الواقعيّة لجسدها. أنا، الذي لم أرها عارية أبداً، شعرتُ لحظتها أنني أعرف ذراعيْها، ورجليْها، فمها، كأنني قبّلتُ كل عضو من جسدها مرات ومرات.

بعد حلمٍ كهذا، كتبتُ قصيدة ما زلتُ أستدعيها بضبابية. في حقل قريب من مقلب نفايات بلدة يجلس رجلٌ وامرأة يشربان إلى أن يدفعهما الحرّ إلى التخفف من ملابسهما. هناك حوض استحمام مُلقى بين الأعشاب الطويلة حيث تذهب وتجلس فيه مدعية أنها تغسل نفسها. يرقص الرجل حولها لاعباً بزجاجة نبيذ كأنها ناي راعي غنم. عندما عبرتْ بعض الطيور فوقها، أمالت رأسها للخلف، وثب ثدياها بشكل كامل فوق الحافة الصدئة لحوض الاستحمام. هو، في الوقت نفسه، يجلس على الأرض، باحثاً عن الشوكة في قدمه، قضيبه مُنتصب بين ساقيه المشعرتين.

سميتُ القصيدة "رعويّة" وفكرتُ أن أريها لها ولكن لم تواتني الشجاعة للقيام بذلك. قلتُ لنفسي إنها ليست قصيدة جيدة، إنها بلا معنى وسيكون ذلك مُخجلاً.

قالت لي إن لها ابن عم يقوم بعدّ أوراق الشجر طوال اليوم. كان مجنوناً، وكان عندهم أشجار كثيرة. بعد مدة كان يصيبه التعب فيجلس على الأرض، أصابعه ما زالت مرفوعة لأعلى وشفتاه تتحركان. قال لها مرة إنه من الصعب التفريق بين ورقة شجر وأخرى. تخيّلتُه شخصاً تتمدد أصفار كثيرة في رأسه مثل ذيل المذنب. بينما كانت تحكي لي ذلك، ظلت تحدق فيّ بابتسامة خفيفة كأنني ابن عمها المجنون.

في مرة حكت لي أن أمها كانت تحب أن تمشي حافية تحت المطر. الناس في الشارع يجرون بحثاً عن غطاء ويقفون في المداخل يشاهدونها وهي تخلع حذاءها وجوربها بينما المطر يرخّ فوقها على مرأى من الجميع. كانتا تتمشيان معاً حافيتين، تدوسان في البرك الصغيرة أمام كل هذه النظرات التي تراقبهما باستياء.

أين كان ذلك؟ أردتُ أن أعرف، ولكن لحظتها، وللمرة الأولى، دعتني أن أبقى للعشاء. طبخت سمك الحبّار مع أرز، وساعدتها. أخبرتها أنني مغرم بالحبّار مع الأرز. ذلك كان حقيقيّاً. عندما يأتي الأمر للطعام، للموسيقى، الكتب، عندي ذوق راق. ما عدا ذلك كنت خروفاً في غابة.

بما أنني أكتب عن ذلك بعد ثلاثين سنة، فأنا أكثر وعياً وأقلّ خجلاً من ارتباكي وقتها. أتذكر مراقبتي لها وهي تنظف الحبّار، بخبرة تنزع العظام الرقيقة الدقيقة. وقفتُ خلفها تماماً. يداها كانتا لدهشتي قبيحتين. بدت الأظافر مقضومة بضراوة. يدان قويتان قاسيتان في

تناقض حاد مع نعومة وبياض رقبتها. فكرتُ في البنات اللواتي جلسْن أمامي أيام المدرسة منحنيات على امتحاناتهن. كنتُ قريباً للغاية، شفتاي تحرّك بخفة شعرها الأشقر. أنا متعجب أنني لم أقبلها.

ما زال بإمكاني استعادة تلك اللحظة بوضوح، ما زال بوسعي أن ألقي تلك النظرة الخاطفة على الرداء وألمح ثدييها بكمالهما حتى الحلمات. إنها تُقطّع البصل الآن، تجري الدموع على وجهها. ضحكتْ وشرحتْ لي الوصفة القرويّة الأسبانية التي تطبخها بينما أنا أحوم حولها.

ألهذا كان لديها دائماً تلك الابتسامة الخفيفة؟ عرفتْ بالطبع ما الذي يدور في رأسي وفي بنطالي، كان ذلك الأكثر تشويقاً في الأمر بالنسبة لها.

بعد ذلك، ونحن نتناول الجبن والنبيذ، أريتُها قصيدة كنتُ قد كتبتها مؤخراً. كانت مختلفة عن تلك التي تحكي عن امرأة عارية في حوض استحمام. سارت القصيدة هكذا:

مريم العذراء تسكن فوق دكان بقالة.
ترتدي زيّ جيش الخلاص حتى وهي
تخطو للخارج لترمي القمامة.
تهرب الفئران حول قدميْها.
القديس يوحنا المعمدان عنده برج حمام فوق السطح.

يتعذّب في تفريغ مَباوِل الأسرّة في مستشفى.

في ليلة طرق على بابها ودخل.

هناك دُمية خيّاط لترحب به،

مغروز فيها دبابيس صغيرة قبيحة.

هي تنام على السرير مغمضة العينين.

الغرفة معتمة؛ السماء عاصفة وغائمة.

عيناها ما زالتا مُغمضتين.

قبل أن تأخذ الوقت لتُعلّق على تجدّيفي الأخرق، رن الهاتف في الغرفة المجاورة، ردّت عليه، وأخبرتني أن عليّ أن أمشي في الحال لأن عليها الخروج.

مشيتُ في تلك الليلة مغموماً للغاية. أردتُ أن أعود إلى بيتها. كنتُ متأكداً ساعتها أنها تتوقع عودتي. سيكون بابها مفتوحاً حتى قبل أن ألمسه. ستكون العتمة كاملة. ستقودني من يدي، وأنا لن أُحدِث أي صوت، حتى مع جسدها العاري ملتصقاً بجسدي ويدها تقبض على يدي بقوة. سنكون مثل ضريرين، عاشقين ضريرين في عالم غرائبيّ.

ارتديتُ ملابسي بسرعة، دون أن أعقد رباط حذائي، جريتُ إلى الشارع. الوقت بعد منتصف الليل. الشوارع خالية، والليلة الصيفية دافئة ومُشبعة بالرطوبة. شبابيكها كانت معتمة، الباب الأمامي مغلق. جلستُ على الدرَج، عقدتُ رباط حذائي، ودخنتُ. لم يكن لديّ

رغبة في النوم، فتمشّيْت. شوارع معتمة، وأشجار داكنة، ولكن بعد عدة بنايات من بيتها كانت هناك ضجة وأنوار. هناك حفلة كبيرة إلى درجة أن الحشد امتدّ إلى الرصيف. الضيوف متأنقون كأنهم عادوا من زفاف أو من الأوبرا. كلهم في مزاج طيب.

لم أتردد. دخلتُ مباشرة. بدا المدخل في ازدحامه كالمترو ساعة خروج الموظفين من العمل. كان عليّ أن أشق طريقي بينهم من غرفة لأخرى، من طابق لآخر. جميعهم كانوا مشغولين بالحديث ولم ينتبه لي أحد. أردتُ أن أشرب، لكني لم أستطع العثور على البار. فتحتُ باباً خطأً ووجدتُ رجلاً أبيض الشعر يلبس بدلة سهرة ويتقيّأ في الحمام. فتحتُ باباً آخر ووجدتُ كلب لابرادور مربوطاً في جهاز تبريد في غرفة ليست أكبر من خزانة. بدا سعيداً لرؤيتي. لم يكن لديّ مانع في أن أبقى بصحبته، ولكن فجأة تلبسني خاطر أنها قد تأتي إلى الحفلة.

بحثتُ في كل مكان مرة أخرى، لدرجة أنني صعدتُ إلى السطح ووجدتُ عاشقين يترنحان ويتعانقان قريباً من الحافة. أخيراً، سألتُ امرأة سكرانة يناديها الجميع مارلين من أين يأتي الشراب. ناولتني زجاجة ويسكي أيرلندي دون أن تقول كلمة. كان معها عجوز لا يتوقف عن الهمس في أذنها وقد نظر لي بعداء. أخذتُ الزجاجة إلى غرفة المعيشة ووجدتُ لنفسي مكاناً في ركن. وقفتُ هناك أشرب وأتفرج على الناس. ليس عندي أدنى فكرة مَن هم، ولا ما هي مناسبة الحفلة، وما كان ذلك ليهمني. بدت النساء جميلاتٍ بشكل استثنائيّ. كل منهن

معها رفيقها. الرفقة جعلتهن يضحكن وينظرن إلى أصحابهن بإعجاب لا نهائيّ.

فكرتُ أن عليهم جميعاً أن يكونوا في الأسرّة الآن يتضاجعون. شربتُ كثيراً متوقعاً أن تظهر أمامي. قلتُ لجاري: "سنتضاجع هنا على الأرض". نظر لي الرجل بحذر. كررتُ بصوت أعلى: "سأخلع ملابسي الآن حتى أكون جاهزاً عندما تأتي". بدأ بعضهم في التفرج عليّ. بدأتُ بالفعل في فك أزرار القميص وحل الحزام.

صرخ أحدهم: "لقد جاء"، ونظروا جميعاً في اتجاه آخر. شخصٌ ما وصل للتو، جميعهم يحيونه. يبدو أنه لن يبقى إلا مدة قصيرة. لم أستطع رؤيته، ولكن من الواضح أنه شخص مهم للغاية. فجأة، شعرتُ بإرهاق شديد، جلستُ على الأرض، أخذت جرعة كبيرة من الزجاجة، وأغمضتُ عينيّ. لم يزل بداخلي ذلك الهاجس الحلو بأنها ستأتي. ستلمس خدي، تترك أظافرها تخمشني. سأفتح عينيّ وأحييها بابتسامة خفيفة. عددتُ حتى مائة ببطء، ثم مائة أخرى ربما ببطء أكبر.

قالت الخادمة السوداء التي أيقظتني: "يجب أن تذهب الآن". غرفة المعيشة خالية من الناس، وكذلك السلالم. في الشارع كان هناك ذلك السكون الذي يسم صباح الأحد؛ في مصيدة المطبخ في سكني فأرٌ ميت وقطرة دم صغيرة على فمه.

انتظرتُ أسبوعاً. ذهبتُ لوظيفتي ببيع القمصان في محل ستيرن في الشارع الثاني والأربعين. أنا نفسي أرتدي قميصاً رسميّاً وربطة عنق ومُتوقَّع مني أن أكون مؤدباً للغاية مع الزبائن. لم تكن هناك مشكلة مع الرجال، ولكن النساء كن يخرجنني عن عقلي. أُريهن قميصاً، يلاحظن بقعة وهمية في الياقة. أحضر قميصاً آخر، يجدن البقعة في مكان ما جديد. إذا رددتُ عليهن، فسيشتكين للمدير الذي سيسحقني أمامهن رغم معرفته بأنني على حق.

في المساء مررتُ على أماكن الندوات الأدبية حتى أجد صديقي سال وأشكو له من النساء.

يقول سال كل مرة: "كائنات رائعة". إنه يحبهن جميعاً ويرفض أن يتسلى ولو قليلاً بالانتقاص من جنس المرأة.

سيعترض عليه أحدهم في البار، ذاكراً اسم إحدى سيئات السمعة في الحي. "ما رأيك في هذه المرأة؟"

سيتفق الحاضرون على كونها عاهرة حقيقيّة.

وجهة نظر سال: "إنها فقط تحتاج إلى النوع الصحيح من الحب"

كان يعتقد أنه يجب قراءة كاما سوترا على الأطفال الصغار. أما بالنسبة لخيباتي مع السيدة إكس، فقد أخبرني مرة بعد مرة أن غبائي لا مثيل له.

في الظهيرة التي قمتُ فيها بآخر زيارة للبيت في غرب الشارع الثاني عشر، حملتُ زجاجة نبيذ فرنسيّ ومعلبة باتيه. كان قد وصلني للتو بعض النقود من والدي، وكنتُ في مزاج رائق. توقعتُ أن نجلس ونشرب كما فعلنا دائماً. نستمع إلى بيلي هوليداي أو ليستر يانج من الفونوغراف في الخلفية. ربما "Blue Lester" أو "Lady Be Good". سيتهادى المساء بطيئاً، وربما نضيء الغرفة. سأغيّر الاسطوانات، سأختار أكثرها حزناً. سنستمع إلى "Moanin' Low" و "Mean to Me" وسيحل الليل. سأذهب إلى حيث تجلس وأدفن رأسي بين ساقيها. أو سأنتظر حتى لا نكون قادرين على رؤية بعضنا وأقول لها إنني أحبها. شعرتُ أنني متهور ودائخ من الثقة في نفسي.

كان الباب الأماميّ مفتوحاً، جريتُ على السلالم، سلمتين في كل قفزة وطرقتُ الباب. لا إجابة، ضربت بقبضتي مرة أخرى. أخيراً، سمعتُ خطوات ثقيلة، فُتح الباب ووقف هناك رجلٌ يبدو أنه استيقظ لتوه من النوم. إنه في مثل عمري، لدرجة أنه يُشبهني. قميصه، كما أتذكر، كان مبللاً بالعرق. لم يقل شيئاً. انتظر أن أقول شيئاً، ولكني همهمت باعتذار ونزلت السلالم بسرعة.

لم أذهب إلى هناك مرة أخرى، رغم أنني نويت ذلك. ليس عندي فكرة إلى اليوم مَن هي هذه المرأة ومَن هو هذا الرجل الذي فتح لي الباب. بحثتُ عن اسمها في الدوريّات الأدبيّة على مرّ السنوات، لكني لم أعثر عليها قط. فكرتُ فيها مؤخراً بينما أمشي في غرب الشارع الثاني

عشر. ذلك ذكرني بأنه ما زال عندي جزء من قصيدة كانت قد كتبتْها. إنها مكتوبة على ورقة فندق دراك، شيكاغو، وبقيت منها فقط هذه السطور الثمانية:

تلك التي تؤمن بالحب
وتذهب أينما تأخذها قدماها
في ازدحام المساء،
آملة أن يربت غريبٌ
على كتفها، أن يهمس،
يجب أن أحكي لك أشياءَ كثيرة
أشياء ثقيلة على قلبي
احتفظتُ بصمتي حولها طويلاً . . .

فقدتُ بقيّة القصيدة وأنا أنتقل من نيويورك إلى سان فرانسيسكو منذ سنوات عديدة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٧

في شبابي، كان باستطاعتي أن أنام عميقاً في الليل على أرضية صلبة وبدون غطاء. أرقد على ظهري بكامل ملابسي، أغلق عينيّ، وأسقط في النوم في الحال. هكذا نمتُ في السجن في يوغوسلافيا عندما كنتُ في العاشرة. ما زالت عندي ذكرى باهتة لأرضيّة الزنزانة المكتظة، رجال نائمون لِصق بعضهم البعض بينما أنا أستيقظ مع غبش يوم جديد. فيم كنتُ أفكر وقتها؟ هل كنتُ خائفاً؟ جوعان؟ أشعرُ بالبرد؟ لقد كنتُ أرتدي سروالاً قصيراً عندما قبضوا علينا ونحن نعبر الحدود. امتلأت ساقاي بالخدوش من جراء الزحف في الغابات الكثيفة ليلاً. ما الذي جعل أمي تنطلق في رحلة كهذه مع طفليها ومرشدين غريبين؟ أتمنى لو أسألها، لكنها ماتت منذ سنوات. أتخيّلها تدير عينيها في سخط. عندما وصلتْ لسن التاسعة والثمانين، أصبحت مقتنعة تماماً أنه لا يوجد منطق على الإطلاق في كل ما حدث في حياتها. قنابل تسقط من سماء زرقاء، جثث ملقاة فرادى أو في أكوام أينما ولّيْت وجهك، وها أنا أتساءل ما زلتُ عن سبب.

على الأرضيّة قد يرافقك كلب، أو قطة، ولكن نادراً ما يرافقك إنسان آخر. يقفز للذهن صوامع الرّهبان، الزنازين، الحبْس الانفراديّ، النوم في العراء، وأرصفة المدن الكبيرة حيث حشود المتشردين. يقول لك الناس إن الأرضيّة الصلبة جيّدة لعمودك الفقريّ. ما زال لديّ شكوك حول ذلك. طردتني امرأة مرة من شقتها. ذهبتُ للنوم أمام بابها بالضبط، سكران ومرهقاً ومخموراً، مستخدماً ممسحة الأرجل كمخدة. استيقظتُ بعد ذلك بساعات لأرى عجوزاً تعبر من جانبي مع كلبها الصغير الذي نظر إليّ نظرة تفهّم. حتى العشاق الذين يتضاجعون على الأرض، عندهم طريقة للوصول إلى ذروة مفاجئة في تلك اللحظة التي يدركون فيها كم الألم الذي يقتلهم في الرّكب أو الظهر. ذلك الصباح فقتُ بسرعة وأسرعتُ خلف العجوز وكلبها.

هناك فترات في حياتي لم أكن أستطيع فيها أن أتذكّر حُلماً واحداً. تعاملتُ مع ذلك بحرَج، محاولاً أن أتخيّل كيف تكون الأحلام. في فترات أخرى وجدتُ نفسي كل ليلة مع طاقم مختلف من شخصيّات ترتدي ملابس المعزين في جنازة. يفوق عدد الكائنات المشوهة في حلم من أحلامي كل ما يتم عرضه في مسارح المشوهين في العالم. مثلتُ أدواراً في كثير من التراجيديّات وأفلام الجنس. ينتمي الديكور والإضاءة إلى الأفلام التعبيريّة الألمانيّة في العشرينيّات. السماء كانت في أحلامي قاتمة دائماً. أكون في مدينة أليفة غامضة، ولسبب ما، لا أستطيع أن

أتفادى الرعب. لا بد أن الجميع كانوا يمشون على أطراف أصابعهم، لم يكن هناك صوت على الإطلاق.

حلمتُ بمدرسة الأرق حيثُ جلستُ أذاكر بجدية في فصلٍ خالٍ في المقعد الأخير.

حلمتُ بمصّاصة على شكل جمجمة.

حلمتُ بأبي على ركبتيه يرضع زهورًا بريّة.

مرة سمحتُ لنفسي أن تُطلق من مدفع.

كل مَن رأيته بدا أكثر شباباً، حتى الموتى أنفسهم.

حلمتُ بامرأة تفتّش في جيبي في الشارع، وهذه المرأة كانت فيرونيكا ليك.

حلمتُ بالصمت في بيداء الصحارى الكبرى.

هل هناك دراسة من قبل عن الوحدة التعيسة في العالم؟

يجب الوَحْش أن يكذبوا عليه.

في ليلة ٧ فبراير، ١٩٥٩، حلمتُ أنني سكرتير ستالين،

تجوّلتُ مع عاشقة جميلة، خائفاً للغاية وشاعراً بالعار في الوقت نفسه.

حلمتُ بقردٍ معه مسبحة.

حلمتُ أنني أنبح على كلب.

حكايات خياليّة ... مثل أن تتناول الحساء بمسمار.

كنتُ كأنني أراقب نفسي من خلف نظارة معتمة في مساء ممطر.

حلمتُ أنني عارٍ مع ميم في مترو مزدحم، وأنها أرادت مني أن أضاجعها.

وجدتُ نفسي لسببٍ غير مفهوم في نفس الفندق الذي يطلُّ على البحر، وأنني مرة أخرى

أحضن فخذيّ امرأة لا أرى وجهها.

ديرٌ صينيٌّ في الضباب ـــ ماذا كنتُ أفعل هناك بحق السماء؟

هل كانت هذه مشاهد من الحياة في المستقبل أم عواقب تناول بيتزا ببروني ضخمة قبل النوم؟

الواقع هو ما يمكن الاتصال به، أو هو ما لا أمل في اتصاله.

الأحلام، أنت أخرس وغبيّ مثل التاريخ.

سعادتي كانت فقط على الناصية، حيث كان هناك أيضاً موتي.

سقطتُ مرات من البنايات. حاولتُ أن أرفرف بذراعيّ سريعاً أو أن أمسك نفسي بشدّ رأسي من أذنيها، لكن ذلك لم يكن مفيداً.

إنني حتى لم أر أبداً القمر في الأحلام.

لم أكن لأصبح نفس الرجل إذا كنت قادراً على النوم بشكل جيد في حياتي.

بدأ كل شيء عندما كنتُ في الثانية عشرة. وقعتُ في الحب. رقدتُ في العتمة محاولاً تخيّل ما تحت تنورتها السوداء. تصوّرتُ أن اسمها ماريا، لكن في الحقيقة اسمها الأرق.

في حياة مليئة بالاضطراب، رافقني الأرق حتى لا أخاف من العتمة.

كنا مثل عاشقين شابين، لم يكن بيننا أسرار. صمتنا كان فصيحاً مثل أحاديثنا.

معظم الوقت، قاومتُ الرغبة في التقلّب في الفراش. لم أرمُش. حاولتُ ألا أبلع ريقي. لم أحرّك لساني.

عقلي كان مثل عوليس. أخذنا رحلات بحريّة طويلة. كثيراً ما كنا في البحار الجنوبيّة في الصين. في لندن القرن التاسع عشر وفي سانت بطرسبرج كنا خائفين.

مع ذلك، غالباً ما كنا هادئين. مثل غراب نوح، استكشفنا مجرّتنا.

تناقشنا مع فلاسفة قدماء، متصوّفة، ومعتقلي معسكرات الموت.
قال أحدهم: "أنا مستيقظ لأنني لا أريد أن يفاجئني المستقبل".
قال آخر: "لا توجد حريّة إلا للمستيقظين".
إنه رعبُ الوعي، الفيلم المُفَضّل الخاصّ لكلٍّ منّا.

شعرتُ معظم الوقت أنني تلميذٌ مُعاقبٌ بكتابة نفس الكلمة أو الكلمتين مرة بعد مرة بعد مرة على السبورة.

ما زال حذائي بخرومه وبرباطه المعقّد في الركن.

يختفي الوقت. مخمور موسوم بالمانخوليا، تأتي الأبديّة لتتنفس من خلالي.

براغيثي هي الأخرى لا تنام جيّداً.

بين حين وآخر، أصعد سلّماتي الخاصة إلى أكثر الأركان عتمة في السماء. كأنها ملهى ليليّ خالٍ مع قائمة طعام مأساويّة موضوعة على كل مائدة.

الطفلُ الذي كنتُه يأتي كثيراً لزيارتي. يريدُ أن يُريني أشياء في مسرح ستائره الحمراء قضمتها الفئران. ذهبتُ على مضض، لأنه بالطبع لا وجود لهذا الطفل. لا أستطيع أن أمشي للخلف على حبل مشدود وعيناي مغمضتان.

عادةً ما أتوقّع الأسوأ في الثالثة صباحاً. راقدٌ بتشنّج، أعُدّ دقات قلبي حتى الواحد بعد الألف!

ادعيتُ أنني أؤمن بالمستقبل، لكن رغم ذلك، انتابتني نوبات شك. حتى عندما نمتُ جيداً، حلمتُ أنني مستيقظ.

وعيي يعرفُ مهمته. كنت تحت مراقبته الدقيقة باستمرار. كان لديّ نظريّة: الله يخاف من المؤرّقين، لكنه لا يخاف الشيطان.

حبيبتي تقرأ روايات فيكتوريّة في الليل، بينما أنا أقرأ كتب التاريخ والألغاز. حفيف الصفحات أثناء قلْبها جعل الفئران ترتجف في

الحوائط؛ ملاك الموت وضع نظاراته السميكة ليتلصص من فوق أكتافنا.

هناك قضاة كثيرون، هناك عدلٌ قليل في هذا العالم! القتل فولكلور، أدركتُ ذلك وأنا في الخمسين من عمري. ظلوا يطوّرون القتل دون أن يرضوا بالنتيجة.

صرختُ والأنشوطة تزداد ضيقاً حول عنقي: "تحيا أخوّة من لا ينامون"، ولكن ما سمعه الجميع كان تأوّه السرير وصريره.

عندها، وبمجرد طلوع النهار ابتسمتُ لنفسي، شعرتُ بحبيبتي تغادر مكانها بجانبي.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٨

وظيفتي التالية كانت في مكتبة دابل داي في الجادّة الخامسة. كنت أقرأ بخبث بينما المدير مشغول في مكان آخر. بعد فترة، كان باستطاعتي أن أخمن ماذا يريد معظم الزبائن قبل أن يفتحوا أفواههم. منهم نوعٌ يريد الكتب الأعلى مبيعاً، وآخر يعرف ماذا يريد، كبيرات السن مُغرمات بالألغاز، والشابات الرقيقات لا يفوتهن أن يسألن عن كتاب "النبي" لخليل جبران.

لم يعجبني الوقوف على قدميّ طوال اليوم، فحصلتُ على وظيفة مسئول عن الملصقات في دار نشر جامعة نيويورك. بعد فترة وظفوا صديقي سال لمساعدتي. كنا نجلس في الغرفة الخلفية نلعب الشطرنج لساعات وساعات. من وقتٍ لآخر، يأتي واحد من المحررين ويطلب منا أن نحضر ملابسه من المغسلة أو أن ندفع وصْل الكهرباء أو أن نشتري ساندوتش أو بطيخاً.

استمتعتُ أنا وسال بوقتنا. نجلس في الحديقة نراقب الطالبات العابرات. سال أكبر مني بعدة سنوات، كان جنديّاً محنكاً في القوات الجويّة. مات والداه عندما كان مراهقاً، وورث عن عائلته مخبزاً في بروكلين. تزوّج وخلال سنتين نجح في تبديد رأس مال عائلته.

أردتُ أن أعرف: كيف؟

حكى لي بمنتهى الرضا: "كنتُ آخذ زوجتي كل ليلة إلى الحيّ اللاتينيّ ومطعم كوباكابانا". التحق بالقوات الجويّة هرباً من الدائنين. لقد أصبح الآن محارباً قديماً وفيلسوفاً متصوفاً.

اتفق سال مع هـ. ل. ميكوين في أن العثور على سياسي صادق يشبه العثور على لصّ أمين. الأسوأ في رأيه هو الكنيسة، أسرّ لي "كل القساوسة منحرفون، والبابا هو الأكثر ضلالاً بين الجميع".

سألته محاولاً ألا تسقط قطعة البطيخ من يدي "وماذا عن بيلي جراهام؟".

أكد لي بغمزة من عينيه أنه لم يحسم رأيه فيه.

لم يكن الجيش أفضل حالاً من وجهة نظره. كل الضباط الذين قابلهم يتحرقون شوقاً للقيام بمجزرة جماعيّة. حتى دوايت أيزنهاور كانت له سحنة قاتل.

الاستثناء عند سال هو النساء. يكرر على مسمعي كل يوم "إذا كنتَ تسعى إلى حياة سعيدة، تعلّم كيف تتعايش مع المرأة".

تغيّر المشهد من ناحية الحركة الأدبيّة ومن ناحية المغامرة التجاريّة بظهور جيل البيت. انتشرت المقاهي في كل مكان في حي فيلدج. بدأوا ينظمون قراءات شعريّة بالإضافة إلى الغناء الشعبي والتمثيل الكوميديّ. كُتِب على ملصق إعلانيّ كنوع من الإغواء السياحيّ "هنا يقابل البيت النخبة". ابتهلت امرأة شابة في قصيدتها مسببة الرعب للزبائن القادمين من أطراف المدينة "يا إلهي، تعالَ انزل وضاجعني".

لكن نيويورك كانت مكاناً رائعاً للشعر. في نفس الأسبوع يمكنك أن تستمع إلى جون بيريمان وماي سوِينْسون، آلن جينسبرج ودينيس ليفرتوف، فرانك أوهارا ولي ري جونز. اعتدتُ الذهاب للقراءات الشعريّة لسببين: أن أستمع إلى الشعراء، وأن أقابل الناس. كان من المحتمل دائماً بينما أجلس ضجراً في الركن أن أبدأ نقاشاً مهماً مع شخص ما. القراءات نفسها كانت تتركني في مزاج ملتبس. في لحظة يتملكني الحسد وفي الأخرى الملل والازدراء. أخذني الأمر عدة سنوات حتى فهمتُ سبب ذلك. في نفس الوقت، كنتُ في بحث مستمر عن وجهات نظر أخرى. عندما أرى أحدهم في مكتبة الشارع الثامن يقلّب في صفحات بلاك ماونتين ريفيو فسينتهي بي الأمر للحديث معه، غالباً يقودنا ذلك إلى كوب من القهوة أو البيرة. بصرف النظر عن تصوّرك بأنك مُطّلعٌ، هناك دائماً مَن يعرف أكثر منك. احتوى المشهد الشعريّ

وقتها على الكثير من الأصلاء الحقيقيين. كان هناك توني، بنّاء بيوت حجريّة وعاطل عن العمل، يتجوّل بين الأماكن قائلاً أشياء من قبيل "حتى البُكم غير سعداء منذ بدأوا في قراءة لغة الشفاه".

ثم كان هناك ذاك الرجل الطويل النحيف بشعره الرماديّ والذي تكلّمتُ معه بعد قراءة لـ ريتشارد ويلبور في جامعة نيويورك. قال لي إن السبب في رداءة الشعراء المعاصرين يرجع إلى كونهم كسالى. سألته عما يقصد، وفسّر لي: "يكتبون لمدة ساعتين في الأسبوع، ويقضون بقيّة الوقت في أحضان الرفاهية مع الأغنياء الفاسقين الذين يصحبونهم ويدفعون عنهم المصاريف. عليك لكي تكون شاعراً عظيماً أن تكتب ست عشرة ساعة في اليوم". سألته إذا ما كان يفعل ذلك. تمتم أنه يعمل في مكتب للبريد.

خلال إحدى زياراتي النادرة لشيكاغو لأرى أمي، حدّثني بوب بيرليه عن شاعر شاب ممتاز وأن عليّ مقابلته. اسمه بيل نوتّ. عمله هو إفراغ أوعية التبوّل من أسرّة مستشفى بالليل ولكنه عادة ما يكون في البيت أثناء النهار. يسكن في بيت مشترك وليس بالبعيد. هكذا ذهبنا لنراه.

فتحتْ الباب امرأة عجوزٌ وقالت لنا إن بيل في غرفته في الدور الثاني. ولكن عندما طرقنا الباب لم نجد جواباً. كنا على وشك الانصراف عندما صاح صديقي "أنا بوب يا بيل". سمعتُ خشخشة زجاجات كثيرة، وفُتح الباب ببطء. بسرعة رأينا ما الذي هناك: كان

علينا كي نتقدم في الغرفة أن نخوض في زجاجات البيبسي التي تعلو عن كاحلنا. بيل كان ضخماً ويلبس قميصاً أبيض متسخاً، واحدة من عدستي نظارته كانت مُثبتة بشريط لاصق، يبدو أنها مكسورة. الأثاث عبارة عن سرير ومرتبته مليئة بالبقع، ملصق كبير لمونيكا فيتّي، ثلاجة وفوقها التليفزيون، مقعدين وطاولة عليها كوم من الكتب. الكتب على السرير أيضاً، منحني بيل مقعداً بعد أن أزال كتباً من عليه. بيل، الذي لم يجلس بعد، سألنا: "هل تريدون بيبسي؟". أجبنا: "بالتأكيد". لدهشتنا، ليس في الثلاجة إلا زجاجات البيبسي.

رشفنا الصودا ونحن نتحدث عن الشعر. كان بيل قد قرأ كل شيء: تحدّثنا عن رينيه شار، استشهد بيل به من الذاكرة. بالنسبة للشعراء الأمريكيين المعاصرين، كنا متفقين تماماً: باستثناء روبيرت بيلي، جيمس رايت، فرانك أوهارا، وعدة أسماء أخرى، كان معظم الشعراء الآخرين الذين نقرأ لهم في الدوريّات يفتقرون إلى الخيال، باهتين، مُدّعين، باقة من الجهلة الذين يصعب أن تقابل مثلهم يوماً. طبقاً لهؤلاء الشعراء، آرثر رامبو، هارت جرين، جييوم أبولينير لم يكن لهم وجود. إنهم لا يعرفون شيئاً عن الفن الحديث، السينما، أو الجاز. كنا نحقد عليهم بشدة. في تلك الأيام كنا نشتري دوريّة مثل "الشّعر" حتى نشعل غضبنا: انخرطتُ أنا وبوب بانتظام في تحليل هذه القصائد حتى نفهم أقصى مجال لحماقتهم. لم أرَ قصائد لبيل نوتّ في ذلك اليوم، ولكن بعد ذلك أصبح واحداً من شعرائي المُفضّلين.

عودة إلى نيويورك، كان عندي حديث مطوّل عن الشعر الفرنسيّ في القرن التاسع عشر مع روبرت لووِيل. كنا في حفل بعد قراءة شعرية. غادر معظم الناس إلى بيوتهم لأن الوقت كان متأخّراً. جلس لووِيل على أريكة بينما جلست امرأتان على الأرض واحدة عن شماله والأخرى عن يمينه. جلستُ على الأرض في مواجهته. رغم أنه تكلم بشكل مثير عن شارل بودلير، تريستان كوربييه، وجولي لافارجو، لم يكن ما أسرني ما يقوله وإنما يداه. في بداية مناقشتنا كان يُدلّك عنق المرأتين؛ بعد برهة نزلت يداه داخل ملابسهما ليدلّك ثدييهما. لم يبدُ عليهما أي اعتراض، كانتا متعلقتين بكل كلمة ينبس بها. لماذا لا أصبح أنا أيضاً شاعراً عظيماً؟ بدلاً من أن أنضم إليهم، بدأتُ أعلن عن اختلافي معه، قلتُ له أنه مليء بالخراء. صحيح أنني فشلتُ في المدرسة في باريس، لكن عندما يأتي الأمر للعاميّة الفرنسيّة، لا يمكن لأذني أن تخطئها. لم يبدُ على لووِيل أنه منتبه لتفاقم وقاحتي، لكن رفيقتيه انتبهتا بالتأكيد. أخيراً، قلتُ ليلتكم سعيدة وانصرفت. مشيتُ من جنوب غرب المدينة حتى غرفتي في حي فيلدج، حانقاً ومدمدماً مع نفسي مثل سكران.

في مرة بعد منتصف الليل كنت أشرب نبيذاً أحمر، وأدخن بشراهة، وأكتب. فجأة، توهجت القصيدة، هبطت الكلمات بسلاسة، كان هناك فيضان لأكثر التشبيهات والمجازات روعة. حدث الأمر هكذا: كنتُ مقتنعاً أنه لم تتحقق أبداً لحظة إبداع مثل هذه في

تاريخ الأدب كله. قرأتُ ما كتبته وقمت عن المكتب وتمشيّتُ في الغرفة. اشتعل حماسي. بمجرد الانتهاء من قصيدة أبدأ في أخرى أكثر إدهاشاً من سابقتها. قرب الصباح، لم أنتبه لطرقات جاري الحانقة على الحائط، كتبتُ القصائد على الآلة الكاتبة بإصبعين وأخيراً سقطتُ في النوم مرهقاً. في الصباح جررتُ نفسي للذهاب إلى العمل، كنتُ متعباً وسعيداً.

عندما حلّ المساء، جلستُ بكأس من النبيذ في يدي لأستمتع بما كتبتُ في الليلة السابقة. كانت قصائد رديئة! ثرثرة مفككة، هراء سُرياليّ! كيف كتبتُ هذه الرداءة؟ كنتُ مصدوماً، مكتئباً، ومشتتاً للغاية.

لم تكن تلك هي المرة الأخيرة التي يحدث لي فيها شيء كهذا: ليالٍ من نعيم الإبداع تتلوها نهارات من الخرس حيث أدرك بمنتهى الوضوح كل ما تصنعته، وكل ما تأثرت فيه بالآخرين، وكل تلك المباشرة الرديئة. ثم أجدُ نفسي في اندفاع آخر. أمامي فقط بضع ثوان لأمزق القصائد، أحرقها، أغرقها بالماء في الحمام قبل أن يصل الأطباء والممرضات ويلبسوني قميص المجانين. بالطبع كنتُ أكتبُ من جديد في الليلة التالية، أكتب محموماً هازّاً رأسي في حالة عدم تصديق أمام كل هذه المشاهد والمجازات الرائعة التي تفيض من قلمي.

رميتُ مئات من القصائد في حياتي، أربعة فصول من رواية، مشهد أول من مسرحية، حوالي خمسين صفحة من كتاب عن جوزيف

كورنيل. كتابة الشعر متعة لا يُضاهيها إلا طمس كل ما هو مكتوب على الصفحة.

تأخرتُ خمس دقائق عن الرجوع من استراحة الغداء في شركة التأمينات التي كنتُ أعمل بها، مسح رئيسي في العمل بكرامتي الأرض أمام حوالي عشرين كادحاً آخر لأنني مستهتر. ذهبتُ وجلستُ إلى مكتبي لبرهة وأنا حانق، ثم وقفتُ ببطء، أحكمتُ وشاحي حول رقبتي، لبستُ قفازاتي أمام أعين الجميع، وانصرفتُ دون أن ألتفت ورائي. لم يكن عندي معطف، وكان الثلج يتساقط، لكني شعرتُ بنشوة وفرحتُ بحرّيتي.

هذا المشهد من أجلكم. أنا وأبي نتمشي في شارع ماديسون، لمحنا معطفاً في واجهة محل. فحصناه بأعيننا، قلنا رأينا في طريقة تفصيله، واقترح أبي أن أجرّبه. كنتُ أعرف أنه ليس عنده نقود، لا في جيبه ولا في البنك، ولكنه أصرّ لأن الثلج يتساقط وأنا أرتدي فقط سُترة من التويد.

دخلنا، جرّبته، كان على مقاسي تماماً. وقعتُ في غرام المعطف بالطبع. سألنا عن السعر، وتبيّن أنه مئتا دولار ــ وهذا مبلغٌ كبير للغاية في ١٩٦١. فكرتُ أن الأمر مستحيل، لكن أبي سألني إذا كنتُ أريده. ظننتُ أنه يتباهى أمام البائع، أو أن بعض المال هبط عليه ولم يخبرني. سألني مرة أخرى بينما البائع مشغول بعيداً عنا : "هل تريده؟".

قلتُ له متوقعاً أن يعارضني أو أن يعود إلى عقله: "ليست معك نقود يا جورج؟". أجابني بطريقته الغامضة "لا تقلق".

لقد رأيته يقوم بهذا من قبل، وهذا يُخجلني. طلب أن يقابل المدير، واختليا يتحدثان بينما أنا منتظر أن يسخروا منا وأن يركلوا مؤخراتنا ويطردونا. بدلاً من ذلك، عاد إليّ أبي منتصراً، ولبستُ المعطف قبل أن نخرج إلى الشارع. هو رجلٌ ذو سمت خادع. تصرّفاته ومظهره يوحيان بالثقة، لدرجة أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد بمقدّم ماليّ متواضع ووعْد بأن يدفع قسطاً أسبوعيّاً. كان ذلك قبل بطاقات ومكاتب الائتمان، حيث كان على أصحاب المحلات أن يأخذوا قرار منح القروض بأنفسهم. وثقوا فيه، وكانوا على حق. لقد كان يسدد في نهاية الأمر ما هم عليه. كان يستخدم تلك الحيلة فقط في أرقى المحلات. لن يخطر بباله أن يقوم بذلك مع بائع الخضار، ولهذا كان يجوع غالباً بينما هو في كامل أناقته.

كانت ديون أبي مهولة. اعتاد أن يقترض من كل مكان ثم يسدد ما عليه بعد ثاني أو ثالث إشعار. لم يكن غريباً عليه أن يبدّد الإيجار قبل موعد تسديده بيوم. عشتُ مرعوباً من أصحاب المنازل التي استأجرتُ غرفها، بينما هو لم يكن يبدو عليه القلق. كنا نتقابل بعد العمل، فيقترح تناول العشاء في مطعم إيطاليّ، وأعترض لأني أعرف أنها فلوس الإيجار التي يريد إنفاقها مرة أخرى. كان يصف بتفاصيل مثيرة الأطباق والنبيذ الذي يمكننا تناوله. أستمر في تذكيره بالإيجار. فجأة يغضب مني

بشدة كأنني خفيف العقل، يُفسّر لي ببطء، بدقة، أن المرء لا يجب أن يقلق أبداً من المستقبل. أننا لن نكون أبداً شباباً كما نحن الليلة. إذا كنا أذكياء، ونحن كذلك، فسنجد طريقة في الغد لتسديد الإيجار. أحد الجرسونات في شيكاغو اعتاد أن ينادي أبي جورج الساحر. في عمر الثالثة والخمسين، بشعره الذي خفّ وتراجع، يمكن تخيله كإيطاليّ أو من جنوب أمريكا. لا توجد طريقة لمقاومته. بدّدنا الإيجار بكل سعادة.

في ليلة حارّة في بار جاز مزدحم، ممتلئ بالدخان والضجيج، توالت زجاجات البيرة وكؤوس الويسكي؛ ترنح الجميع من السّكر. قهقهت امرأة بدينة بقوة، وقعت من كرسيها، من الصعب الإنصات للموسيقى. أحد الموسيقيين بدأ في عزف انفرادي على الترومبيت وحاولتُ أن أتابعه بأذني اليسرى، بينما أذني الأخرى تتابع حديثاً بين امرأتين عن رجل اسمه مايك يرتدي لباس سباحة آخر صيحة.

من الأفضل الذهاب إلى البارات خلال أيام الأسبوع، حيث يكون المترددون عليها أقل ولا يوجد سيّاح. الأجمل من كل هذا هو المشي بعد منتصف الليل، الوقت الذي تلحق فيه بآخر مشهد لليل. وصلتُ في إحدى الليالي، بدأ عزف الباص والطبلة بالفعل، ولكن أين سوني رولِلنز الذي أتيتُ لسماعه؟ أخيراً، سمعنا صوت ساكسفون مكتوماً في غرفة الرجال، سوني كان في حمام الرجال يسلك حنجرته. هدأ الجميع، وعلى الفور ظهر من خلال الباب، متمايلاً برأسه الحليقة، ظلال داكنة

على أنف يصلح لإمبراطور. كان يعزف Get Happy قالباً اللحن رأساً على عقب، مكسّراً إياه، معيداً خلقه من الجذور، مكتشفاً إيقاعه المستتر، وجمالياته اللحنيّة، وكنا معه هناك، نلهث من السعادة.

ذلك كان عظيماً. الدرس الذي تعلّمته: جماليّات الفوضى المُحكمة. وجدتُ في روللنز، تشارلز باركر، وثلونيُوس مونك المثال الأفضل لما يمكن أن يكون عليه الفنان أكثر مما وجدتُ في معظم الشعراء. نفس الشيء كان صحيحاً بالنسبة للرسامين. الذهاب إلى نوادي الجاز والمعارض الفنية جعلني أدرك أن هناك الكثير من الشّعر في أمريكا، أكبر من أن يحصره المرء في الدوريّات الفصليّة.

ذهبتُ مع عمي بوريس في ظهيرة يوم سبت إلى أحد المسارح الصغيرة في حي فيلدج لحضور مسرحية يوجين يونسكو "المغنية الصلعاء". الجمهور لم يزد عن ستة أشخاص فقط في الماتينيه، بما فيهم أنا وعمي. بدأ العرض على أي حال. عندما جاء مشهد الحب مع المرأة التي عندها ثلاثة أنوف، اندفع الممثلان في الأريكة. خفتت الأصوات بينما كل منهما يخلع ملابس الآخر. نظرتُ أنا وبوريس إلى بعضنا بحيرة، هل هذا مشهد في النصّ؟ اختفى المتفرجون الأربعة الآخرون. الشخصان على المسرح لم يتضاجعا، ولكنهما كانا قاب قوسين أو أدنى من ذلك. عليّ أن أعترف أنني لا أذكر شيئاً من بقية المسرحيّة إلا أن الشارع عند خروجنا كان مُغطّى بثلج سقط لتوه.

قابلتُ رساماً في البار، صديق أكبر مني يعيش في فقر مع زوجته وطفلين صغيرين في شقة ليس بها تدفئة، يرسم لوحات زيتيّة واقعيّة ضخمة عن المنبوذين. مثلاً، ناطحة سحاب وأسفلها رجل فقير يشحذ. بدت الرسالة مباشرة، لكن بعض الوجوه كانت مرسومة بجمال.

بغض النظر عن الفرق في عمرينْا، كنا نتقابل كثيراً، نتحدث عن الفن والأدب، إلى أن أطلعتُه في يوم من الأيام على قصائدي. كنا نجلس في مطبخه وزجاجة من الويسكي بيننا. أسند ظهره على الكرسيّ وقرأ القصائد ببطء كأنه تعلّم القراءة للتوّ. في لحظة ما، رأيتُ تعابير وجهه وقد تغيّرتْ. بدا عليه الانزعاج وربما الغضب. في النهاية، نظر إليّ وكأنه يراني للمرة الأولى، وقال شيئاً من قبيل: "سيميك، ظننتُ أنك ولد ذكيّ. ما تكتبه ما هو إلا خراء صافٍ".

صعقتني قسوته، غادرتُ بيته بعد برهة قصيرة في ذهول. كنتُ مقتنعاً أنه على حق. لو كان عندي مسدسٌ، لأطلقتُ النار على نفسي في الحال. ثم تدريجيّاً أعدتُ التفكير فيما قاله، وازداد حنقي. فكرتُ أن هناك شيئاً جيداً في قصائدي. صحتُ في رجل يمرّ بجانبي في الشارع: "ابن القحبة". بالطبع كان ابن القحبة على صواب. ولكن ما العمل...

أفقتُ من ذهولي بمجرد دخولي سنترال بارك من الشارع التاسع والخمسين. كنتُ قد مشيتُ أكثر من ستين شارعاً، غافلاً بالكامل عمّا حولي. جلستُ على دكّة وأعدتُ قراءة قصائدي، حاذفاً بعض

السطور، محاولاً إعادة الكتابة هنا وهناك، ما زلتُ غاضباً، تعيساً، ولكن عاقد العزم في الوقت نفسه.

في أحد المساءات في مطعم، أشارت امرأة لطيفة إلى ثلاث نساء مثلها بشعر فضيّ يبتسمن لنا من الطاولة المجاورة. سألتني أنا وبوريس: "لو سمحتم، هل يمكن أن تخبرونا أية لغة تتحدثونها؟".

بوريس، الذي لم يكن يفوّت فرصة للمزاح، مدّ وجهه، تنهّد مرة أو مرتين، و ـ بعيون دامعة وتهدّج في صوته ـ أخبرها، يا إلهي، أننا آخر من نجوا من قبيلة إفريقيّة بيضاء تتحدث لغة على وشك الانقراض.

ذلك أدهشها للغاية. قالت لنا وهي حائرة أنها لم تعرف بوجود قبائل إفريقيّة بيضاء.

همس بوريس لها وهو يهزّ رأسه بشكلٍ جديّ بينما هي في سرعة من أمرها لتخبر صديقاتها، "ذلك واحد من أهم أسرار العالم".

كان ذلك جزءاً من أن تكون مهاجراً، أن تعيش في عوالم متعدّدة في اللحظة نفسها، بعض هذه العوالم كان خياليّاً. بعد كل ما مررنا به، تبدو الأكاذيب الكبيرة منطقيّة وقابلة للتصديق. كان على القصائد التي سأكتبها أن تأخذ كل ذلك بعين الاعتبار.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

١٩

دائماً ما تجد طعاماً ونبيذاً وفيراً في بيت عمي بوريس. نجلس نحن الأربعة حول المائدة ويأخذ كل منا دوره في فتح زجاجة نبيذ. نشربه في أكواب الماء مثلما يفعلون في بلدنا الأصليّ. يصيح أحدنا "خبز، خبزا". نريد المزيد من الخبز، من الزيتون، من الحساء. ملأنا أطباقنا مرة ثانية بالفاصوليا الكثيفة بعد أن التهمنا النقانق المدخّنة ولفّتي خبز.

نتناقش بينما أفواهنا مليئة بالطعام. كان بمقدور عمي بوريس أن يجعل الأم تريزا تضرب بعصا البيسبول. إنه يحب أن يُلقي بيانات بليغة، يجعل الأرض تهتز لمحاكماته السياسيّة والفنيّة. قد تقع ملعقتك على الأرض. لا تصدق أذنيك، فجأة يضيق تنفّسك وكأنك ابتلعتَ ذبابة ضخمة.

أسمع نفسي وأنا أقول بطبقة صوت عالية "أنت تمزح". أنا شخص مسئول يفرق بين الإيجابيّات والسلبيّات كأنه قاضٍ يقدّم الخلاصة لهيئة المحلّفين. أنا واثق في التأثير الهادئ للجدل المنطقيّ. قبل أن أُكمل،

يوقفني أخي قائلاً إنني شخص مليء بالخراء. فلسفته هي: الشخص الذي يبدو متحلياً بالمسئولية، هو شخص مزيف بالضرورة. والدي، من الناحية الأخرى، يتبنى عادة وجهة النظر الأوليمبيّة. قال لنا وهو يستأنف رشف الحساء: "لا أحد فيكم يعرف أي هراء يتحدّث عنه".

قبل أن نكوّن عصابة ضده، وُضع أمامنا الخنزير المشويّ. الجلد بنيّ ومقرمش وتحته طبقة من الدهون. هناك بصل وبطاطس غارقة في المرق على الصينيّة. نحن في النعيم. زجاجة النبيذ الجديدة يبدو طعمها أفضل من سابقتها. نبيذ نوي سان جورج هو المفضّل بالنسبة لوالدي، لأن اسمه جورج. إنه النبيذ الوحيد الذي يشتريه عندما يكون ميسوراً.

لم نقل شيئاً لوهلة. فقط وجوهنا مثبتة في أطباقنا. زوجة عمي تُقطّع المزيد من اللحم، بينما يجري عمي إلى المطبخ ليُحضر ذلك الفلفل المكسيكيّ الأحمر الصغير الذي كان قد نسيه تماماً.

أصبح بوريس في السنوات الأخيرة مُحافظاً جداً. إنه يحب باري جولدووتر. يحب نيكسون. إذا سألته عن بوب كينيدي فسيقول لك إنه جاسوس روسيّ. لقد حذّر النيويورك تايمز منه، ولكنهم بالطبع لم ينشروا الخطاب الذي أرسله إليهم. الليلة بوريس يصرخ فيّ بأنني شيوعيّ. لقد شك في ذلك لسنوات ولكن أصبح عنده إثبات لا يحتمل الشك منذ دقيقتين.

ليس لديّ أدنى فكرة ما الذي قلته وجعله يصفني بذلك، سألته أن يعيد ما قاله للتو. قال: "انظروا، إنه مرعوب، ليس عنده شجاعة، إنه

يدّعي البراءة، يتراجع، يا إلهي!". يطلب بوريس من السماء أن تشهد علينْا.

أخبرني أخي: "ما قلتَهُ عن ج. إدجار هوفر"، ثم قهقه هو وأبي مستمتعين بوقتيهما، بينما أنا أفكر إذا ما كان عليّ أن أسدّد لكمة لبوريس في فمه. هو أيضاً حانق للغاية. إنه يقول الآن إنني أُشبه تروتسكي بنظاراتي المصنوعة من السلك. لقد صاح في زوجة عمي "اطلبي الإف بي آي على التليفون". سيبلغ عني ج. إدجار رئيس الإف بي آي شخصيّاً.

من الصعب أن تعرف إذا ما كان بوريس يتكلم بجديّة. إنه يحب التمثيل. يحب الأوبرا. هذا هو المشهد الثالث، كلنا موتى على خشبة المسرح، وهو يموء كقط. كم تكون الحياة مملة بدون تمثيل. التمثيل متعة بالنسبة لبوريس.

عندما رأيته يخرّف بهذا الشكل، جاءني الإلهام. قمتُ من مكاني، مشيتُ وقبّلته على مقدّمة رأسه الصلعاء. كان مندهشاً، غير قادر على الكلام! أخذه الأمر برهة ليعود إلى نفسه. أخيراً، ابتسم بخجل وحضنني.

صرخ في زوجة عمي وهي في المطبخ: "اصرفي النظر عن موضوع الإف بي آي". جاءت وأحضرت أجبان مختلفة تكفي لفتح محل. أكلنا وشربنا وتحدّثنا بأدب. ثم بدأ العواجيز يحنون لأيام الحرب.

هل صحيح أن المرء يتلبسه الحنين للأهوال عندما يتقدم في العمر؟ أنا أشتاق إلى ظهيرة من أغسطس ما بعد الحرب. أنا وأمي وأخي تحت تهديد السلاح نمشي على أقدامنا من سجن إلى آخر. في لحظة نمرُّ ببستان ويسمح لنا الحرّاس بأن نتوقف ونقطف بعض التفاحات. شيء لا مثيل له في العالم. التهام التفاح ونحن نتحدث مع حرّاسنا.

بالنسبة لأبي وعمي، يبدو أنهما اعتادا على التحايل عندما كانا في تريستي. يدعو أبي أصدقاءه إلى مطعم راقٍ، لكن، عندما يأتي وقت تسديد الحساب، يُرسل بوريس إلى صاحب المطعم المطمئن حاملاً إليه معلومة أنهم معدمون.

أكد لي والدي "كنا نقوم بذلك بمهارة عالية".

عندما لا يهذي بوريس، فإنه يبدو مثل نبيل إنجليزيّ يرتدي ملابس راقية ويتصرّف بأناقة تتناغم مع ملامحه. سيقبل صاحب المطعم اعتذاره ووعده له بتسديد الحساب على وجه السرعة، لدرجة أنه قد يسمح لضيوفه قليلي الحيلة بطلب المزيد من كؤوس البراندي قبل أن يذهبوا في الليل.

اتفقنا جميعاً "الفضل كله لابتسامته". يتمتع بوريس بأحلى ابتسامة، ابتسامته خجولة عندما يكون سعيداً. يحظى بإعجاب السيدات المسنات خاصة. من الصعب أن تصدق أنه كان مرة حارساً في أشدّ سجون أستراليا حراسة. تخيّل، لا أحد منا بمفرده أو كجماعة عنده

قصة منطقيّة. كلٌّ منا شخصيّة مركّبة مصنوعة من نصف دستة من الأفراد المختلفين، الفضل يعود إلى أننا طُردنا من بلد إلى بلد.

على سبيل المثال، بوريس يغني الآن. لقد درس الغناء الأوبرالي لسنوات، حاول أن يجد لنفسه مستقبلاً فيه، وفشل. الآن هو لا يغني إلا عندما يكون سعيداً. عنده صوت تينور عريض جميل، لكن أذنه ليست موسيقية. عندما يصل إلى الطبقات الصوتية العالية، عليك أن تفرّ هارباً. لكن ذلك غير مفيد؛ سيصل صوته إليك عبر الشارع. إنه يتمتع بأعلى صوت في الكون، لكنه نشاز.

يُغني لنا شيئاً من عُطيل. تحمّلنا ذلك بشكل ما، ولكنه لم يكتفِ بعد. نحن سنستمع إلى مشهد موت تريستان. وجه أبي متجهم عبر الطاولة. أخي اختفى. أنا ممدّد على الأرض عند قدميّ تريستان محاولاً بقدر ما أستطيع أن يظل وجهي طبيعيّاً. بوريس يزيد سرعته لأعلى ولأسفل عازفاً وحده كل آلات أوركسترا برلين وهو يغني. من وقت لآخر يتوقف حتى يترجم لنا. يهمس "تريستان أصبح مجنوناً". لا شك في ذلك! هذا التريستان مُناسب لابن المعتوه. لسانه متدلّ، عيناه تجحظان في وجهه. إنه يقف على الكنبة مائلاً ناحية الحائط، ذراعاه مفرودتان، كأنه على وشك أن يُصلب.

صرخ مُغنياً "ملعونٌ من حَرقك"

قالت زوجة عمي بهدوء وهي قادمة من المطبخ تحمل كعكة "توقّف يا بوريس"

قلتُ: "من فضلكِ دعيه يغني مشهد الموت". والآن، والدي نفسه يبتسم.

يجب أن نحترم غرامه بالموسيقى. اعترف لي بوريس مرة أنه لم يستطع أبداً أن يغني في مبنى أوبرا. تحدُث له حالة من الحماس الشديد على المسرح، يقفز في وسط الأوركسترا في ختام المقطع الذي يغنيه.

هلّلنا لأدائه. الآن نحن عطشانون وجائعون مرة أخرى، وهو أيضاً لحُسن الحظ. ظهر أخي ثانية.

بعد أن أعادت زوجة عمي الجبن وقطع اللحم الباردة إلينا، قالت إنها ستذهب للنوم. هي تعرف أن ما يحدث لن ينتهي قريباً. إننا في الطريق إلى موضوعنا المُفضّل، الغباء المستحكَم عند أفراد عائلتنا.

لا أعرف إذا كانت كل الأسر الكبيرة تنغمس مثلنا في الانتقاص من الذات، ولكننا متخصصون في ذلك. لا أعتقد أننا ندعي ذلك، أقصد، نحن لا نظن في السرّ أننا متفوقون أو أن ما نقوله هو مجرد كلام. تاريخ أسرتنا هو تاريخ لا ينتهي من القرارات الخاطئة التي ازدادت سوءاً بالمهاترات.

قال أبي: "تخيّلوا، هناك حرب مشتعلة، النازيون والفاشست من الكرواتيين والمجريون وجيش رومانيا وتحالف الجيش الكرواتي ـ الصربي والإيطاليون والبلغاريون والشيوعيون يتناوبون على قتلنا، وحتى الإنجليز والأمريكيين يرمون القنابل علينا. ما الذي قمنا به لنجعل

الأحداث أكثر إثارة؟ كل منا انضمّ إلى فريق منهم في الحرب حتى نجعل حياتنا أكثر تعاسة".

صمتنا تحت ثِقل السّكر والحقيقة الحزينة في ملحوظة أبي الأخيرة. فجأة، نظر بوريس إلى أعلى وقال: "ما رأيكم في زجاجة نبيذ فاخرة؟"

نظرنا جميعاً إليه بحيرة، شرح لنا أن نبيذه من المفترض أن يكون خاصّاً، عتيقاً، وغالي الثمن.

أردنا أن نعرف "أي نوع من النبيذ؟".

لم يخبرنا، إنه ذاهب إلى القبو وسيفتح الزجاجة ثم يجعلنا نتذوق ونخمن ما هو نوع النبيذ.

حسنٌ، لقد ذهب بوريس، اختفى مدة طويلة حتى بدأنا نظن أن النذل قد تسلل إلى السرير. بدلاً من ذلك، عاد في جو من الغموض حاملاً زجاجة ملفوفة في فوطة.

في آخر مرة كانت في حوزته زجاجة نبيذ غالية، جعلنا نتذوقها من ملعقة شاي. مرّ حول طاولة العشاء وهو يصب نقاطا من نبيذ مارجو المُعتّق جاعلاً كل مَن يأتي دوْره يقول "آاااه"، كأنه دكتور أطفال.

هذه المرة أمامنا كؤوس نظيفة، صب القليل لكل منا حتى نتذوق أولاً. إنه نبيذ أحمر. لا شك في ذلك حتى والساعة وصلت إلى الثالثة

صباحاً. كمجربين حقيقيين، أدار كلٌّ منا كأسه وتنشق ما فيه، ورشفناه. اعتقدتُ أنه نبيذ الشيانتي، قال أبي إنه نبيذ البورجندي، ذكر أخي اسم نبيذ أسبانيّ ولكنه لم يكن متأكداً.

انتصر بوريس علينا! هذا هو الإثبات الأخير! الصربيون بشكل عام، وأفراد هذه الأسرة خاصّة، لا يفقهون شيئاً، استعراضيون، وأكبر مدّعين في العالم!

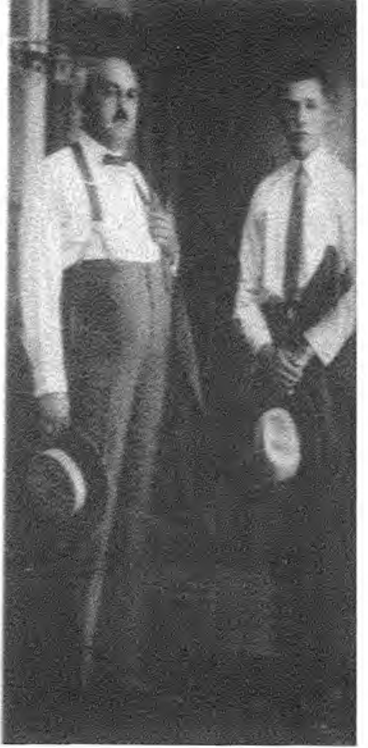
لنستخلص العِبرة؛ حكى لنا أنه عرف حديثاً أن الرجل الصقليّ الذي يعمل في محطة البنزين في بروكلين يصنع نبيذه بنفسه. أضاف من أجل التأثير "مؤكد أنه يخمّره في نفس حوض الاستحمام الذي يغسل فيه مؤخرته". على كل حال، أعطاه الصقليّ زجاجة في الكريسماس، وهي ما نشربه الآن.

ما زال طعم النبيذ لذيذاً جداً، ولكن بالتفكير في الأمر، يجب أن نعترف كم نحن حمقى. بالطبع من الصعب أن نُبقي أعيننا مفتوحة. لقد طلع الصباح. في هذه اللحظة لم يعد هناك ما نقوله. فقط ننظر إلى بعضنا البعض، نتثاءب من وقت لآخر. البيت هادئ. رجال البوليس أخذتهم سِنة من النوم في سيارة الدوريّة على الناصية.
سأل بوريس "هل ترغبون في بعض الآيس كريم؟"

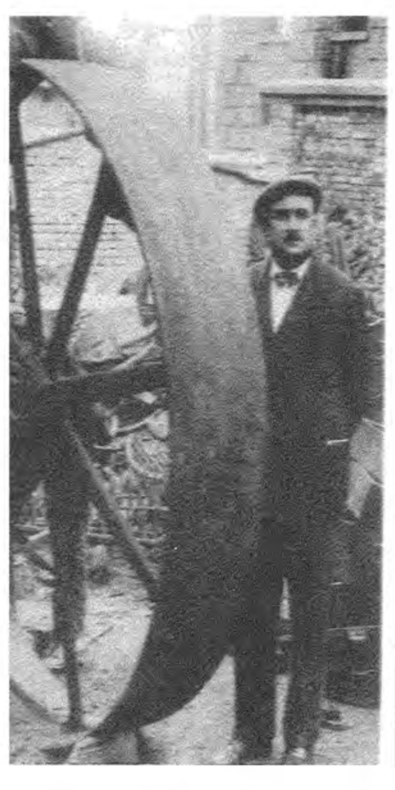


أبي في الثالثة من عمره

جدي الكبير، فيليب سيميك، في
تسعينيات القرن التاسع عشر



جدي وأبي في سنة ١٩٢١



جـــدي في ١٩١٨.



أمي في ١٩٣٣.

أبي مع الخنزير الرضيع، في رأس سنة ١٩٢٨.

أبي مع أصدقاء مجهولين

في ١٩٣٤.



أبي مع الغجر في حانة الديك

الأحمر، ١٩٣٥.





مع أمي في شوارع بلجراد في ١٩٤٠.



أمي وأبي في شرفة شقتنا، ١٩٣٨.



عمي بوريس يغني في ملهى ليلي،
في ١٩٤٤



حوالي شتاء ١٩٤١ مع أمي.

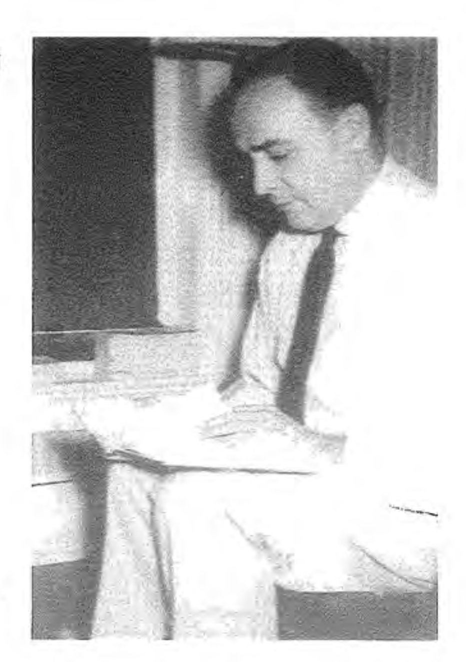


في قرية جدي لأمي حوالي ١٩٤٠.



مع أبي، عائدين من مباراة لكرة القدم حوالي ١٩٤٢.

أبي في إليزابيث سيتي، كارولاينا الشمالية، ١٩٥٢.



صدور جواز السفر اليوغوسلافي، ١٨ يونيو ١٩٥٣.



18 juna 53

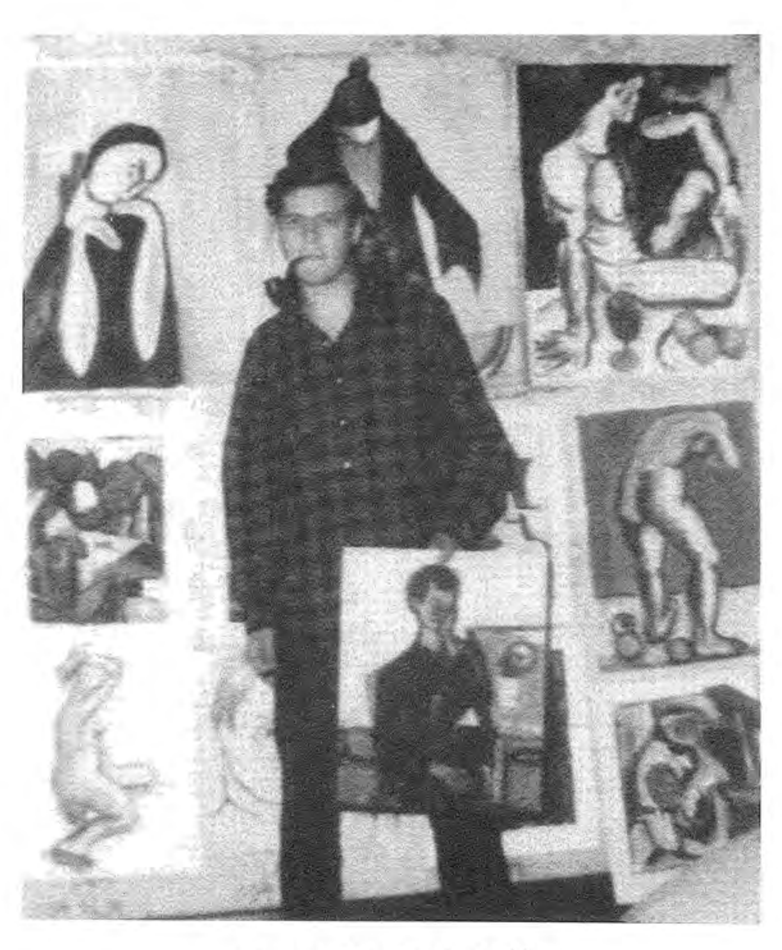
8300



في باريس بشارع الشانزليزيه في ١٩٥٣.



جاهزٌ للسهر في المدينة، باريس ١٩٥٤.



في أووك بارك، إلينوي، مع بعضٍ
من لوحاتي، ١٩٥٧.



ساعة الغداء، نيويورك، ١٩٦٠.



في الشرطة العسكرية في تول،

فرنسا، ١٩٦٣.



عائداً من الجيش، نيويورك ١٩٦٣.

٢٠

حكى لي عجوزٌ في حديقة واشنطن سكوير عن إعدام ساكو وفانزيتي وعن الظلم الفادح الذي وقع عليهما. من وقت لآخر نجلس جنباً إلى جنب على دكة، وأسمعه يكرر مرة بعد مرة أنه لو كان للخراء ثمن لوُلِد الفقراء بدون شرَج. كان يرتدي قفازات رماديّة، يمشي بعكّاز، يحني قبعته للنساء، ويخاف عليّ. يقول لأحد العابرين "لقد وصل على مركب للمهاجرين للتوّ، من المؤكد أنه سيعاني كثيراً إذا لم ينتبه".

نصدق سرّاً أننا أذكياء للغاية. تختبئ خلف تواضعنا الظاهريّ عجرفة لا تقل عن عجرفة أرستقراطيّ القرن الثامن عشر. لم أكن مختلفاً في هذا. تحركتُ بأنفٍ شامخ مقتنعاً أن لديّ بداية قوية؛ مكاناً للسكن، وظيفة، بعض الأصدقاء. لدرجة أنني يوميّاً كنتُ أكتب قصائد، مدعماً هيئة البريد الأمريكيّة برسائلي إلى المجلات الأدبيّة. أهرع إلى البيت في استراحة الغداء لأرى صندوق البريد، إرمي الخطابات التي تعلمني

برفض النشر، وعلى الفور أعيد إرسال نفس القصائد إلى دوريّات أخرى. ليس من الغريب أن تكون متفائلاً في عمر الثالثة والعشرين.

في إحدى زيارات ساعة الغداء هذه فوجئت بلصّ داخل شقتي. كنتُ في طريقي إلى المطبخ، أعبر الطرقة الطويلة المظلمة، أحمل حقيبة المشتروات في يد، والبريد في اليد الأخرى، واصطدمتُ برجلٍ غريبٍ. كان شاباً، في مثل عمري، فوجئ برؤيتي بنفس قدْر مفاجأتي برؤيته. لا يجب أن يكون هنا، أخبرني عقلي بعد ما يشبه الأبديّة. رميتُ الحقيبة التي كنتُ أحملها وأمسكتُ الرجل الذي كان لا يزال واقفاً أمامي من أنفه، لكنه تملّص مني وجرى إلى المطبخ. فكرتُ أنه سيُحضر سكّيناً، فجريتُ إلى غرفة المعيشة ورفعتُ كرسيّاً. لم يحدث شيء. كان باستطاعتي أن أسمع حركة المرور في الشارع، دقات قلبي، ولا شيء آخر. صرختُ "سأقتلك يا ابن الشرموطة"، ثم صرختُ ثانية مزمجراً "يا ابن القحبة، يا قطعة خراء، أنا قادمٌ إليك". تقدّمتُ بحذر والكرسيّ مرفوع فوق رأسي. كنتُ مرعوباً بالطبع ولكن لم يكن لديّ خيارٌ آخر. كانت مسألة كرامة، حقي الشخصيّ، كما يقولون. أخيراً، دخلتُ إلى المطبخ. كان الباب الخلفيّ مفتوحاً؛ ولم يكن هناك أحد. أنزلتُ الكرسيّ الذي كنتُ أحمله وجلستُ عليه. كان بوسعه أن يطعنني، أن أظلّ أنزف على الأرضيّة وحدي ولم يكن ليكتشفني أحد قبل وقت طويل.

بعد ذلك اليوم، بدأت أتوتر عندما أصل إلى البيت ويكون عليّ أن أفتح الباب، خاصة إذا كان الوقت متأخراً. مرة، أدخلتُ رأسي

متردداً بينما الباب لا يزال مفتوحاً، سمعتُ طقطقة مصيدة الفئران في الظلام. عندما فتحتُ نور الغرفة، وجدتُ بالفعل فأراً يتلوّى ليحرّر رجله المكسورة.

ما دمنا نتحدث عن المفاجآت، في مرة عدتُ إلى البيت خلال ساعة الغداء لأجد طلب استدعاء للجيش. أدركت بشكل عام أن ذلك مُحتمل لأنني أذهب إلى مدرسة مسائيّة وليس هناك سبب للتأجيل، ولكن لم أتوقع أبداً أن هذا سيحدث بالفعل. كان ذلك في ١٩٦١، ولم أكن أعرف أحداً تم استدعاؤه من قبل. في ورقة بالأبيض والأسود صادرة عن الجيش، عليها اسمي وعنواني، طلبٌ بأن أحضر بنفسي في الساعة ٦٠٠ يوم ٢٥ سبتمبر في ٣٠ شارع وايتهول، وأنه ليس مسموحاً بالأعذار. أخذني الأمر دقائق، ساعات، أياماً، لأقبل بمضمون الرسالة.

أتذكّر أن ذلك كان يوم جمعة. أمامي أقل من شهر من الحريّة. كلّمتُ العمل وأخبرتهم بما حدث، وأنني سآخذ تلك الظهيرة إجازة. في المعتاد، يوم الجمعة هو أكثر أيام الأسبوع ضغطاً بمكتب صرف المرتبات. لا يقبل أنجلو أو فرجينيا غيابي بسهولة. كانت عندي طريقة في التعامل مع المتذمرين الذين لم يحصلوا على أجر ساعات العمل الإضافيّة أو عندهم شكاوى أخرى. استراتيجيّتي كانت أن أتفق مع ما يقوله المتهورون منهم مئة بالمئة حتى لو كانوا مئة بالمئة على خطأ. آخذ

جانبهم وأستشيط غضباً من عجز مشرفيهم الذين يحاولون سرقة عرق كادحين مثلهم. بعد ثورتي العنيفة هذه، يستبعدون فكرة أن لمكتب صرف المرتبات يدًا فيما يحدث لهم. إنهم ينصرفون في حيرة، بينما يظل يساومني محارب مفتول ملوّحاً لي بمظروف أجره.

في تلك الظهيرة، جلستُ في حانة في مقابل شقتي أتناول كأساً من الويسكي. بعد ذلك، أتذكر المشي بلا هدف في ازدحام الجادّة الخامسة، الجلوس على سلالم المكتبة العامة، تناول هامبورجر على العشاء في الشارع الثامن، النظر إلى الفراغ، المشي قرب الفجر والانتباه لوجود طلب الاستدعاء على الأرضيّة بجانب حذائي. الطلب يقول الشيء نفسه في كل مرة: لا مخرج من المصير المحتوم.

أسوأ ما في الأمر عندما يضربك حظ سيئ كهذا أن عليك الاستماع لمواساة الآخرين. بمجرد أن أعلن الخبر، أُريهم طلب الاستدعاء، أجلس هناك وأنصت إلى التعازي والنصائح. حاول الناس أن يخففوا عني بكل النوايا الطيبة: سأرى العالم وسأمرّ بكل التجارب المثيرة. سيكون من حقي الحصول على مكافأة لأستكمل تعليمي في آخر الأمر. سأبدو وسيماً في الزيّ العسكريّ، إلخ.

كان الطقس رائعاً في سبتمبر ذاك، مثلما هو في نيويورك دوماً خلال ذلك الوقت من العام. طقس جاف، سماء زرقاء، نهارات دافئة وليال باردة مثاليّة للنزهات الطويلة. انتبهتُ لأشياء لم أنتبه لها من قبل. بنايات في الحيّ الذي أسكنه، محلات، وجوه العابرين وهم ذاهبون في

مشاويرهم اليوميّة. يا لغرابة المدن وما تحتويه من كثرة كعدد حبات الرمال. عادة، هذه الكثرة غير مرئيّة بالنسبة لنا، إلى أن يجيء يوم يفاجئنا فيه كل وجه بتفرّده المضيء. يتلبسنا هذا الشعور الغريب المركّب بتزامن بقائهم وفنائهم. إنني راحل، بينما هم سيظلون هنا يتدافعون من مداخل المترو. إن أبسط الحقائق هي أكثرها إثارة للدهشة. وقفتُ أراقبهم غير قادر على التوقف عن ذلك.

كيف تمرّ الأيام بسرعة عندما نريدها أن تتباطأ. كنتُ ممزّقاً، في حاجة للعزلة، وفي حاجة للصحبة، مما يعني أنني كنت أريد دائماً أن أكون في مكان آخر. كانت المشكلة وجود مئات المسائل العمليّة التي عليّ القيام بها. كل ما أمتلكه لم يعد مفيداً. أصبحت مقولة "أنت لا تستطيع أن تأخذ أشياءك معك" تعبر عن حالي. أهديتُ كتباً، تسجيلات موسيقيّة، أواني ومقلايات لجميع من أعرفهم، وما زال هناك كراكيب يجب التخلص منها. لم يكن ممكناً حتى أن آخذ قصائدي معي. وضعتها في علبة أحذية وأعطيتها لوالدي.

لولا المخاوف التي لا تنتهي، لكان بالنا خالياً. كل واحد منّا يحمل عقل طفل في جسد عجوز مضطرب. لم أنم بما يكفي في حياتي. طوال ستين عاماً يؤرقني كل شيء بدءاً من حياتي وحتى ضعة العالم وغبائه. الماورائي في الثالثة صباحاً هو أنا. أتقمّص وجهاً شجاعاً في الصباح، أذهب إلى العمل، وأقوم بما يجب عليّ القيام به بوجه بشوش. في تلك الفترة، أخذني الأصدقاء إلى غداءات وعشاءات احتفاليّة. النساء

اللواتي لا ينتبهن في العادة لوجودي قبلنني على خدي وربتن على رأسي. كنتُ "شارلي المسكين" طوال اليوم. الذاهب إلى المجهول، حيث تنتظره متاعب شتى. لقد جعلني حظي التعِس جذّاباً فجأة.

قَرُب اليوم الموعود. استمرّ الطقس في اعتداله. بدا الآخرون بالنسبة لي وكأن لا شيء يؤرّقهم. إنهم يخططون لحفلات ورحلات أمامي، أوغاد محظوظون. قلّ كلامي بالتدريج، فقط أهزّ رأسي لأيّ شيء يقوله أيٌّ منهم. في ذهني كنتُ بالفعل في مكان آخر ــ أو للدقّة لم أكن في مكان، حيث لم تكن لديّ أدنى فكرة أين سينتهي بي الأمر. عندما جاء اليوم أخيراً، كنتُ سعيداً. كان ذلك أشبه بأن تكون مربوطاً في كرسي كهربائيّ ثم يزداد فضولك فجأة عمّا ستفعله بك الآلة. ارتجفت يدي قليلاً وأنا أحلق ذقني. لم أر في طريقي للمترو إلا مخموراً نائماً أمام أحد المداخل. لا أتذكّر شيئاً عن رحلة وسط المدينة. كان هناك تجمّع صغير أمام مكتب التجنيد. لم يقل أحدٌ شيئاً. دخلنا عندما فُتح الباب، وانتهى الأمر. كنتُ مرهقاً لدرجة عدم التفكير. قمتُ فقط بما طلبوه مني واستسلمتُ لما سيجيء.

كان الظلام قد حلّ عندما نزلنا من الأتوبيسات. أخذ الأمر وقتاً لفرز كل المجندين وتقسيمهم في مجموعات، ثم قيادتهم مشياً إلى الثكنات العسكريّة. غادرت الأتوبيسات في جوف الليل، وبقيت دزينة منّا مع ضابط نظام في موقف السيّارات. ظهر القمر، ليلة باردة لطيفة،

مناسبة للنوم. بدلاً من ذلك، جعلنا الضابط "نعمل بوليس" في المنطقة. "نعمل بوليس" في رطانة الجيش تعني أن تلمّ القمامة، أعقاب السجائر، وما شابه. لقد تمّ شرح ذلك لنا، ولكن ما لم يشرحه لنا أحد هو كيف نقوم بذلك في الظلام. في الحقيقة، اشتكى أحدهم من استحالة الرؤية فصرخوا فيه وشتموه. لم أقل كلمة. فقط دُرتُ منحنياً مثل جروشو ماركس، محدّقاً في الأرض، وملتقطاً الحصى على أنه أعقاب سجائر، لم أجد شيئاً ولكني واصلتُ بحث الأرض بجدية.

إنه لمن المدهش كيف يتحوّل المرء سريعاً في الجيش إلى عبد مطيع. لم أحتج وقتاً لأدرك أنني أصبحتُ كلباً يحمل صاحبه عصا كبيرة. أصبحت واحداً ممن يتفادون المشاكل. أرعبني كيف أنني فقدتُ بسرعة احترامي لنفسي مهما كان ذلك الاحترام قليلاً. لا أتكلّم إلا عندما يكلمني أحد رؤسائي ولا أقول إلا "نعم" وحسب. بذلتُ ما في وسعي لأظل مجهولاً كليّاً، وكنتُ لأنجح لولا النظارة ذات الإطار السلكيّ التي أرتديها. لقد سألني ضابط كبير مرة: "هل أنت واعظ يا بنيّ؟". في طابور قاعة الطعام في اليوم التالي لتوزيعنا على فرقة التدريب، توقّف ضابط أسود يسأل كلاً منّا على حدة عما يعمله في الحياة المدنيّة. عندما أجبتُ "موظفاً في مكتب صرف مرتبات"، بصق على الأرض قائلاً: "خراء". قال نفس الكلمة للجميع محتقراً على وجه الخصوص طلاب الجامعات. لم تنفرج ابتسامته إلا عندما قال زميل يقف أمامي إنه كان موسيقيّاً. أراد أن يعرف "أي نوع من الموسيقى". أجاب الجنديّ: "جاز،

ترومبيت". أراد الضابط أن يعرف أكثر. كان مؤدباً، مهتماً بصدق، وودوداً. فكرنا جميعاً أنه لا يوجد عدل في هذا العالم.

حيّا الجنديّ الواقف على مدخل ثكنتْنا كل واحد منا لحظة دخوله قائلاً "أنا شخص حقير". كان يخلع خوذته وينحني، ويردد ما أخبره ضابط الصفّ أن يقوله. نسيتُ ما الجريمة التي ارتكبها حتى ينزل عليه هذا العقاب، ولكنه ظلّ في مكانه نهاراً كاملاً وحتى وقت متأخر من الليل. الهدف الأول للتدريب هو أن تُرعب الجنديّ حدّ الخنوع. ليس مهماً ما قمنا أو لم نقم به، يتم الصراخ فينا، يُقال لنا مئات المرات في اليوم أننا أغبى أبناء عاهرة خدموا في الجيش. تنافس الضباط فيما بينهم في اختراع طرق جديدة لإذلالنا. أنا كنتُ مؤخرة مثقوبة سائلة وآلاف الأشياء الأخرى. بعد ثمانية أسابيع من الشتيمة والإهانة أصبحتُ ممسحة أحذية عند الباب. أخذتُ طريجتي دون أن أرمُش. حدّقتُ مباشرة في وجوههم، مجموعة من عديمي الأهميّة، إنهم سماد الحرب القادمة ويقودهم مجموعة من المدّعين الذين يسمّون أنفسهم ضبّاطاً.

من المستحسن أن تكون الأشياء واضحة هكذا. نتبادل جميعاً الخوف والكراهية، وذلك يتضمّن الجنود الآخرين. بالتأكيد كان هناك عدد ممن سارت رفقتي معهم بشكل رائع، ولكن البقيّة كانوا من النوع الذي لا تستطيع أن تقضي دقيقتين في رفقته. في الحياة المدنيّة عندنا ترف أن ننتقي صحبتنا بعناية. ليس هنا، حيث يشاركك منامتك أكثر كائن مُملّ في العالم؛ إنه يحكي لك قصّة حياته كاملة كل ليلة. بسبب

الإرهاق، لم أجد صعوبة في الاستغراق في النوم، لكنه وصل إليّ من السرير العلويّ وهزّني لأستيقظ وأستمع إلى بقيّة القصّة. فسّرت لي صديقتي فرجينيا مرة السبب الذي من أجله لم تحاول مع أي رجل "الألفة تخلق العداء". هناك رِفقة في ارتداء الزيّ العسكريّ، لكن في التدريب الأساسيّ، في قوانين الالتزام، العقاب، والإهانة، من الصعب أن يكون عندك أكثر من صاحب أو اثنين.

ليلة ممطرة من نوفمبر في نيوجرسي. نحن عساكر في عراء الغابات، ننام في خيام، وأنا في خدمة الحراسة بعد منتصف الليل، أمشي جيئة وذهاباً في طريق طينيّ. ملابسي مبتلّة رغم ارتدائي لمعطف وقبعة. فجأة أرى كائناً أبيض ضبابياً قادماً من الغابة في اتجاهي. إنه جنديّ يرتدي ملابس داخلية طويلة تجعله يبدو مثل أرنب. رغم المفاجأة تذكرتُ ما أمروني به فرفعت عليه بندقيّتي وسألته عن كلمة السرّ. لم تكن عنده أدنى فكرة عما أتحدّث. من المفروض أن أقبض عليه، أكلّم كتيبة الحراسة، وأن يأتوا لأخذه؛ بدلاً من ذلك، سألته بحق الجحيم ما الذي يفعله هنا بمثل هذه الملابس. يبدو أنه زحف خارجاً من خيمته ليتبوّل، مشى مسافة ليتأكّد أن بوله لن يصل إلى منامته، وتاه على الفور. لم يستطع العثور على طريق العودة. إنها تمطر والظلام دامس، عن نفسي ليس لديّ إلا فكرة مشوشة عن مكاني. "لا أستطيع مساعدتك"، هذا كل ما قلته له. بعد أن وقف هناك لمدة، انصرف إلى داخل الغابة. لم أره مرة أخرى. هل عثر على خيمته؟ ربما

لا. ربما لم يزل هناك بعد خمس وثلاثين سنة، يبحث عن خيمته بشعر شائب ولحية بيضاء.

أصبح من الصعب عليّ بعد ستّة أسابيع في الجيش أن أصدق أنه كانت عندي حياة سابقة. فكرة أنه كان بإمكاني أن أقرّر متى أذهب للنوم ومتى أستيقظ بدت عجيبة. ما زلتُ أتذكّر بوضوح منظر منهاتن من مارشات نيوجرسي في أول خروج لي بعد ستة أسابيع في معسكر "فورت ديكس". كانت الساعة حوالي الثامنة مساء، ليلة باردة ولكن صافية من ليالي نوفمبر. بدا الأمر خياليّاً. استمرّ احساسي بالاغتراب وأنا أمشي في شوارع المدينة. المباني وهميّة والناس من حولها كالأشباح. حتى وأنا أطلب العشاء في مطعم إيطاليّ في حيّ فيلدج الذي أعرفه جيداً، ظل جزءٌ مني لا يصدق أن ما يحدث واقعيّ. انقشعت هذه الغلالة من عدم التصديق بعد يوم واحد، لكنها كانت تُعاود الرجوع، أحياناً بدون مقدمات.

لا أعرف لماذا اختارني الجيش لكي أكون في الشرطة العسكريّة. حدث الشيء نفسه مع أخي بعد ذلك بسنوات، لابد أن اختبارات المدفعيّة التي قمنا بها قد أظهرت بعض قدراتنا السيكولوجيّة. ذلك لا يخلو من غرابة، دائماً ما كرهتُ البوليس والبروفيسورات، وقد انتهى بي الحال في حياتي أن أكون كليْهما. أيّاً كان السبب الحقيقيّ، فقد قضيتُ شتاء ١٩٦١ ــ ٦٢ في قاعدة فورت جوردن في جورجيا،

أدرس تنفيذ القانون والقضاء العسكريّ. ذلك لا غبار عليه، ولكن ما كان يشغلني مثل الآخرين هو ما الذي سيحدث لنا بعد ذلك؟ على الأغلب ستكون الخطوة التالية التي أخشاها مثلهم، أن ينتهي بي الحال حارس دوريّة على أطراف منطقة منزوعة السلاح في كوريا وأن يقوم الشيوعيون بقنصي. الاحتمال القذر الآخر، أن يرسلوني إلى قاعدة عسكريّة ما في أعماق الجنوب في تكساس. لدهشتي أرسلني الجيش إلى كايزرسلاوترن بألمانيا، لأحرس مستودعاً من المفترض أنه مليء بالأسلحة السريّة.

عبرنا الأطلنطي في طقس سيئ على سفينة تعود إلى الحرب العالميّة الثانية. وظيفتي كانت تنظيف الحمّامات، وهو عمل شنيع في كل الحالات، وتضاعفت شناعته بحقيقة أن معظم الأربعة آلاف جنديّ على السفينة قد أصابهم دوار البحر. لسبب ما لم أُصَب به، رغم أنني كنتُ على وشك التقيّؤ مرات عديدة. بدت السفينة و كأنها لي وحدي لأن الجميع كانوا مرضى في أسرّتهم. لم يكن مسموحاً لنا بالخروج إلى السطح بسبب الطقس، ولكنني تسللتُ إلى هناك مرتين من وراء البحّارة. كانت الرياح شديدة، باردة: البحر والسماء، عاصفان ورماديّان. ذلك كان منعشاً ومخيفاً للغاية. لم يكن هناك ما يُغري الرومانسيين ومحبي الطبيعة، على العكس، فكّرتُ في البحّارة القدامى، الصيادين الباحثين عن سمك القدّ بمراكبهم الصغيرة في مناطق مجهولة قبل اكتشاف أمريكا بزمن. حتى هذه السفينة القديمة ليست جديرة

بالثقة. صرّت السفينة، انتحبت، خرج منها ضجيج مزعج، ترجرجتْ، بدت وكأنها ستنشق إلى نصفين. يزداد الأمر سوءاً في الليل. تضرب الأمواج العالية مثل قبضات ضخمة فوق رؤوسنا. في لحظات عابرة من الراحة بين الضربات يكون هناك دائماً شخصٌ يتقيّأ ليبقيني مستيقظاً. باختصار، فيلم رعب لا يتوقّف لحظة.

رسَوْنا في ميناء بريمر هافن، وضعوا بعضنا في القطار الليليّ المتجه إلى الجنوب. ظللتُ مستيقظاً أحدّق في الظلام. بين حين وآخر، تظهر الإضاءة السيئة لمدينة ما، شارع طويل أو بناية سكنيّة تُذكّرني ببلجراد أو بأفلام الحرب العالميّة الثانية. أصابني التوتّر لرؤية بعض الألمان وسماع لغتهم أينما ذهبتُ. هنا يوجد الكابوس الذي اعتقدتُ أنني هربتُ منه. كأنني لم أغادر أبداً.

ظللتُ ثلاثة أشهر فقط في بلدة K كما اعتاد الجنود الأمريكيون أن يسموها، بعد ذلك تم نقلي إلى فرنسا. أنا مَن طلبتُ ذلك، كتبتُ رسالة أوضّح فيها كيف سيستفيد الجيش بطرق شتى من معرفتي بالفرنسيّة. بالطبع، لم أتوقّع أن يحدث شيء، لكن في أحد الصباحات استدعاني إلى مكتبه المسئول العسكري وأعطاني الأوامر الجديدة. عليّ أن أصبح شرطيّاً عاديّاً في بلدة تول، أجوب الأحياء في عربة جيب أو مع فرقة من البوليس، وآخذ الجنود الأمريكيين السكارى إلى وحداتهم وأرميهم في السجن. عندما وصلتُ تبيّن أن عندهم لي خطّة أخرى. لقد جعلوني مسئول الاتصال مع البوليس الفرنسيّ في بلدة نانسي. هذا يعني

أن أرتدي الملابس المدنيّة، وأجلس في قسم البوليس، أتناول مشروباتي في مقاهي، وغداءاتي في مطاعم الحيّ الصغيرة، وأن أقرأ الصحف الفرنسيّة على مدى ساعات في مكتبي. في الشهور الأربعة التي بقيتُ فيها هناك، لا أتذكّر إلا مواقف معدودة كان عليّ فيها أن أقوم ببعض الترجمة.

مرة كنتُ في محكمة فرنسيّة وعليّ مهمة مؤلمة؛ أن أخبر جنديّاً أمريكيّاً كان قد دهس طفلاً بالسيارة، أنه قد حُكم عليه بالسجن. لقد خمّن ذلك بنفسه من لهجة القاضي العنيفة، رغم ذلك التفت إليّ ببعض الأمل. لو كنتُ وحدي، لكنتُ تعثّرتُ في إخباره، لكن هناك، في محكمة ممتلئة عن آخرها، لم يكن أمامي إلا أن أخبره مباشرة.

في مرة أخرى وجدتُ نفسي أُترجم لجنرال في القوات الجويّة في مقابلة مع نظيره الفرنسيّ. ذهبنا في جولة على بعض أجهزة الرادار، أصبح حديثهما تقنياً لدرجة أنني لم تكن لديّ فكرة عما يقولان ولا بأي لغةٍ لعينة يتحدثان. بدا لي أنهما منزعجان مني، على وشك أن يسألا، مَن الذي أرسل هذا الغبيّ ليترجم لنا؟ لحسن الحظ، استأنف الاثنان لقاءهما في نادي الخدمة من أجل الشراب، وبعد عدة كؤوس تغيّرتْ مواضيع الحديث من المسائل العسكريّة إلى النساء. فجأة أصبحتُ أُترجم بمهارة عالية، جاعلاً الطائرين العجوزيْن الصارمين يقهقهان، ذلك سبّب استياء الضباط الشباب الذين وقفوا في القاعة يراقبون حفلتنا. انتهى الأمر بعد المزيد من الكؤوس، بينما يعلن الجنرالان بصوت عال

أنني أفضل مترجم قابلاه في حياتيهما. اعتقدتُ أن وظيفتي مضمونة بالتأكيد، أنني سأقضي بقيّة خدمتي بكسل في المقاهي، أدخن سجائر الجيتان، وأراقب النساء.

للأسف، وصلتْ النميمة عن الحياة المريحة التي أستمتع بها إلى رؤسائي. نقلوني إلى الخدمة العسكريّة العاديّة، مما يعني على الأغلب فض معارك الحانات، تغطية حوادث السيّارات، بالإضافة إلى التجوّل بسيّارة الشرطة لساعات في شوارع تول ونانسي. ثم، في يوم ما، تم تخفيض رُتبتي درجة أخرى. تسلّمتُ أمر ترحيلي إلى قاعدة عسكريّة على بُعد حوالي خمسين ميلاً، قريبة من بلدة لونفيل. بدأتُ أكتب يوميّاتي، وكتبتُ عدة قصائد تخلّصتُ منها بعد ذلك. كانت صفحات اليوميّات أكثر إثارة.

٢١

نجلس نحن الأربعة بملابسنا الداخليّة نستمع إلى الراديو أو نلعب الكوتشينة. للضابط غرفة تقع في الجهة الأخرى من المطبخ. لا توجد مهام كثيرة للشرطة منذ انقلب الطقس وأصبح سيئاً. يُغادر أتوبيس لونفيل في السادسة مساء، ونادراً ما يكون هناك ركّاب. جدول أعمالنا خفيف للغاية. يعمل اثنان منا كل ليلة ولكنهما لا يذهبان في دوريّة قبل العاشرة مساء. تصل الدوريّة إلى لونفيل، نتناول شراباً في مقهى محطة القطار، نمرّ على بعض الحانات التي يتردّد عليها الجنود الأمريكيون، نتأكد أنهم جميعاً في أتوبيس العودة في الحادية عشرة والنصف، نختتم المساء بكأسين آخرين في المحطة. يتزايد عدد الجنود في الحانات في ليالي السبت حيث لا يبدأ حظر التجوّل إلا في الواحدة صباحاً، إلى الآن لم تقع أحداث خطيرة. لاسلكي البوليس صامت. المرات الوحيدة التي نستخدمه فيها نطلب ممن في دوريّة الخدمة أن يحضروا لنا بعض السندوتشات من محطة القطار. لم نعد نأكل في قاعة الطعام. آخر مرة

كانت يوم عيد الشكر. ارتدينا أفضل ما عندنا وذهبنا إلى هناك. رمونا بنظرة احتقار. بالإضافة إلى ذلك، البطاطس والديك الرومي المشوي كانا نيئين. لم نذهب بعدها أبداً. نشتري الطعام من سان كليمنت أو نأكل في المقهى الوحيد هناك، لدرجة أن إدوارد، الأمريكي الجلف، أصبح يميّز بين أنواع المعجنات.

الطقس في شرق فرنسا بالغ السوء. هناك مطر طوال الوقت في الصيف، وثلج في الشتاء إذا لم تكن تُمطر. في الشهور التي قضيتها هناك، لم يمرّ علينا يوم رائق. كان ذلك يمكن أن يصيبنا بالكآبة لولا سهولة الحياة التي نعيشها. في بلدة تول كان علينا أن نتجمّع كل صباح، نتلقى تهديدات، أوامر إضافيّة وحملات تفتيش. هنا، لا نقوم حتّى بوضع ملابسنا في الخزائن. نرمي كل شيء على الأرض. الرقيب بريجز لا يهمه الأمر. هو واقع في غرام نادلة في لونفيل ويحلم بأخذها معه إلى ساوث داكوتا. عندما يتخاصمان، وذلك يحدث كثيراً، أكتب رسائل اعتذار باسمه بفرنسية ركيكة. هي لا تعرف الإنجليزية فيما يبدو، وعندها طفلان. هذا كل ما نعرفه.

بريجز يغيب كثيراً خلال النهار. لأننا أربعة والرقيب خامسنا، نقسّم وقت عملنا هكذا: اثنان في الخدمة، اثنان على أهبة الاستعداد، وواحد في إجازة لمدة ٢٤ ساعة. هذا يعني أننا لا نعمل إلا قليلاً. يذكّرنا ويليامز الذي ما زال في أول درجة في الجيش "نحن محظوظون للغاية". يعتقد ويليامز أن الحياة يجب أن تكون هكذا. يقول لنا إنه عندما يعود

إلى لوس أنجلوس سيفتح بيتاً للدعارة على مستوى عالٍ، وسيعيش الحياة التي يحلم بها. نظن أنه يسخر عندما يتحدث عن بيت الدعارة، لكنه جاد. "سيضم البيت أفضل العاهرات المكسيكيّات وبأسعار أمريكيّة معقولة. إذا مررتم في أي وقت بكاليفورنيا يمكنكم الاستمتاع مجاناً". نذهب للنوم كل ليلة ونحن نتخيّل ذلك.

أمسك إدوارد هذا الصباح بخنزير برّي رضيع في مدرّج الطائرات. كنا نراقب سقوط الثلج عندما رأينا خنزيرة ضخمة تتمشى في المدرّج وصغارها الأربعة خلفها. بمجرد أن رأيناها، قفز إدوارد خلفها. فكرنا أنه فقد عقله. من المؤكد أن الأم ستهاجمه، وسيقع في ورطة كبيرة. لحسن الحظ، هي لم تقم بذلك. كانت تجري، ويحاول صغارها الأربعة اللحاق بها، رأيناه ينقضّ ويُمسك أحدها. لم تنظر الأم للوراء.

أنا وماك نفكر أن علينا طبخه وأكله. يرى الرقيب بريجز أن تلك الفكرة سيئة لأن الخنزير ملكيّة فرنسيّة، وبعض قوانين الجيش لا تسمح بأكل الملكيّة الفرنسيّة. أما إدوارد فيريد أن نحتفظ به كحيوان أليف، في نفس الوقت، الخِنّوْص ـ أو أيّاً كان اسم رضيع الخنزير ـ مرعوب جداً ويرفض أن يأكل ما نقدّمه له.

لا توجد طائرات في المدرّج. لم تهبط فيه طائرة واحدة. إنه موجود في انتظار حدوث حرب. إذا عبر الروس حدود شرق ألمانيا، سيصلون

إلى هنا في ثلاثة أيام. تمتلئ غاباتنا بالشاحنات المخبأة، عربات الجيب، والمدرّعات، وهناك نحو ثلاثمائة جنديّ يحافظون عليها دائماً في وضع استعداد. إنهم يغيّرون الزيت، يقيسون ضغط الهواء في العجلات، ومن وقت لآخر يقودونها لمسافة. بقيّة الوقت إما يجلسون حولها يقتلهم الضجر، أو يسببون الكوارث في لونفيل ونادي الخدمة.

بالمناسبة، "النادي" هو مجرد كوخ، فيه عدّة طاولات وكراسي وآلة موسيقيّة تشتغل بالعُملات المعدنيّة. لا نذهب إلى هناك إلا للضرورة القصوى. نرمي السكارى في زنازيننا حتى يفيقوا ثم نرسلهم في الصباح إلى وحداتهم العسكريّة.

هناك أيضاً أربعون بولنديّاً يقعون تحت سلطتنا القضائيّة. إنهم يقومون بواجبات الحراسة حول القاعدة العسكريّة. هم من تبقّى من جيش بطلنا الجنرال البولندي أندرز، لقد حاربوا مع الحلفاء أثناء الحملة الإيطاليّة، إنهم ممن لم يستطيعوا الهجرة كما لم يجدوا وظائف مدنية ليقوموا بها. معظمهم في العقد السادس من عمرهم، وكلهم سكّيرون. يشكو قائد القاعدة أحياناً للرقيب بريجز أنه وجد أحدهم نائماً أمام البوابة الرئيسيّة، لكن لا أحد يفعل شيئاً في هذا الموضوع.

تناقشنا هذا الصباح فيما إذا كنا سنعطي الخنزير للبولنديين أو لفرانكو عامل الصيانة. من المفترض أن يأتي لإصلاح الحمّام، وهو رجلٌ طيب وودود. لقد وصل فرانكو قبل أن نتّخذ قراراً. بدا الخنزير

مريضاً في ركن المطبخ. لم يأكل شيئاً طوال الثلاثة أيّام. قال بريجز: "هل تريده؟". قبل أن تظهر ردود أفعالنا كان فرانكو قد ربط الخنزير وألقاه في عربة نقله. بالطبع دعانا فرانكو إلى الوليمة. أعرف أن لا أحد منا سيذهب. لقد نظرنا كثيراً في عينيّ الخنزير.

ذهبتُ أنا وبريجز بالسيارة بعيداً، إلى سانت دي. إنها بلدة حديثة وغريبة، يبدو أنه قد أُعيد بناؤها بعد أن كانت قد احترقت خلال الحرب. في المطعم الذي أكلنا فيه كانوا مندهشين لرؤيتنا؛ لا يوجد جنود أمريكيون في المنطقة. كان الناس ودودين، والطعام رائعاً. بعد زجاجة النبيذ الثانية، كان من الصعب أن ننصرف. هناك برودة وثلج في الخارج. قال بريجز: "ليس الطقس هنا بأسوأ من ساوث داكوتا". بريجز ريفيّ مسكين. يحب الجيش. يحب فرنسا، أو على وجه التحديد، يحب نادلة فرنسيّة. إنه يحب ساوث داكوتا أيضاً. بالنسبة لي، أنا أحب النبيذ وحساء الفاصوليا والمقانق والخبز الفلاحي اللذيذ. توتّرنا بعض الشيء في طريق الرجوع، خفنا أن يكون هناك طوارئ. منعتنا الجبال من استقبال رسائل لاسلكية واضحة لعدة أميال، بينما الجهاز يخبرنا أن هناك من يحاول الاتصال بنا. ماذا سيحدث لو كانت هناك حادثة بشعة أو معركة في حانة بينما لا أحد يستطيع الاتصال بنا. ستكون نتيجة ذلك بالغة السوء. في النهاية عرفنا أن ماك يريدنا أن نحضر له ساندوتش وبيرة.

اليوم السبت، لدينا الكثير لنقوم به على سبيل التغيير. كنا نلعب الكوتشينة في الرابعة عصراً، لم نرتد ملابسنا بعد، عندما جاءنا تليفون. كان أحدهم قد تم طعنه بسكين في نادي الخدمة. أنا والرقيب بريجز ذهبنا في عربة جيب بينما ذهب ماك وويليامز في عربة أخرى. ظل إدوارد يتابع اللاسلكي. وصلنا إلى هناك بأقصى سرعة أثناء ركض الناس إلى خارج النادي. في الداخل كنا على وشك أن ندوس على رجل مُلقى على الأرض وسكّينة تخرج من صدره. حسنٌ، أصابني المشهد بالذهول. يا إلهي! الأمر خطير للغاية. أشار النادل إلى الاتجاه الذي هرب إليه الجناة. جريتُ أنا وبريجز على أقدامنا خلفهم، بينما كان ماك يطلب الإسعاف.

سبقني بريجز إلى الغابة، كنت أحاول اللحاق به، رأينا رجلين يجريان أمامنا. واحدٌ منهما واصل الجري إلى عمق الغابة، بينما اتجه الآخر إلى ناحية الحقول المكشوفة. صرخ فيّ بريجز أن أمسك بالأخير. ها نحن هنا، في سباق عبر الحقول، أنا غير قادر على التنفّس أناديه أن يقف ثم أسقط خلفه، سحبتُ بندقيّتي بدون تفكير وأطلقتُ طلقة في الهواء. كنتُ فقط لا أستطيع أن أجري خطوة أخرى. وقف الرجل في الحال! إنه حتى ركع على ركبتيْه وظهره لي وانتظرني حتى أصل إليه. ظل يكرر: "أنا أعرف حقوقي" بينما أنا أقوده راجعاً إلى النادي.

قبض بريجز على الرجل الآخر. إنهما شابان ريفيّان أصبحت حياتهما تعيسة على يدِ رقيب عنيف. لم يستطيعا أن يتحمّلا المزيد.

عندما أحضرناهما إلى القسم، كانا في مزاج احتفاليّ. ظلا يقهقهان بسبب ما حدث. واحد منهما يقول للآخر مرة بعد مرة "هل رأيتَ وجهه عندما أصابته السكين؟". ماك، رجلٌ أسود قويّ من ديترويت، كان مفزوعاً من مرحهما. كانا سكرانين بالطبع، والرجل الذي قاما بطعنه لم يمت على أي حال. مع هذا، أخذني ماك في تلك الليلة جانباً وحذرني من الأمريكيين الأجلاف. قال: "كلهم مرضى في عقولهم". بريجز وإدوارد مثلهم تماماً. أكد لي نظريته عن ذلك: "إنهم جميعاً ناكحو نعاج".

أنا سمعتُ عن هذا من قبل. في ليلة في بلدة تول، أتى البوليس الفرنسيّ إلى قسمنا، وبعد تردد كبير أخبرونا في النهاية أنهم أمسكوا بجندي أمريكيّ وهو ينكح نعجة. عندما عدتُ يومها إلى الثكنات، حكيتُ للاعبي الكوتشينة ما حدث، ادّعوا جميعاً عدم تصديقهم لدهشتي. ألا ننكح جميعاً النعاج في المدينة؟

لا تبدو البلدات الصغيرة جميلة في قسوة الشتاء، ولونفيل ليست استثناء في ذلك. لقد أصبحت شهيرة بسبب القصر الأنيق الذي بنته الدوقة إليزابيث شارلوت وجعلته ينافس قصر فرساي في الفخامة. من المفروض أن فولتير كان من المترددين عليها للزيارة. ربما يكون قد مشى في الشوارع الرماديّة للونفيل مثلما أمشي الآن، متخيّلاً حياة "كانديد".

في رأيي، هذا المكان كئيب. كل هذا اللون الرماديّ يشعرني بالسجن. بلدة الإصلاحيّات العائليّة. الإصلاحيّات الخاوية ربما؟ تمشي في الشوارع دون أن تقابل مخلوقاً. تدخل محلاً معتماً على الأغلب، وتنتظر للأبد قبل أن يأتي شخصٌ يجرّ قدميه من خلفيّة المحلّ ليخدمك. أنا الزبون الوحيد في المكتبة، وفي المطعم أيضاً.

يتحسّن الوضع في الظهيرة عندما يخرج طلبة المدارس. يمكنك أن ترى بعض البالغين وهم يتسوّقون أو يتناولون مشروباً. يستمرّ هذا إلى حوالي السابعة. في الثامنة مساء، أنا الشخص الوحيد في الشارع، أعبر ميداناً واسعاً وأتساءل ما الذي حدث لكل البنات الجميلات اللواتي رأيتهن في الظهيرة. هل خلعْن ملابسهن وفي السرير الآن؟ أم أنهن جالسات في الظلام حول طاولة عشاء الأسرة؟

قلتُ "في الظلام" لأن لديّ انطباعاً أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يعرف جيرانهم ماذا يأكلون. إنهم يتسوّقون لحوم الخنزير من أجل طبخة الشاركيتوري بنفس الطريقة التي يلتقط بها الجواسيس لفة وثائق من كوّة سريّة. في صمت شتاء لونفيل، يُهيّأ لي أنني أسمعهم يضعون الزبد على خبزهم، يلتهمون حساء المساء، ويقطعون اللحم الذي يحبونه شبه نيء، دمويّاً تقريباً.

الطقس رديء كالعادة. إنه رطب وبارد جداً، تنزل ندف من الثلج. ثم يتساقط كثيفاً! هذا يجعل الطريق خطِرة. ليلة أمس كنا عائدين من بلدة موون عندما مرتّ من جانبنا بسرعة جنونيّة عربة جيش. الطريق المليء بالمنحنيات مسورٌ بالأشجار. فكرنا أنه قد يكون ملازماً مخموراً من قاعدتنا العسكريّة.

بعد عدة أميال من الطريق الخالي رأينا إضاءة عربته بزاوية غريبة. لقد ارتطم بشجرة وجهاً لوجه، سمعنا صراخه من داخل السيّارة التي بدت مقدمتها محطّمة تماماً. حاولنا أن نكلّم الإسعاف باللاسلكي، ولكن لم يكن هناك إرسال. قال بريجز "سأذهب إلى أعلى التلّ"، وقاد العربة تاركاً إيّاي مع الرجل الذي يصرخ.

جاء الأتوبيس الأخير من لونفيل ممتلئاً بالجنود السكارى. توقّف الأتوبيس، وتدحرج راكبوه إلى الخارج ليستطلعوا الأمر. ما زال الضابط يصرخ، والسكارى يريدون أن يسحبوه من قلب الحطام، ولكني لم أسمح لهم بذلك. حاولتُ أن أشرح لهم أننا يجب أن ننتظر المسعفين وأن هذا هو القانون.

لا بالطبع، إنهم سينقذون الرجل المسكين على الفور، ويمكنني أن أذهب إلى الجحيم إذا أردتُ.

وقعتُ في ورطة كبيرة. يناقشون بعنف إذا كان عليهم أن يعدموني كي ينقذوا الرجل. كنتُ خائفاً، مع ذلك لم أستطع أن أتركهم ليفعلوا

ذلك. مرة أخرى، اضطررتُ إلى سحب بندقيتي، يا إلهي، كان من الصعب أن يصدقوا أعينهم! نذل حقيقيّ، يترك الرجل الجريح يعاني هكذا. عندما أوشكوا على امتلاك الشجاعة الكافية للانتقام مني، وصل بريجز والمسعفين.

بعد صراخ عالٍ منّا ومنهم، غادر الأتوبيس إلى طريقه، وسحب المسعفان الضابط خارج الحطام. عندما استطاعا النظر بوضوح في وجهه المدمى، فقد المسعف الذي كان يبدو وكأنه الأكثر خبرة الوعي.

يا للهول! ها نحن في منتصف الليل في طريق خالٍ مع رجل يحتضر، ومسعف فاقد للوعي، بينما المسعف الآخر مرعوب لدرجة أن أقصى ما يمكنه عمله هو فرك يديه وهزّ رأسه!

لحسن حظنا، هناك في القاعدة، قرر ماك أن يخبر البوليس الفرنسيّ الذي وصل بسرعة مع عربة إسعاف من لونفيل. ليس عندنا في القاعدة إلا عيادة بسيطة، مما يستدعي أخذ المصاب إلى مستشفى فرنسيّ. هذا ما قام به البوليس، ونحن تبعناهم.

وضعوا الضابط الشاب على الطاولة في المستشفى، ذهب أحدهم ليوقظ الطبيب الذي في الخدمة. بدت رجلاه مكسورتين بشدّة، وهناك جروح في وجهه، ولم يكن هناك أي جروح أخرى في جسده. المشكلة الوحيدة هي أنه كان يتقيّأ دماً. قالت الشابة النعسانة التي اتّضح أنها الطبيبة "إنها إصابات داخليّة". لم يريدوا فتح بطنه هنا ليعرفوا نوع

الإصابات، واقترحوا علينا أن نذهب إلى بلدة نانسي التي تبعُد عشرين ميلاً على الأقل.

قررنا أن نهاتف المستشفى الأمريكيّة في بلدة مِتز وأن نسألهم النصيحة. وجدنا كما هو متوقع عقيداً غبيّاً يصرخ فينا في التليفون أن المستشفيات الفرنسيّة عفنة؛ ويريدنا أن ننتظر حتى الصباح حيث سيرسل لنا طائرة مروحيّة. سألنا الطبيبة عن رأيها. هزّت كتفيْها باستهجان، وفهمنا أنه من الأفضل أن نأخذ مصابنا إلى نانسي بأقصى سرعة.

ذهبنا إلى نانسي هذه المرة في عربة إسعاف فرنسيّة. الطرق زلقة، ولكن السائق لم يكترث لذلك. فكرتُ "سيقتلنا جميعاً".

واصلوا قياس ضغط دم الضابط بانتظام، ولكنه كان ينخفض بشكل مخيف. أنا نفسي كنتُ أعي ذلك. كان عليهم أن يعطوه بعض الحُقن في الطريق. ظلّ يئن، ونحن نظرنا إلى بعضنا دون كلمة.

في المستشفى الكبير في نانسي، تكّرر المشهد نفسه. وضعوه على طاولة في صالة الطوارئ وجرّدوه من ملابسه. لم يبدُ الطبيب العجوز جديراً بالثقة في أول الأمر؛ بدا كسكير قديم، ذقنه غير حليقة، أشعث، وهناك عقب سيجارة في زاوية فمه. يداه مع ذلك كانتا جميلتين. مرّ بهما على بطن الضابط المحتضر لامساً إيّاه في كل مكان وكأنه يداعبه. لم يكن متعجلاً، وواصل نفخ سيجارته. أخيراً، قال لنا

إنه لا حاجة لعمليّة، "سيكون بخير". كنا في حالة من الشك، خائفين أن يموت الرجل، وأن ينتهي بنا الأمر إلى المحكمة العسكريّة لأننا لم نُطِع العقيد في مِتز، ولكن الطبيب كان صلباً. بالإضافة إلى أن يديه جعلتانا نثق فيه. كانتا يديْن فاتنتين؛ يدي موسيقيّ عظيم أو عاهرة تأخذ ألف دولار في الليلة.

سمعنا ظهيرة اليوم أن حالة الضابط تتحسّن. ما زلتُ مرهقاً بسبب قلّة النوم والتوتّر. إنني متعجب من سرعة تصرّفنا. كان يمكن أن ننتظر تلك المروحيّة، رغم معرفتنا بالطريقة التي تسير بها الأشياء هنا في الجيش، وفي القوات الجويّة، ومع المسئولين الفرنسيين. أشك أنها كانت لتصل في الصباح. الفضل كله يرجع إلى بريجز. إنه يبدو في معظم الوقت مثل ريفيّ بليد، ولكن الليلة الماضية كان الحسم بعيْنه. هو وذلك الدكتور بيديه الحكيمتين.

تجهّزنا للذهاب إلى حفلة الكريسماس عند البولنديين. أنا وبريجز نرتدي الزيّ العسكريّ لأننا في الخدمة، بينما ماك وويليامز بملابسهما المدنيّة. تبرّع إدوارد بأن يتابع اللاسلكي لأنه لا يشرب. إنه يحب البيبسي كولا، ولكنه لا يجد هنا إلا الكوكاكولا. أرسلت له صديقته طرداً هديّة به زجاجتا بيبسي من ساوث كاروليْنا. واحدة منهما فسدت في رحلة عبور الأطلنطي، فانتهى به الحال مع زجاجة واحدة. كان ينوي أن يشربها يوم الكريسماس، لكنه اكتشفِ اختفاءها هذا الصباح

من خزانته. لقد أخفاها ماك. راقبنا إدوارد وهو يبحث عنها، لقد فتش تحت مخدّته ومرتبته. أخيراً، جاء إلينا، بدا غاضباً للغاية وقال: "أهلاً يا شباب، أين زجاجة البيبسي؟"

قلنا له إنه مخبول. نحن لا نعرف عن ماذا يتحدّث بحق الجحيم! بالإضافة لذلك، لماذا نهتم بأنه لا يجد زجاجة بيبسي. ثم استأنفنا ما كنا نقوم به.

جلس إدوارد المسكين في سريره على وشك البكاء. ظلّ جالساً حتى أنه لم يتناول فطوره، كان مصدوماً. تسللنا إلى الحمام حتى نضحك كما نشاء. في النهاية، عندما أعطيناه الزجاجة، استطاع أن يبتسم، لكن ابتسامته تلاشت في اللحظة التي طلب منه ماك أن يعطي كل واحد منّا رشفة يوم الكريسماس. ها ـ ها ـ ها! قلنا له إننا كُنّا نداعبه فأصبح سعيداً مرة أخرى.

حفلة الكريسماس البولنديّة كانت فظيعة. بما أنني سلوفاكي، فقد أجلسوني بجانب قائدهم الذي واصل إطعامي. كان هناك كل أنواع السمك المدخّن، المعجنات، المقانق، الخبز، المخللات، بالإضافة إلى صناديق فوق صناديق من الشمبانيا والفودكا. كنا حوالي ثلاثين نجلس حول المائدة الطويلة، أمام كل منّا زجاجة من كل نوع، وكأسان كبيران يتم ملأهما بعد كل تبادل للأنخاب. واقفين على أقدامنا، شربنا الكثير من أنخاب جمال بولندا ونسائها. شربنا الفودكا ورشفنا الشمبانيا. أصبحتُ سكران في خلال عشر دقائق، ومثلي كان الآخرون. السرعة

كانت انتحاريّة. الفكرة، كما اتضح، كانت أن تفقد وعيك بأقصى سرعة. لم أجرّب شيئاً كهذا في حياتي. كان عليّ أنا وبريجز أن نخفض العلم أمام المقرّ وقت الغروب، وقد جاء الغروب بعد الغداء مباشرة. كان من الصعب أن نتوازن في وقفتنا. ونحن نطوي العلم حسب التعليمات المنصوص عليها، أسقطناه في الطين. أصبحت النجوم والشرائط في الطين! سكارى في الخدمة! إنهم يرسلون الجنود للمحكمة العسكريّة لأسباب أقلّ من هذه.

لحسن الحظ، لم يرنا أحد. نجحنا في التقاطه وإزالة الطين بشكل ما. بعد ذلك ذهبنا للنوم. لم نتعب أنفسنا بالذهاب إلى دوريّة المساء.

ذهبتُ لقضاء ثلاثة أيام في ستراسبورج ولكن انتهى بي الحال في باريس. هذا ما حدث؛ كان عندي إجازة ففكرتُ لماذا لا أذهب وأرى الكاتدرائيّة الشهيرة وأجرّب الطعام الألزاسي اللذيذ! قمتُ بذلك. أخذتُ القطار، وصلتُ إلى ستراسبورج في الظهيرة، وجدتُ فندقاً في مواجهة محطة القطار، وذهبتُ لأرى الكاتدرائيّة. كانت مهيبة. مع ذلك، إذا لم تكن مغرماً بالفن القوطي، وإذا كنت تكره الكنيسة كمؤسسة، فسيظل تأثرك جماليّاً فقط.

مشيتُ في الشوارع بعد ذلك حتى ساعة العشاء. الطقس كان كئيباً، يتساقط الثلج، والنساء ملفوفات في المعاطف فلا تستطيع أن تراهن بوضوح. تناولتُ وجبة كبيرة من الكرنب وزجاجتين من أفضل

نبيذ الرسلنج، ثم ذهبتُ إلى السينما وشاهدتُ فيلم "أورفيوس الأسود". كنتُ قد شاهدته مرتين من قبل في نيويورك، ولكن لم يكن هناك فيلم مثير غيره.

انتهى الفيلم قبل الحادية عشرة بقليل، فذهبتُ مباشرة إلى الفندق، خلعتُ ملابسي وقفزت في السرير وأطفأت الإضاءة. بمجرد ما بدأت أدخل في النوم، سألتُ نفسي فجأة: ما الذي ستفعله بحق الجحيم في ستراسبورج لمدة يومين؟ ثم تذكرتُ أن هناك قطاراً لباريس في خلال عشر دقائق. استيقظتُ تماماً. أخذتُ خمس دقائق لأرتدي ملابسي ثانية، وأُدهش موظف الفندق بمغادرتي مهرولاً، وأجري عابراً الميدان الخالي إلى المحطة.

لم يكن في المحطة إلا عدة أفراد. اشتريتُ تذكرة لعربة النوم، وعندما وصلتُ إلى الرصيف كان القطار يتحرّك بمقصوراته المظلمة وسقفه المغطى بالثلج. قطار منتصف الليل بالفعل. وصلتُ إلى مقصورتي حيث كان سريري جاهزاً. بدا ذلك مثل حلم: نصفي ما زال دافئاً في غرفة الفندق تحت الأغطية، ونصفي الآخر يخلع ملابسه مرة أخرى. فكرتُ أنه لا أحد في العالم يعرف أين أنا الآن. خرجتُ من مسار حياتي مثل هؤلاء الأشخاص الذين تقرأ عنهم في الصحف، يختفون بلا أثر بعد أن يقولوا إنهم فقط ذاهبون إلى دكان الناصية ليشتروا علبة سجائر. استلقيتُ لساعات في نعيم كامل. لماذا لا آخذ قطاراً آخر من باريس إلى مدريد؟ تلبّسني هذا الشعور الطاغي بالحريّة والسعادة.

لا يوجد ما تفعله في باريس في السادسة صباحاً إلا أن تجلس في مقهى بارد ترشف القهوة وتقرأ الجرائد. ما زال الوقت مبكراً لمهاتفة أصدقائي الذين أقيم معهم عادة، فمشيتُ من محطة الشرق إلى جراند بوليفار. الصباح كان بارداً، واصلتُ المشي بخطوات سريعة. في لحظة اشتقتُ إلى طبق من البيض ولحم الخنزير المقدد. لم أر أحداً يأكل ذلك في مقهى باريسيّ، ولكني سألت النادل في المقهى التالي عما إذا كان ذلك ممكناً. نظر إليّ وكأنني معتوه. أكلتُ أربع قطع من خبز البريوش لمجرد أن أسترضيه.

في شارع جانبيّ متفرّع من بوليفار بوني نوفيل، حانات صغيرة مفتوحة حيث وقف عمال عند البار يشربون النبيذ. بعد تردّد، دخلتُ واحدة وطلبتُ كأساً بينما يراقبني الجميع. من الواضح لهم أنني غريب، ولكنهم غير متأكدين من أين. لم أكن من النوع الذي يشرب نبيذاً أحمرَ في السابعة صباحاً. بعد كأسين، شعرتُ بسعادة بالغة. مرة أخرى، تلبسني شعور الحريّة والمغامرة. أقسمتُ لنفسي، سأفعل أشياء مختلفة اليوم. سأقوم بأفعال لم تكن عندي الشجاعة للقيام بها من قبل، مثلاً سأذهب إلى شارع سان دينيس وألتقط عاهرة. في نفس الوقت، بدأت الشوارع في الازدحام. كان هناك ناس لأتفرّج عليهم. تناولت كأسي الثالث من النبيذ الأحمر دون رغبة في أن أتحرّك من مكاني.

كما يحدث عادة، آخر مساء لي في باريس وهناك حفلة كبيرة في مكان ما، والقطار الأخير ليونفيل يغادر في الثانية عشرة والربع. إذا لم

آخذ هذا القطار وأصل إلى القاعدة في السادسة صباحاً، فسأُعتبر رسميّاً متغيباً دون إذن. قد يغطي زميلي عليّ لمدة، ولكن قد يحدث شيء في غيابي فيحضر ضابط من المقرّ الرئيسيّ في تول للتفتيش، ويكتشف غيابي.

قضيتُ المساء أراقب ساعتي. كأن الوقت يطير. في الحادية عشرة كنتُ أتحدث مع فتاة جميلة بدت مهتمة بي. أمامها كل الوقت، بينما أنا أسأل نفسي هل أذهب إلى القطار أم لا، لكني لا أقرر. انسحبتُ في اللحظة الأخيرة. كنتُ الشخص الذي يجري على الرصيف الخالي بينما قاطع التذاكر يساعده ليقفز في القطار وهو يتحرك.

سافرتُ هذه المرة في الدرجة الثانية، في عربة مزدحمة بالجنود الفرنسيين الذين يشخّرون وتفوح منهم رائحة النبيذ. حاولتُ أن أنام مثلهم، لكنني واصلتُ التفكير في الحفلة وفي البنت. فكرتُ أنه كان يجب أن أبقى. مرة ذهبتُ لباريس وتغيّبتُ بدون إذن ـــ ليس من أجل بنت بل بسبب حفلة موسيقى كنسيّة سوداء. حدث ذلك أثناء فترة خدمتي في تول. عندما ذهبتُ لأستلم إذن المرور في ظهيرة السبت، اكتشفتُ أنه قد تم سحبه. لم يكن سريري مرتباً كما يجب أثناء التفتيش الصباحيّ، فعاقبوني. كنتُ قررتُ أن أذهب في كل الأحوال وليذهبوا إلى الجحيم. توقعتُ أن لا أحد سيبحث عني، وأن أصحابي على البوّابة لن يسألوني أية أسئلة. كان مساء رائعاً. لكنني أصبحتُ متوتراً وأنا عائد

في قطار منتصف الليل ولم أنم لحظة. جافاني النوم طوال رحلة العودة بسبب لوعة الحب والخوف من أن أنام فتفوتني المحطة.

أوشكتُ على أن أتجمّد. كنتُ قد غادرتُ القطار في محطة سانِ كليمنت، وأخذت قطاراً متجهاً إلى لونفيل، ثم بدأت أمشي من محطة لونفيل في اتجاه القاعدة. المسافة عبارة عن ثلاثة أو أربعة أميال في طريق يتصاعد إلى أعلى تلّ، الجو كان بارداً جداً، والرياح مثل الكرباج. كنتُ أرتدي معطف مطر، وجاكيت رياضيّ ولكن بدون سُترة ثقيلة تحته. كما أرتدي جورباً إيطاليّاً خفيفاً. بعد مدة، بدأتُ أفقد شعوري بقدميّ. كنتُ كأنني أمشي على الهواء. قلتُ لنفسي "امش بسرعة". كلّما ارتفع التلّ كلما ازدادت ضربات الرياح. أستطيع أن أحسّ بكل ضلع، وبكل عظمة في جسدي، ثم بدأتُ أفقد قدرتي على المشي. جزءٌ مني يريد أن يجلس ويرتاح، وجزء آخر يدرك خطورة ذلك. ثم رأيتُ بوابات القاعدة والحارس البولندي الذي جرى في اتجاهي ليرى مَن هذا الآتي على الأقدام مبكراً. عندما رأى حالتي هرول عائداً إلى كشك الحراسة ليُحضر القِربة، بولنديّ حكيم، في القِربة فودكا. أخذتُ رشفة كبيرة ثم أخرى وأنا ما زلتُ في الطريق. قادني من يدي إلى دفء الكشك، وواصلت تناول الفودكا. بدا الرجل العجوز سعيداً لأنه يستطيع المساعدة، واستمرّ في تشجيعي على أن أشرب المزيد. لم أسكر. أخيراً مشيتُ بقيّة المسافة، وجدت الجميع في ثكنتنا نائماً، وذهبت للنوم على الفور.

تم استدعاؤنا إلى الثكنة الرئيسيّة في تلك الظهيرة، وكان ذلك غريباً. من النادر أن يهاتفونا، حتى في الليل عندما يصبح الجميع سكارى ومتورطين في مشاجرات، عادة يفضّونها بأنفسهم، وهذا جيد بالنسبة لنا. رأيتُ مرة شرطيين عسكريين وقد تم ضربهما بعنف في تول في مواقف كهذه. يحتاج الأمر خبرة كبيرة وحظاً حتى تخرج من فضّ مشاجرة سليماً. مرة قال لي رقيب عجوز "تصرّف بسرعة، اهجم على المعتدي واضربه. لا تقف هناك لتناقش قوانين الجيش مع سكارى".

لكن الأمر مختلف هذه المرة. عندما وصل ماك وإدوارد، كان هناك رقيبان وضابط منتظرين والحرج يبدو عليهم. أحضروا شاباً أسود قصيرًا خجولا وطلبوا منا أن نأخذه إلى الحجز القضائيّ. كما سيتضح ـ وسيأخذ الأمر وقتاً حتى نفهم ما حدث ـ فقد تم ضبطه وهو يمصّ عضو عرّيف بينما الأخير يأخذ قيلولته بعد الغداء. قصة مريبة. كأن من الممكن أن يسقط عضو العرّيف خارج ملابسه الداخليّة، ولا يستيقظ بينما المتهم يمصّه له. إنهم يريدون إبعاد الرجل عنهم حتى يرتبوا طريقة لإرساله إلى وحدته في ألمانيا. إنهم خائفون من انتقام الغوغاء منه.

حكى لنا ماك كل ذلك بينما نحن جالسون في ثكنتنا نشرب القهوة وندرس المتهم الذي وقف أمامنا تعيساً.

صرخ بريجز فيه: "هل حدث هذا حقاً يا ويلي؟". لكن ويلي المسكين اكتفى بتنكيس رأسه ولم يقل شيئاً.

بقي ويلي معنا أربعة أيام، واعتدنا على وجوده. عندما عدتُ مع بريجز الليلة الماضية من الدوريّة، وجدناه يلعب البوكر مع ماك وويليامز وإدوارد.

قال ويليامز لنا: "مصّاص القضيب أخذ كل أموالنا"، ويلي نفسه ابتسم.

أراد ويليامز أن يأخذ ويلي إلى بيت دعارة حتى ينصلح حاله. جعله يجلس لساعات على المكتب يتفرّج على مجلات بورنو فيها بنات اسكندنافيّات حتى يصبح جاهزاً. كان يطمئن عليه من وقت لآخر "هل تحب هذا يا ويلي؟"، مشيراً إلى عضو تناسليّ مشعِرٍ بينما يدرس ردّ فعل ويلي في عينيه.

ويلي نحيف، يبدو كولد نيويوركيّ حسّاس. عنده فلوت، ويعزف عليه بشكل رائع عندما نتركه وحده. سألته مرة: "هل هذه المقطوعة ليوهان باخ؟"، هزّ رأسه بحزن.

يأمره بريجز أن يشتغل. ويلي يكنس، ويغسل الأطباق، ويُلمّع الحمّام. لم يكن سكننا بهذه النظافة قط. سنفتقده عندما يأخذونه من هنا. نقول ونكرّر لويلي أنه سيتم تسريحه لأسباب طبيّة، ولكنه لم يبدُ سعيداً لذلك، إنه خائف للغاية من والده.

اعترف لنا أنه ظنّ عندما جاء أننا سنقوم بضربه. شرحتُ له أننا لا نضرب أحداً لأن هناك إجراءات عديدة إذا تسبَبنا في إصابات. ما زال

الآخرون ينادونه "مصّاص القضيب"، لكن انطباعي كان أنه يجب أن يبقى معنا. أعلن ويليامز "حتى ويلي يُدرك كم نحن محظوظون وكم أن الحياة سهلة بالنسبة لنا"، وافقناه جميعاً على ذلك.

أخذوا ويلي المسكين. في تلك الليلة كان الثلج يتساقط بكثافة والطرق في حالة سيئة. ذهبتُ مع ماك إلى دوريّة في لونفيل، لم يكن هناك جنود أمريكيون في البلدة. قمنا بالجولة المعتادة في الحانات الرثّة، حيث كل العاهرات معروفات. كان يمكن أن تكون ليلة رائعة بالاستماع إلى الأغاني الفرنسيّة من جهاز الموسيقى القديم، لكن الجهاز كان محجوزاً لأغاني البوب الأمريكيّة ومقلديها من المغنيين الفرنسيين. لندرة الزبائن دعانا صاحب الحانة إلى كأس، قبلنا، كونياك جيد، ليس من ذلك النوع الرديء الذي يبيعونه للجنود البلهاء.عزمتْ علينا القوادة ببعض الفتيات بمناسبة موسم الأعياد ولكننا رفضنا. بدت عاهراتها وكأنهن يمارسن الصنعة منذ مرور الجنرال باتون في ١٩٤٤. أضحكهن رفضنا لهن، أصدرْن أصوات مصّ من شفاههن، وقمْن برفع ملابسهن حتى ظهرت أعضاؤهن التناسليّة. إنهن ينظرن إلينا باحترام منذ فضضنا لهن مشاجرة دمويّة منذ أسبوعين. يعرفن أنهن يستطعن أن يهاتفننا إذا تمادى بعض الجنود في البذاءة. إننا نأتي ونمسك المعتدي من قفاه.

لم يزل الثلج يتساقط بقوة؛ كانت عربتنا الجيب تنزلق على الطريق. وقفنا مرة أخيرة، في مقهى دي لاِ جير. لم يكن هناك أحد

سوى صاحبها وسائقيّ تاكسي ينتظران قطار باريس الذي تأخّر. هنا أيضاً، الجميع مسرورون لرؤيتنا. فكرتُ أنهم يدعوننا للشراب بسبب ماك. عند الفرنسيين غرام بالأمريكيين السود، خاصة عندما يتمتعون بالطول والوسامة مثل ماك. هم يظنون أن السود الفرنسيين تنقصهم الوسامة، لكن عندما يأتي الأمر لماك، تمتليء عيونهم بالإعجاب.

أرادوا أن يعرفوا إذا كان الجو سيئاً في بلادنا. قلنا لهم إنه أسوأ عشر مرات من هنا. ذلك أسعدهم. ثم تحوّل الحديث إلى موضوع سوء تصرّفات الجنود الأمريكيين في الأماكن العامة. إنهم يثيرون المشاكل، وافقنا: بعضهم بلهاء. أسعدهم أن يسمعونا نقول ذلك. قلّدنا الجنود البلهاء بوجوهنا، وقلدوهم بوجوههم ليشرحوا وجهة نظرهم. من المؤكد أن العالم مليء بالبلهاء.

في السبعة أشهر التي قضيتها في تول ولونفيل، كان من المستحيل أن أقابل فتيات في مثل عمري. أتكلم مع رجال الشرطة، العاهرات، أصحاب المقاهي، الجرسونات، وأناس من هذا القبيل، هذا كل ما هنالك. إذا حدث وقابلت إحداهن وبدأت الكلام معها، فإنها تُجيبني بإيجاز، بأدب، بارتياب، أصبح عندي انطباع أن أهلهن يحذّروهنّ: إذا رأيتك تتحدثين مع أمريكيّ، فسأقتلك. لا يجب لومهم على هذا أبداً.

مرة في نانسي جاءت أسرة إلى مقرّ وسط المدينة ـ الأب والأم وابنتهما المراهقة ببطنها المنتفخة ـ انتظروا ليعرفوا كيف يعثرون على

عرّيف ما. قمنا ببعض المكالمات ووجدنا أنه قد تمّ تسريحه من الجيش، وأنه الآن يعيش في مكان ما في أورجان. نكّس ثلاثتهم رؤوسهم ووقفوا هناك مدة طويلة، لا يعرفون ماذا عليهم أن يقولوا أو يفعلوا. لم تكن عندهم أدنى فكرة أين تقع هذه الأورجان. في النهاية، انصرفوا دون أن ينظروا نحونا.

جاءنا قائد جديد للقاعدة. اقتحم مقرنا دون سابق إنذار بينما لا نزال متكاسلين في أسرّتنا. كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ظهراً، جحظت عيناه عندما رأى الفوضى. لأن سريري هو الأقرب للباب، فقد بدأ بتعنيفي أولاً. واصل الصراخ وهو يزيح بقدميه الملابس القذرة على الأرضية "هل تحسب نفسك السيدة الأولى؟". أنا لا أعلّق أيّاً من ملابسي، ولا أحد يقوم بذلك. في خزانتي، حيث تنصّ التعليمات أن أضع غطاء رأسي على الرفّ، وجد زجاجات النبيذ. الآخرون يضعون زجاجات البيرة. الخلاصة أنه سيعود خلال ثلاث ساعات، وأن المكان سيكون نظيفاً لدرجة أن تلحس الطعام من الأرض، أو سنكون في مشكلة كبيرة.

حسن، لم نهزّ طولنا لنقوم بذلك، حشرنا معظم أشيائنا في أكياس الغسيل وأخفيناها في عربات الجيب في الخارج. عندما عاد، لم يجد إلا أشياء معدودة ومعروضة بنظام في خزائننا. كان يمكنك أن ترى حيرته، لكنه لم يجد ما يقوله لحظتها. بالإضافة لذلك، كان هناك ما يستحق

المناقشة مثل موضوع القانون والالتزام. بالغْنا في عرْض مشاكلنا عليه ــ حوادث الطعن بالسكاكين، الكثير من المثليين الجنسيين حولنا، وغيره. بدأنا نهدأ قليلاً في الحديث مع الكولونيل العجوز. فجأة، أطلق صرخة ذعر. ظننا أن الروس على الباب ونظرنا في اتجاه إشارته، لكن لم يكن هناك شيء، فقط ويليامز يشرب من صنبور المياه.

صرخ الكولونيل: "إنه يشرب المياه الفرنسيّة!"

وما الغريب في هذا؟ نحن نشرب المياه الفرنسيّة طوال الوقت، وطعمها لذيذ جداً. هل تريد كوباً من الماء؟

لم يستطع أن يصدّق أذنيه! الجيش الأمريكيّ عن بكرة أبيه مهدّدٌ بأن يفقد أهليّته! يا للاستهتار! سيقوم الشيوعيون أخيراً بهجومهم المفاجئ بادئين حرباً عالميّة ثالثة، بينما الجيش الأمريكيّ في المرحاض يتغوّط! قرر الكولونيل أن يضع نهاية لكل ذلك على الفور.

ذهب إلى التليفون، أعلن حالة طوارئ قوميّة، وطلب من أحدهم أن يُحضر لنا مياهاً أمريكيّة. كان عليهم أن يُرسلوا شاحنة مُحمّلة بأفضل المياه الأمريكيّة، وأن يتركوها في الجراج على وجه التحديد لنستخدمها. في أي وقت نعطش يمكننا أن نذهب إلى هناك ونفتح سدّادة الصنبور. بهذه الطريقة سنكون آمنين، سيكون الجيش الأمريكيّ آمناً، وستكون الديمقراطيّة الغربيّة آمنة.

عندما انصرف الكولونيل نظرنا إلى بعضنا في ذهول. أنت تقابل الكثير من الضباط الأغبياء، ولكن هذا الرجل فاقهم جميعاً. قال ماك: انتبه، ما هذا الرجل وغيره إلا نتاج العته المتوفّر في الجيش.

وصلتْ شاحنة المياه الأمريكيّة. شرب كلٌّ منّا كوباً لمجرد أن نعرف إذا كان هناك فرق. لم يكن هناك أي فرق. إنها على الأرجح مياه فرنسيّة مرّرها أحدهم على أنها أمريكيّة. لابد أن هناك احتيالاً ما ـــ ولكن ذلك أفضل من تخيّل أنهم نقلوا المياه عبر الأطلنطي من نيوجيرسي.

جاء البولنديّون ليعرفوا رأينا في الكولونيل الجديد. قلنا لهم إنه معتوهٌ تماماً. أسعدهم ذلك. يبدو أنه شكا لقائدهم من أن حذاء أحدهم لم يكن لامعاً كما يجب. هؤلاء البولنديّون في الخمسين من أعمارهم، بدينون للغاية، سكّيرون، كان قد أرسلهم ستالين إلى سيبريا في ١٩٣٩ وأنقذهم الجنرال أندرز وقادهم عبر إيران ومصر إلى المعركة ضد إيطاليا في ١٩٤٤، والآن يريدهم كولونيل أمريكيّ أن يقضوا المساءات يبصقون على أحذيتهم من أجل تلميع حلقاتها المعدنيّة.

اشتريتُ كتاب مختارات من الشعر الفرنسيّ من مكتبة لونفيل. اندهشت العجوز سيئة المزاج التي تملك المكتبة من أن يختار جنديٌّ أمريكيّ كتاباً كهذا. نظرتْ إليّ متفحّصة وهي تعطيني بقية نقودي، مرتابة، ومتحيّرة. أسعدني ذلك. حاولتُ أن أبدو بمظهر غير المكترث بينما أمضي خارجاً ببطء وأصعد عربة الجيب:

بليز سُندرار كان شاعري المفضّل. يصفه الكتاب بأنه "الرحّالة العظيم"، ترك سُندرار دراسته في عمر السادسة عشرة "ليكتشف العالم". أحببتُ "عيد الفصح في نيويورك" و"نثر قطار عابر لسيبريا" التي قرأتُ فيها:

En ce temps-là j'étais en mon adolescence
J'avais à peine seize ans et je me souvenais déjà plus de mon enfance
J' étais à seize mille lieus du lieu de ma naissance.

وقتها كنتُ مراهقاً
بالكاد في السادسة عشرة، ولا أتذكّر شيئاً عن طفولتي
وستة عشر ألف فرسخ تبعدني عن مسقط رأسي.

قلتُ لنفسي: "إذا لم تنتبه يا سيميك، فسوف ترتدّ عن كونك حداثيّاً، وستصبح رومانسيّاً لا محالة".

هذا حقيقيّ. لقد أصابني نوع من السنتمنتاليّة. على سبيل المثال، أصبح عندي ضعف بالغ تجاه المغنيين الفرنسيين من فترة ما قبل الحرب: فِرهل، بياف، لوسين، ديليل، لوسين بوير. لقد جعلوني أتورّط في إحساس بالشفقة على الذات، جعلوني أريد أن أفرّ من الجنديّة، وأن أقضي ما تبقى من حياتي مختبئاً في بعض حانات مرسيليا، سيجارة في زاوية فمي، مستمعاً إلى أعمى يعزف الأكورديون. يمكنني أن أتخيل

دزينة حيوات محتملة، كل منها يكسر القلب أكثر من الأخريات. بينما أنا أستمع إلى هذه الأغاني، أردتُ أن أكون نادلاً في حانة، أن أقع في غرام عاهرة تدمن الكوكايين ولكن لها قلب من ذهب.

في نفس الوقت، أخبرني زملائي أن أمامي مستقبلاً رائعاً في الالتحاق بالشرطة. سيرحب بي قسم شرطة نيويورك بشدّة، هذا بفضل تدريبي وخبرتي المتميزة. سأعيش مثل ملك، آخذ الرشاوي من اليمين والشمال، ثم أتقاعد بعد عشرين عاماً وأعيش في فلوريدا.

لم يدركوا أنني أرى نفسي رجلاً محطماً كما في هذه الأغنيات الفرنسيّة التي أستمع إليها. أنني سأقضي ما تبقى من حياتي في أحد الفنادق الرثة في بلانش سليس، ماداً يدي لتصل إلى زجاجة النبيذ الرخيص أسفل سريري.

هاتفنا البوليس الفرنسيّ ليخبرنا أن جنديّاً صعد سطح محطة القطار محاولاً أن يضبط مؤشر الساعة الكبيرة. ذهبنا لنرى، كان عليهم أن يحضروا عربة مطافئ بسلالم لسحبه. كان لا يزال سكران، ولكننا سألناه على أي حال لماذا قام بذلك. أجابنا: الوقت في ساعة المحطة كان متقدّماً خمس دقائق.

مكالمة أخرى من الفرنسيين، هذه المرة من رجال الشرطة الاتحاديّة: يبدو أن أمريكيّاً هارباً من الجنديّة منذ وقت طويل قد وُجد متحصناً في غرفة فندق في بلدة إبينال. فحصنا ملفاتنا، وجدنا اسمه،

واكتشفنا أنه معروف أيضاً بخطورته. هذا ما قلناه لهم عندما ذهبنا لمقابلتهم. بدت عليهم السعادة لهذه الأخبار. صرخوا "بوم، بوم"، غامزين بأعينهم ومبتسمين لنا. كانت الخطة هي أن نصل إلى الفندق في الفجر، وأن نقتحم غرفته ببنادقنا المشرعة عندما يكون نائماً نوماً عميقاً.

وصلنا في المساء إلى إبينال، أخذنا وقتنا في تناول العشاء مع رجال الشرطة الفرنسيين، ثم ذهبنا إلى مبنى الشرطة لننتظر الفجر. ليلة طويلة لقصص الرقيب بريجز عن الجيش والشرطة، حيث قابلها الفرنسيون بقصص مثلها من عندهم، وكان عليّ أن أترجم كل ذلك.

كنا اثنين وكانوا أربعة. تجاوز الوقت الرابعة صباحاً. جهّز الفرنسيّون مسدساتهم. هذا جعلني منتبهاً تماماً. بوسعي تخيّل معركة بالمسدسات ورصاصة طائشة تصيبني. فكرة أن أطلق الرصاص بنفسي أرعبتني أيضاً. ماذا لو قتلتُ أحدهم؟ في المرات السابقة التي جذبتُ فيها مسدسي، كنت أطلق النار في الهواء. كان عندي اختيار؛ كان ذلك مختلفاً.

وجدنا صاحب الفندق وزوجته في انتظارنا. كانا على عِلم بهدفنا. ينام الهارب في غرفته في الطابق الثاني. خلعنا أحذيتنا، جهّزنا مسدساتنا، وصعدنا السلالم واحدة بعد الأخرى، وصاحب الفندق الخائف خلفنا مباشرة. توقفنا عند نقطة في الطابق الثاني. صمت تام. شتاء. ثلج في الخارج.

تحرّكنا مرة أخرى، أخذنا وقتاً طويلاً لنصل إلى باب الغرفة ١٧. أحد الفرنسيين كان سيركل الباب، وكنا جميعاً رافعين أسلحتنا. السرير، كما أخبرونا، في منتصف الغرفة في مواجهة الباب.

يا إلهي! كل هذا الضجيج في اقتحامهم، بينما أنا أتلكّأ خلفهم! في لحظة كانت هناك خمسة مسدسات مصوّبة إلى رأس الرجل في السرير. ظننتُ أن عينيه ستخرجان من محجريهما. تجمدنا كلنا لدقيقة أو اثنتين، ثم شدّه بريجز من شعره، جرّه من السرير، رماه في مواجهة الحائط، رفس رجليْه فاصلاً بينهما، وبدأوا في تفتيشه. بدا ذلك عبثيّاً بالنسبة لي؛ المسكين لم يكن عليه إلا ملابسه الداخلية. لا يوجد مكان لتخبئة الأسلحة. بالإضافة لذلك، فقد بدا غير مؤذٍ على الإطلاق. إنه طويل ونحيف وكأنه يتضوّر جوعاً. مع ذلك فقد أُعجب الفرنسيون بتعامل بريجز العنيف. صاحوا بسعادة بينما يلكز أحدهم الآخر "في الجون".

حسن، تبيّن أن الرجل لم يكن معه حتى مبرد أظافر. لا يشكل أي خطورة. كان طباخاً في إحدى القواعد العسكريّة في ألمانيا. مهووس دينيّ. حكي لنا في الطريق إلى نانسي أنه تكلم مع الله فقط ليلة أمس. ظن بريجز أن هذا تمثيلٌ. لم يكن عندي رأي. لا يمكن أن يكون بريئاً إلى هذه الدرجة إذا كان قد وصل إلى إبينال.

قال بريجز: "فليذهبوا جميعاً للجحيم"، وأومأنا جميعاً موافقين. ليس عندنا طريقة لنفهم لماذا يتصرّف الناس هكذا؛ نحن لسنا أطباء

نفسيين ولا قساوسة نتلقى الاعترافات. فكرتنا عن السعادة هي: ألا يحدث شيء. ما يظنه الآخرون سأماً تامّاً، نعتبره نحن نعيماً. يحدث لنا ذلك، أحياناً، تمضي ثلاثة أيام بدون مكالمة واحدة. يُحسن الجميع التصرّف لأن الطقس رديء. ليت الطقس يظل هكذا للأبد. عندي كتبي؛ عندي نبيذي والراديو.

خلال أسبوعين سأعود إلى وحدتي العسكريّة في تول. لن أستطيع أن أتأقلم أبداً مع روتين الجيش النظاميّ. من أجل أن يجعلوا حياتي تعيسة، يريدني الأوغاد هناك أن أقوم بتنظيم المرور أمام البوابة الرئيسية بمجرد وصولي. سوف أرتدي قفازات بيضاء ومطلوب مني أن أؤدي التحية العسكريّة لكل ضابط يمرّ بسيارته، وأن أكون نموذجاً للسلوك والاتقان العسكريّ على كل المستويات.

في مرة، صبيحة ليلة سُكر، لم أنتبه لمرور الجنرال - في الحقيقة رأيته ولكن بعد فوات الأوان - ولم أقُم بتأدية التحية له. خرج من سيارته ومسح بكرامتي الأرض، بينما توقف المرور، وجلس كل واحد في سيارته يتسلّى بالفُرجة عليّ. بعدها، صرخ ضابط الخدمة فيّ لمدة نصف ساعة عندما عرف ما حدث. وصاح فيّ قائد الفرقة أمام جميع أفرادها في اليوم التالي.

قال بريجز مرة أخرى: "فليذهب جميعهم إلى الجحيم"، ووافقناه جميعاً.

سيتزوج بريجز من نادلته، أرملة ضخمة، قوية، وعندها طفلان صغيران. ليست قبيحة. رغم ذلك، ما الذي ستفعله في مزرعة في ساوث داكوتا؟ ليس بينهما لغة مشتركة، لم يتعلم بريجز أكثر من كلمتين بالفرنسيّة، وليست إنجليزيتها بأفضل حالاً.

من ناحية أخرى، فهي تعيش في قرية حقيرة. ماك هو الوحيد الذي يحب الريف من حولنا: إنه يريد أن يظل في أوربا بعد إعفائه من الخدمة، وأن يسافر، ويعمل، ثم يعود إلى فرنسا، ويشتري بمدخراته مقهى صغيرًا في آخر المطاف.

أقول لهم: "سأقضي بقية حياتي أزوركم يا شباب". سأذهب لأرى ويليامز وبيت دعارته في لوس أنجلوس، أطمئن على بريجز في مزرعته، أزور إدوارد في مؤخرة العالم بساوث كارولينا، وماك بنفسه سيقدّم لي البيرنو المسكّر عندما أتوقف في مقهاه في سان كليمنت. أعجبتهم الفكرة، وقضينا بقية السهرة نتخيّل هذه الزيارات، ونحن نعرف منذ البداية أننا لن نرى بعضنا مرة أخرى عندما نترك هذه القاعدة العسكريّة.

لا يذهب إدوارد بمفرده إلى أي مكان. هو لا يفهم لماذا نقوم بذلك. يريد أن يعرف "ماذا يعجبكم في باريس؟". نحدثه عن جمال المدينة، العاهرات الجميلات في معاطف الفرو، الملاهي وما فيها من رقص وعُري. "لا يهم!". إنه تبديد للنقود من وجهة نظره.

هو لم يذهب لأي مكان في أمريكا أيضاً. نريد أن نأخذه لعشاء الوداع في مطعم راق في لونفيل، ولكنه مرتاب في الطعام الفرنسيّ. يقول له ماك: "إنه أفضل من الخراء الذي تأكله في أمريكا". هو لا يصدق ذلك ولو للحظة. الفرنسيون الذين يراهم في القاعدة لا يملأون عينه، إنهم فلاحون مساكين من القرى المجاورة. نصف ملابسهم أسمال ونصفها الآخر ملابس جيشنا، يبدون كمتشردين. عندما يبتسمون، هناك سنتان مفقودتان على الأقل. أما بالنسبة للهجتهم، فحتى أنا لا أفهمها على الإطلاق. إنهم يأخذون معهم كل ما يمكن أن يمروا به من حرّاس البوابة، ولكن لا أحد يهتم. من وقت لآخر نفاجئهم ونوقفهم ونفتشهم، نجعلهم يتجردون من ملابسهم، نجمع أكواماً من ملابس الجيش، معدّات، أدوات، أسلاك، ملاعق، شوَك، كل شيء ما عدا المدرّعات! يقفون هناك يرتجفون في البرد، معتقدين أنهم سيفقدون وظائفهم، يقسمون بكل ما هو مقدّس أنهم لا يعرفون كيف وصلت هذه الأشياء إلى جيوبهم. نقول لهم لا توجد مشكلة! لا تقلقوا، أونكل سام كريم، اطمئنوا. لا يصدقون آذانهم. تظل أفواههم مفتوحة من الدهشة. ثم الهياج! السعادة! يريدون أن يحضنوك ويقبلوك، وأن يدعوك لوجبة في بيوتهم.

على كل حال، هؤلاء هم الفرنسيّون الذين يعرفهم إدوارد. أخذنا الأمر يوماً كاملاً لنقنعه أنه يجب أن يأتي معنا للمطعم في لونفيل. ظل

يشكو ويغيّر رأيه، في النهاية صرخ بريجز فيه "إنه أمر". قال ماك "إدوارد لا يريد أن يظهر مع زنجيّ في مكان عام"، قد يكون ذلك صحيحاً!

أيّاً كان الأمر، جررْنا الريفيّ الكاروليْنيّ الأخرق إلى أفضل مطعم في البلدة، وشرعنا في طلب وجبة راقية كبيرة. كنا حذرين مع إدوارد بطبيعة الحال: لحم وبطاطس فقط للفلاح الجلف. لكن قبل ذلك، عليه أن يجرب سمك السلمون المدخّن. مرة أخرى، صدر أمر عسكريّ مباشر من رئيسه.

أخذ إدوارد لقيمات صغيرة جداً، مضغها طويلاً، ثم في النهاية سمح لنفسه بأن يبتسم. لقد أعجبه مذاقها! صحنا في النادلة: نريد أفضل سمك مدخَّن عندك لإدوارد الفريد. اعترف بعد ذلك أنه أحب البطاطس المحمّرة. أفضل بطاطس أكلها في حياته! واللحم كان لذيذاً أيضاً!

الآن حان وقت الجزء الأصعب. علينا أن نجعله يرشف النبيذ الأحمر. لم يسمع عنه من قبل. إن ذلك ضد معتقداته الدينيّة. قال ماك: "إدوارد يظن أنهم كانوا يشربون البيبسي في العشاء الأخير".

مع ذلك جاءتني فكرة. لاحظتُ أن إدوارد يرمق النادلة الجميلة، وأنها تبادله النظرات. سأطلب منها أن تدعوه ليجرب النبيذ. قلت لها هذا بالفرنسيّة حتى لا يفهم. ذهبتْ عنده، صبّت النبيذ في كأسه، وبأكثر الابتسامات إغراء، قالت له إن هذا النبيذ "خاصّ جداً"، وأنه

سيسعدها أن يجرّبه من أجلها. جلس إدوارد هناك وهو يدير الأمر في رأسه ووجهه يحمرّ خجلاً. ثم فجأة، رفع كأسه، بينما نحن جميعاً نرقبه بلهفة، وأخذ رشفة حذرة. هتفنا: هذه معجزة! قال: "إنه جيّد"، وأخذ رشفة أكبر. فرحنا وقبلنا بعضنا البعض ثملين. شرحتُ لهم أن المعجزة حدثت لأننا قريبون من مسقط رأس جان دارك، هذه المنطقة، كما تعلمون، مسكونة بالمعجزات.

٢٢

لا يوجد تعارض بين الحزن والطعام الجيّد. عرف الحكماء القدماء أن النبيذ يفك عقدة اللسان، لكن قد تزداد كآبة المرء بعد تناوله أفضل زجاجة نبيذ، خاصة عندما يكبر في السن. مع ذلك، الطعام يجلب السعادة. طبق البايلا الأسبانيّ، الكرنب المخلل، الكرشة المطبوخة على طريقة نورماندي، وأطباق كثيرة أخرى من الوصفات الفلاحيّة كفيلة بإشاعة الفرح. تنطلق أفضل الأحاديث حول مائدة الطعام، يرافقها الشّعر والحكمة. الملهمون الحقيقيّون هم الطباخون. لا تبتعد القطط والكلاب كثيراً عن المطبخ الشغّال. الجنة هي حساء تشيلي يغلي على الموقد. إذا كتبتُ عن أسعد أيام حياتي، سيكون معظمها عن الطعام والنبيذ ومائدة محاطة بالأصدقاء.

لم يكتب هوميروس أبداً بمعدة خاوية.

رابيليه

يمكن للمرء أن يكتب سيرته الذاتيّة عبر وصف كل وجبة استمتع بها في حياته، وستكون قراءتها أكثر متعة مما نقرأه عادة. بصدق، ما الذي تفضله، وصف أول قبلة أم الكرنب المطبوخ بإتقان؟

عليّ أن أعترف، أنا أتذكّر ما أكلته بشكل أفضل من تذكّري لما فكّرت فيه. أتذكّر بقوة وبشكل خاص بعض الأيام البعيدة من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٩ في يوغوسلافيا، أيام كنا لا نجد ما نأكله. ازدهرت السوق السوداء. قايضت النساء خواتم زواجهن وملابسهن الحريريّة الداخليّة بلحم الخنزير. من حين لآخر كنّا نحظى بدعوة إلى وليمة إجراميّة بينما الآخرون يتضورون جوعاً.

سأبدأ باليوم الذي اكتشفتُ فيه أن الطعام أجمل من مجرد أن تملأ به معدتك. كنتُ في التاسعة من عمري. أكلتُ بوريك دوبروساف سيفيكوفيتش، وما زال باستطاعتي أن أراه وأستطعم مذاقه عندما أُغلق عينيّ.

البوريك هو نوع من الفطير معمول من الرّقاق ومحشوّ باللحم المفروم، أو الجبن، أو السبانخ. معروف في كل مكان من الشرق الأوسط والبلقان. إنه مثل البيتزا اليوم، جيدٌ بصرف النظر من أين أحضرته، ولكنه يمكن أن يصبح أيضاً عملاً فنيّاً. قال والدي إنه عندما تقاعد دوبروساف من مخبزه في بلدة سكوبييه، أرسل العمدة والمقربين منه الشرطة لتحضره بعد أن لاحظوا غيابه. أحضرته الشرطة والقيود في

يديه! قالوا له عندما زاروه في السجن: "يا دوبروساف، كيف تفعل هذا بنا؟ على الأقل حضّر لنا البوريك ولو مرة أخيرة، وبعدها يمكنك أن تذهب أينما يريد قلبك".

لقد أكلتُ هذا البوريك الشهير منذ أربعة وأربعين عاماً في يوم شتائيّ بارد بينما الثلج يتساقط. كان دوبروساف يَطبخه وقتها بشكل سريّ في بيته، ويبيعه لزبائن مُنتقين ممن يطرقون بابه سرّاً وكأنهم جواسيس أجانب. استضافني دوبروساف في ذلك اليوم ـ من أجل خاطر والدي المسكين المنفيّ الذي كان لطيفاً دوماً معه ـ وجاء البوريك باللحم. أكلتُ كل فتفوتة سقطت من فمي على الطاولة، بينما هو يتفحصني مثلما يتفحص قطٌّ طائراً في القفص. أراد رأيي. أدركتُ أن ذلك البوريك لم يكن كغيره. لقد امتلك دوبروساف السرّ الذي لم يعرفه طباخو البوريك الآخرون. أظن أنني قلتُ له ذلك، وهذا كان أول تعبيراتي العاطفيّة لطبّاخ.

أيضاً، كانت هناك عمتي إيفانكا بايالوفيتش. كلما أنهيتُ ما في طبقي وتركته نظيفاً تهزّ رأسها في حزن. تقول لي: "يوماً ما، سأطبخ من الطعام ما لن يكون باستطاعتك أن تأكله كله". بدا ذلك مستحيلاً إذا أخذنا في الاعتبار شهيّتي في تلك الأيام، ولكنها نجحت في إثباته! وجدتْ وعاء طبخ ضخماً مما يُستخدم لإعداد الحساء وملأته كما قال الجيران "بما يكفي لإطعام جيش" من الفاصوليا.

كل صربيّ، على اختلاف الأعمار والأنواع، عنده نظريّة عن كيفية إعداد هذا الطبق. بعض الصربيين يفضله سميكاً، وبعضهم مائيّاً. وبين النقيضين هناك الكثير من الفروق الدقيقة. تقريباً يُضيف الجميع لحم الخنزير المقدّد، ضلوع الخنزير، النقانق، بابريكا، والفلفل الحار. خالتي التي تعلّمت في لندن وتتحدث الإنجليزية بلهجة بريطانية إلى اليوم، طبخت الفاصوليا على طريقة زوجة حفّار الخنادق. الفاصوليا كانت حارّة للغاية.

زوج عمتي هذه كان من عجائب الطبيعة. يحسده الجميع لأنه نحيف، وباستطاعته أن يأكل طوال النهار دون أن يزيد وزنه. يحزنني أن أعترف أنني لا أعرف كم من الطعام أكلنا في ذلك اليوم. ما بين ثلاثة إلى خمسة أطباق ممتلئة يمكن أن يكون تخميناً معقولاً. تلك كانت أطباق حساء أوربيّة، لطيفة وكبيرة، تتسع لكميات من الفاصوليا. أكلنا في الفراندة الكبيرة، في تلك الظهيرة الصيفيّة، بينما واصل الجيران الفُرجة علينا وهم يعدّون الأطباق. في لحظة ما، أتذكّر، انزلقت من مقعدي إلى الأرضيّة.

ظننتُ أنني أموت. لا يزال زوج عمتي يملأ ملعقته ببراعة بينما وجهه غاطس في طبقه. حلّ ذلك النوع من الخمود. في البداية، كان الجميع يتكلمون ويمزحون، لكن خالتي أصابها الإرهاق وذهبت لتستريح. هناك الكثير من الفاصوليا، لكني شبعتُ تماماً. لم أستطع أن أتحرّك. أخيراً، ذهب زوج عمتي مترنحاً إلى السرير، وأصبحتُ وحدي،

جالساً تحت المائدة، الحرّ فظيع، الشمس قويّة، رأسي مشوّشة، أفكر أن هذا بالضبط ما يشعر به الخنزير.

في ٩ مايو ١٩٥٠، طلبتُ من أقاربي أن يعطوني نقوداً بدلاً من هدايا عيد ميلادي. عندما أعطوني إياها، قضيتُ اليوم كله مع صديق ننتقل من مخبز لآخر. أكلنا كمية رهيبة من كيك الكريم، لفائف الكاسترد، كيك دوبوس، كُرات الروم، البشنجر، فطيرة الفواكه ببذور الخشخاش، وبعض مخبوزات فيينا والمجر. بحلول الغسق كنا قد أنفقنا نقودنا. كنا نجرّ أنفسنا في منطقة محطة قطار بلجراد عندما لحق بنا رجلٌ يلهث حاملاً حقيبة ضخمة. سألنا إذا كان باستطاعتنا أن نحمل عنه الحقيبة إلى المحطة، ووافقنا. كانت الحقيبة ثقيلة للغاية، وتُحدث ضجة كأنها مليئة بآنية فضيّة أو معدّات معدنيّة، ولكننا نجحنا بشكل ما في أن نصل بها إلى قطاره. فاجأنا الرجل بكرمه وأعطانا مقابلاً لما قمنا به. في أقل من دقيقة قررنا العودة إلى مخبزنا المفضّل الذي يُغلق في مثل هذه الساعة، نظر إلينا العامل بتوجّس ونحن نطلب مزيداً من الكيك والآيس كريم.

قضيتُ صيف ١٩٥١ كله في قرية على الساحل الأدرياتيكي. في الحقيقة، البيت الذي سكنتُ إحدى غرفه مع أمي وأخي كان يُعتبر بعيداً عن القرية، ويقع على امتداد شاطئ رمليّ. صاحبة البيت، أرملة جندي مات في الحرب، كانت طباخة ماهرة. تناولتُ في بيتها الحبّار للمرة

الأولى، كما بدأ عشقي الذي امتدّ طوال حياتي للزيتون. طريقة إعدادها للسمك على أنواعه كانت تعتمد على شوائه مع إضافة القليل من زيت الزيتون، الثوم، والبقدونس. ما زلتُ أفضل هذه الطريقة إلى اليوم.

طبقي المفضّل كان نوعاً من الأسماك الصغيرة يُسمّى جيريس، يُقلى في دقيق الذرة. نأكله بأصابعنا كاملاً، برأسه وذيله. لم نكن نسبح بعد الغداء، واعتاد النزلاء أن يأخذوا قيلولة طويلة. أتذكّر غرفتنا وهواءها المنعش، الملاءات النظيفة، صوت الأمواج، رائحة ومذاق السمك الذي تناولناه، والقيلولة الطويلة المليئة بالأحلام الشبقيّة.

انشغلتُ بامرأتين في هذا المكان. واحدة كانت ممثلة مسرح من زغرب وتقيم في الغرفة المقابلة لغرفتنا، اعتادت أن تأخذ حمامات شمس بالبكيني، وأن تخلع نصفه الأعلى عندما يكون الشاطئ خالياً. كنتُ أختبئ خلف الشجيرات لأتأملها. الأخرى كانت ابنة صاحبة البيت، في السادسة عشرة من عمرها. كنتُ أرافقها كظلها. لابد أنها كانت ضجِرة بما يكفي لتتخذ من ولد في الثالثة عشرة نديماً لها. اعتدنا أن نسبح إلى صخرة في الخليج حيث يوجد العنب البريّ. نسترخي آخذين حمّام شمس ونحن نمضغ العنب الأزرق الصغير ببطء. وفي المساء، مرة أو مرتين، كانت هناك قبلة تتلوها وجبة رائعة من فواكه البحر.

ذلك الذي يشرب حساءه

لن ينام لحظة عندما يموت.

أغنية فرنسيّة قديمة

التحقتُ في باريس بما لا يمكن وصفه إلا بمدرسة الفاشلين. مدرسة لتلاميذ لم يكتب لهم مستقبل زاهر في التعليم الفرنسيّ، بل في طريقهم لأن يصبحوا موظفين تافهين أو عمالاً في المتاجر. كنا نتناول الغداء في المدرسة، لم يكن طعاماً سيئاً، كما كنا نتناول النبيذ الأحمر أيضاً. يقدمون لنا حساء الخضروات يوم الثلاثاء، كأن مذاقه يأتي من عالم آخر. رأيت سيدة بدينة في المطبخ ولابد أنها كانت من الجنوب؛ الحساء كان له مذاق منطقة بروفنس. لسبب ما، لم يحب الأولاد الآخرين هذا الحساء، وبما أن قواعد المدرسة هي أن تُنهي كل ما في طبقك، ولأنني كنتُ أحبه، اعتاد جيراني حول المائدة أن يعطوني أطباقهم. ينتهي بي الأمر وقد تناولتُ ثلاثة أو أربعة أطباق من الحساء السميك الذي يتكون من الطماطم والفاصوليا الخضراء والصفراء والبطاطس والجزر والفاصوليا البيضاء والشعريّة والتوابل.

بعد هذا النوع من الأكل، عادة ما كنتُ أسقط في النوم في الفصل، فقط ليقوم أحد الأساتذة بإيقاظي بعنف ويأمرني بالذهاب إلى السبورة السوداء التي تكون قد امتلأت بالأرقام بالفعل. أقف هناك مشوشاً ونعساناً، ويتحول الوقت إلى الأبدية حيث لا يتحرك أحد، أو يقول كلمة.

منذ عدّة سنوات كنتُ في جنوة وجلست أتحدث في مطعم فخم في بلازو دوريا مع العمدة الشيوعيّ. عندما قلتُ له أنني أحب طعامكم

المحليّ، بادرني بالقول "وأنا أعشق الطعام الأمريكيّ". سألته عما يعني. قال: "أحب رقائق البطاطس". وافقته، رقائق البطاطس لذيذة بحق.

يخيّل لي أن هذا ما كنت آكله أنا وأخي عندما جئنا إلى الولايات المتحدة في ١٩٥٤. نجلس أمام التليفزيون، ونتناول رقائق البطاطس من أكياس كبيرة. سمح لنا والدانا بهذا. كنا نتعلم الإنجليزيّة ونتأمرك. من العجيب أن أسناننا ما زالت في فمِنا إلى اليوم. نذهب إلى سوبرماركت الحيّ مرتين في اليوم في جولة سياحية إلى سَقْط الطعام. هناك الكثير لنجرّبه، كنا شغوفين بكل شيء. هناك لحم الخنزير الحارّ، المارشميلو، اللحم المعلّب، مشروب هاواي المسكّر، تين نيوتن، عصير ف ٨، حلوى مونْدِس، فول سوداني بلانتر، والكثير غيرها. كلها لذيذة. كل شيء كان لذيذاً في أمريكا إلا شرائح خبز واندر الذي وجدناه مقرفاً.

أخذني الأمر عدة سنوات لأصبح عاقلاً. قابلتُ أنجلو في أحد الأيام. قال لي إن ما آكله خراء وأخذني إلى البيت حيث أمه. كان أنجلو وأخوته الثلاثة يعملون في وظائف جيدة، غير متزوجين، يعيشون في البيت، ويعطون والدتهم مرتباتهم. الأب ميّت، لذا لم يكن على الأم إلا أن تطعم هؤلاء الأولاد الأربعة. لم تكن تتوقف عن إعداد الطعام. كلّ وجبة مثل وليمة زفاف ريفيّ. بالطبع لم يكن أولادها يقدّرون ذلك في رأيها. يصيحون مثل جوقة كل مرة تحضر فيها طبقاً آخر يتصاعد منه البخار "هل أنت مجنونة يا ماما". السيدة العجوز لم تكن تحفل. أسعدها

في اليوم الذي زرتهم فيه أن يكون حول المائدة شخصٌ يُقدّر طعامها كما يجب، وأنا لم أبخل بالمديح.

أعدّتْ أطباقاً من جنوب إيطاليا. الكثير من زيت الزيتون والثوم. أتذكّر بوضوح شديد مكرونة لينجويني مع الأنشوجة ونبيذ صقليّة الأحمر. كانت تضع عدة زجاجات مفتوحة على المائدة قبل أن نبدأ الأكل. لم أر مثل ذلك من قبل. تخدعنا أن لا مزيد من الطعام هناك، فنتناول على الأقل طبقين مما أمامنا، ثم تُحضر بعض المقانق والفلفل وبعد ذلك المشويّات.

كنا نظل حول المائدة بعد تناول الطعام، نشرب ونستمع إلى التسجيلات القديمة لبنيامينو جيجلي وفيرتشيو تاجليافيني. تظل السيدة العجوز معنا، مشجعة إيانا أن نأخذ بعض الجُبن، القليل من الكعك. ثم، فقط عندما نظن أنها استسلمت وذهبت للنوم، تفاجئنا بإحضار طبق من التين الطازج.

لم يرفض والدي في حياته أن يتناول طبقاً آخر على المائدة. كانت لديه عادة معروفة بين الذوّاقة، كلما أكل أكثر كلما ازداد حديثه عن الطعام. تعجبت أمي كثيراً لذلك. بمجرد أن ننتهي من التهام ديك روميّ ضخم مشوي مع طبق الكرنب، يبدأ أبي بالحنين إلى طعام بسيط من المقانق كان قد تناوله في قرية على الحدود الرومانيّة في ١٩٢٩ أو حساء سمك طبخته امرأة عمياء في مرسيليا في ١٩٤٥. حسنٌ، لم تكن

عمياء تماماً، كما أنها كانت جميلة جداً ــ في كل الأحوال، بعد ثلاث أو أربع قصص مثل هذه، نكون قد جُعنا مرة أخرى. والدي كانت لديه نظرية، إذا كنتَ مثلاً تريد هوت دوج بعد وجبة في مطعم لوتسي الفرنسيّ الشهير، فهذا يعني أنك بصحّة عظيمة. إذا لم يأكل ضيفك ويشرب بعد ثلاث دقائق من وصوله لبيتك، فأنت لا تعرف الأصول. لم يكن يفهم الناس الذين لا يهتمون بالأكل. يسألهم أسئلة كثيرة كأنه متخصص في الأنثروبولوجيا، ويتركهم وهو حائر وقَلق. قال لي قُرب موته، إن أكبر خطأ اقترفه في حياته هو التزامه بنصائح طبيبه بالتقليل من الطعام والشراب بعد أن اجتاز الخامسة والسبعين، وإنه ظل تعيساً إلى أن عاد إلى طريقته القديمة في الأكل.

كنا مرة نتحدث ونحن نتمشّى في الجادّة الثانية. احتدّت المناقشة كما يحدث عادة بيننا. كنتُ أشعر أنني أفهم كل شيء! أنني مُلهَم! أستشهدُ بكانت وديكارت وفيتجنشتاين، عندما انتبهتُ أنه لم يعد بجواري. نظرتُ حولي وضبطته واقفاً يحدّق في فترينة محلّ. غضبتُ جداً، خصوصاً وأن عليّ أن أرجع إلى حيث يقف لأنه لا يتحرك ولا يجيب على ندائي. أخيراً، ربتُّ على كتفه، نظر إليّ مبهوراً. قال وهو يشير إلى واجهة المحلّ المليئة بالسجق والنقانق البحريّة المدخنة، وشرائح لحم الخنزير : "شيء لا يُصدّق؟".

صديقي مايكل ديبورت الذي كان جدّه محامياً مشهوراً في سانت بطرسبرج، كان يستعين في نقاشاته بآراء ديستويفسكي جنباً إلى جنب مع التشريعات القانونيّة التي وضعها جدّه. قال لي مايكل إن هاجس الطعام هو أفضل إثبات لدينا على وجود الروح، حيث من يشعر بالرضا هو الجسد وليس الروح. سألته: "هل هذا يعني أن الروح لا ترضى أبداً؟". لم يعطني إجابة حتى الآن. هذه هي إجابتي: عندما تكون الأرواح سعيدة، فإنها تتحدث عن الطعام.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٣

قبل ثلاثين عاماً، أثناء إقامتي بنيويورك، اعتدتُ أن أسهر كل ليلة إلى وقت متأخر، مستمعاً إلى جين شيفرد في مناجاته الثريّة من الراديو. برنامجه كان مليئاً بالأحاديث الشيقة والقليل من الموسيقى. حكى في إحدى الليالي قصة أسطوريّة، ما زلتُ أتذكرها، عن طقوس مرعبة لإحدى قبائل الأمازون.

مرة كل سبع سنوات، يحفر أفراد هذه القبيلة العتيقة حفرة عميقة في الغابة ويلقون فيها أفضل عازف فلوت عندهم. يضعون له بعض الطعام والقليل من الماء، ويتركونه بلا طريقة للخروج من الحفرة. بعد ذلك، يودّعه أفراد القبيلة الآخرون، قائلين له: لا ترجع مرة أخرى. بعد سبعة أيام، يبدأ عازف الفلوت الجالس مربعاً رجليه في قاع الحفرة في العزف. بالطبع لا يستطيع رجال القبيلة سماعه، لكن الآلهة تستطيع ذلك، وتلك هي الغاية.

طبقاً لشيفرد، الذي لم يكن بريئاً من شبهة اختراع القصص ليسلي مستمعيه المصابين بالأرق، اختبأ عالِم أنثروبولوجيا أثناء الطقوس، وسجّل عزف الرجل على الفلوت. كان شيفرد سيبث في الليلة نفسها هذا التسجيل.

أصابني الفزع، هذا هو الرجل الذي سيموت قريباً، دائخٌ من الجوع والقنوط، يستجمع ما لديه من قوة وإيمان بآلهته. فكرتُ أنه أورفيوس جديد في هذا العالم. استمرّ شيفرد في الحديث إلى أن أخيراً، في صمت آخر الليل، في غرفتي الرثة في شرق الشارع الثالث عشر، جاء الصوت الخافت لفلوت العالم الآخر: عزلة العازف، عواءه الأبديّ الحزين، وتنفّسه المضطرب من وقت لآخر، إنه يقدم أجمل ما عنده من مأزقه هذا. لم أهتم وقتها، كما لا يهمني الآن إذا كان شيفرد قد ألّف هذه القصة بكاملها. جميعنا في قاع حُفرنا الخاصة، حتى هنا في نيويورك.

كل الفنون تأتي من مأزقنا المستحيل. هذا هو المصدر الأزليّ لجاذبيّتها. كثيراً ما يقول الشاعر "تعوزني الكلمات". كل قصيدة هي فعل يأس، أو إذا أحببتَ، رمية نرْد. الجمهور المثاليّ هو الله، خاصة إن لم يكن باستطاعتك أن تنام أو إن كنتَ في قاع حفرة في الأمازون. إذا كان الله غائباً، فسيكون الأمر أشد سوءاً.

يجلس الشاعر أمام ورقة بيضاء واحتياج إلى أن يقول أشياء كثيرة في حدود مساحة القصيدة. العالم كبير، الشاعر وحيد، والقصيدة ليست إلا بعض اللغة، إنها عدة خربشات بالقلم محاطة بصمت الليل.

قد يكون الأمر أن الشاعر يريد أن يحكي لك عن حياته أو حياتها. عدة مشاهد للحظة عابرة عندما كان سعيداً أو صافياً بشكل استثنائيّ. الأمنية السريّة للشّعر هي إيقاف الوقت. يريد الشاعر أن يستعيد وجهاً، مزاجاً، سحابة في السماء، شجرة في الريح، وأن يأخذ صورة روحيّة لهذه اللحظة التي تعرّفك كقارئ بنفسك. القصائد هي لقطات الآخرين التي منها نعرف أنفسنا.

بعد ذلك، تتملك الشاعر رغبة في أن يقول الحقيقة. تساءلتْ جوِيندولين بروكس "كيف يمكن للحقيقة أن تُقال؟". الحقيقة مهمة. قول الحقيقة مهم. ينصح الواقعيّون: افتح عينيْك وانظر. يحذر الخياليّون: أغلق عينيْك لترى أفضل. هناك حقيقة في العيون المفتوحة، وهناك حقيقة في العيون المغلقة، وغالباً لن ترى إحداهما الأخرى إذا تقابلتا في الشارع.

بعد ذلك، يريد المرء أن يقول شيئاً عن الزمن الذي يعيش فيه. كل عصر وله ظُلمه ومعاناته الهائلة، وعصرنا ليس استثناءً. هناك تاريخ من الضِعة الإنسانيّة لنتعامل معه، وهناك أمثلة طازجة كل يوم لنفكر فيها. يستطيع المرء أن يفكر كما يشاء، ولكن أن يفهم مسألة أخرى. نحن نعيش في عصر يقدّم مئات الطرق لتفسير العالم. كل طريقة لها مَن

يؤمنون بها، من تشكيلات الأديان إلى العلوم على اختلافاتها. ربما تكون مهمة الشّعر إنقاذ أثر الحقيقة من حرب الأديان، والفلسفات، والأنظمة السياسيّة.

بعد ذلك، يريد المرء أن يكتب قصيدة ببراعة ترقى لتقاليد إميلي ديكنسون، إزرا باوند، وولاس ستيفنز، كأمثلة فقط على الأساتذة.

في نفس الوقت، يريد المرء أن يُمتع القارئ بمجازات فاضحة، ومخيّلة محلقة، وأصوات تكسر القلب.

في نفس الوقت، ليس عند المرء أية فكرة عما يفعله. تمارس الكلمات فِعل الحب مع بعضها على الصفحة مثل الذباب في حرّ الصيف، والقصيدة هي نتاج الصّدفة بنفس درجة كونها نتاج القصد، ربما أكثر من ذلك.

هذا طلب صغير من قائمة طويلة، تتطلب واحداً من الآلهة الهنديّة المعبودة ليقوم بدور النادل.

أحد المآخذ الكبرى على الشّعر، أو أحد أشكال جاذبيّته الجليلة ـ على حسب وجهة نظرك ـ أنه يريد أن يحتوي كلّ شيء. إذا احتكمنا للمنطق العقليّ البارد، فكتابة الشّعر مستحيلة.

التكهنات بموت الشّعر، التي نقرأها كثيراً، خاطئة تماماً، مثلها مثل معظم تخمينات المثقفين في هذا القرن. يُثبت الشّعر مرّة بعد أخرى،

أن نظرية جامعة مانعة عن أي شيء ما هي إلا نظرية تافهة. الشّعر هو دائماً سيمفونيّة القط تحت شبّاك الغرفة التي يُكتب فيها مسودة رسميّة عن الواقع. ينتقد الأكاديميّون الكاتب، على سبيل المثال، يقولون إن الشعر أداة أيديولوجيا الطبقة الحاكمة وإن كل شيء سياسيّ. جلادو آنا أخماتوفا هم قديسوهم الراعون. ولكن ماذا إذا لم يكن الشعراء مجانين؟ ماذا لو كانوا يمسكون بحسّ اللحظة التاريخيّة أفضل من الآخرين؟ بالتأكيد، يشتبك الشّعر بالجوهريّ وبما يتم تجاهله في البشر، وتلك القيمة التي لا يمكن وصفها هي ما يضمن للشّعر بقاءه. يقول إميل سيوران: "كي تنظر إلى ما هو جوهريّ... استلقِ على ظهرك طوال النهار، وأنت تئنّ". الشعر أكبر من ذلك بالطبع، وهذه مجرد بداية للحديث عنه.

يخلّد الشعراء الغنائيّون أقدم القيم على الأرض. إنهم يؤكدون التجربة الفرديّة ضد القبيلة. في رأي إمرسون، أن تكون عبقريّاً يعني "أن تصدّق أفكارك الشخصيّة، تصدّق أن ما هو حقيقيّ بالنسبة لك، في عمق قلبك، هو حقيقيّ بالنسبة للبشر جميعاً". لقد افترض الشّعر الغنائيّ منذ الإغريق ما يُشبه هذا، ولكن الشّعر الأمريكيّ منذ ويتمان وإمرسون جعل من هذا عقيدته الراسخة. كلّ شيء في العالم، مقدّساً كان أو مُدنّساً، يُعاد اختباره مراراً وتكراراً في ضوء خبرة المرء الشخصيّة.

الآن، وهنا، أنا مندهشٌ من أنني أحيا حياتي الشاعر الأمريكيّ مواطن في بلد ديمقراطيّ حديث. أمريكا ليس لديها أيّ

أساس تاريخيّ واضح، ولا دين، ولا قاعدة فلسفيّة. اعتاد الماركسيّون المستخفون أن يطلقوا على حالات كهذه "الفرديّة البورجوازيّة النموذجيّة". اعتاد رفيقٌ أن يقول عن الشعراء "إنهم يُعجبون برائحة خرائهم". كان ماويّاً، وفكرة أن على كل فرد أن يجد حقيقته أو حقيقتها، مثلت لُغزاً بالنسبة له. مع ذلك، تلك هي الفكرة التي سيطرت على عقل روبرت فروست، وتشارلز أولسون، وحتى إليزابيث بيشوب. لقد كانوا واقعيّين لم يقرروا بعد ما هو الواقع. يدافع شعرهم عن قداسة البحث الدائم، حيث الواقع والهويّة يُعاد اكتشافهما إلى الأبد.

ليس ما يثق فيه شعراؤنا بالأساس هو المخيّلة أو الهويّة، ولكن أمثلة على ذلك، أو سرديّات، أو تجارب محدّدة. ما زال داخل الشعراء ما هو أكبر من مجرد كتّاب يوميّات مخلصين. إنهم مثل أسلافهم، يقلقون على عَظمة حيواتهم الداخليّة من توقعات الطقس. سؤال الهويّة موجود دائماً، مثل الشك المزعج بأن وجود المرء ينقصه المعنى. يوجد افتراض مع ذلك بأن كل ذات، حتى في أكثر اهتماماتها شخصيّة، هي ممثلة للذوات الأخرى، أو أن "المشكلة الجوهريّة" كما يقول جون أشبري، هي "وجود عالم مُصغّر" لكل مشاكل البشر، والقصيدة هي الفضاء، حيث "أنا" الشاعر، عبر كيميائيّتها الرائية، تصبح مرآةً لنا جميعاً.

قال ويتمان: "أمريكا لن تنتهي، ربما لن تنتهي أبداً". شعرُنا هو معرفة درامية بهذه الحالة. بدْعته تكمن في أنه يأخذ جزءاً من الحقيقة

كبديل عن الحقيقة الكاملة، ثم يجعل منها صيغة روبرت فروست الشهيرة "استراحة مؤقتة ضد الحيرة". في علم الفيزياء، المتناهي الصغر هو ما يناقض القانون العام، وهذا حقيقيّ بالنسبة للشّعر في أفضل حالاته. إننا نحب في الشّعر ديمقراطيّة قيمه، مغامراته، فرديّته، وما ينطوي عليه من حريّة. لا يوجد ما هو أكثر أمريكيّة ولا أكثر بعثاً للأمل من الشّعر الأمريكيّ.

يهزّ الكلب الأسود المربوط في السلسلة ذيله وأنا أمرّ. يتلاشى بيت وإسطبل صاحبه كأنهما سينهاران تحت ثِقل السماء. توجد في فراندة جاري وخلف بيته سيارات قديمة، ومواقد، وثلاجات، وغسّالات، وأجهزة تجفيف. إنه يواصل إحضارها من مقلب نفاية البلدة لسبب غير واضح، ولم يقرر مستقبل استخداماتها بعد. معظمها مكسور وصدئ، وأجزاؤها مُفكّكة ومُبعثرة في كل مكان، باستثناء تمثال الجصّ الغريب الذي لا معنى له؛ مريم العذراء مغمضة عينيها، كأنها خجلة من أن تكون هناك. بعد بيت جاري هناك مشهد لغروب شمس الشتاء فوق البحيرة، مشهد اعتاد المرء أن يراه في اللوحات التي تبيعها المتاجر بخصومات كبيرة. أما بالنسبة لعازف الفلوت، فأتذكّر قراءتي أنه في الجنوب الغربيّ البعيد وجدوا كائنات عتيقة من أعواد الخشب على جدران الكهوف المهجورة، وأن بعضها كان يعزف الفلوت. في نيوهامشر، حيث أقيم الآن، هناك فقط ذلك البيت

المظلم، التمثال الشبحيّ، صمت الغابات، وحلول ليل الشتاء البارد بسرعة كبيرة.

٢٤

في وقت متأخر من المساء، والهلال مرتفع فوق الكنيسة في سانت مارك، مسكتُ خصيتيّ وأنا أمرّ بجانب قسيس. حدث هذا في بلجراد عندما كنتُ في الثانية عشرة. كنتُ مطلوقاً في الشوارع لا ألوي على شيء عندما لمحته عند الناصية. ظنّ أنني على وشك أن أُحييه ـ إنه حتى أمال رأسه بإحسان ـ فقمتُ بما نصحني أصدقائي أن أقوم به عندما أقابل قسيساً. وقف هناك في زيّه الكهنوتي دقيقة يغلي من الغضب. ثم جاء دوري لأندهش. رغم قوامه الممتلئ، جرى خلفي بسرعة استثنائيّة، ملوّحاً بيديه وصارخاً فيّ: "يا حشرة صغيرة!، يا ابن القحبة!". أرعبني سُبابه أكثر مما أرعبتني مطاردته لي. جريتُ دون أن أنظر للخلف.

تنتظرني في البيت صور جدّ جدّي وأخوال أمي على جدران غرفة المعيشة. احتوت عائلة أمي على عدّة قساوسة، كما كان فيها مُطران أيضاً. لم أر أبداً في ملصقات صور المطلوبين للعدالة، مجموعة من القتلة أكثر إجراماً من هؤلاء الأقارب. لحاهم في صور الأبيض والأسود

طويلة لدرجة أنها احتلت خدودهم. عيونهم منتفخة. لابد أن المصوّر حذرهم من القيام بأي حركة، وأنهم أطاعوه. تسلل الذباب داخل آذانهم أثناء السكون الطويل. حكّتهم أنوفهم بضراوة. ذلك المساء، بعد رؤيتي للقسيس، راقبتني عيونهم بكآبة غريبة. لقد عرفوا جميعاً ما قمتُ به.

أقبحهم منظراً كان والد جدّي. معروفٌ للجميع أن أولاده كانوا يكرهونه بشدّة. أما جدّي نفسه فلم يسمح بأي ذِكر للقساوسة ولا للدين أثناء حضوره في بيتنا. عندما ماتت جدّتي، أخبر الأسرة أنه لا يريد قسيساً يقوم بالطقوس لا في المدافن ولا أمام المقبرة. تهامس الناس بالفضيحة. رسم الجميع الصليب وهم يفكرون في الموضوع. قررت اثنتان من بناته ألا تطيعا أوامره. خطتهما كانت أن يظهر القسيس أمام المقبرة أثناء إنزال الكفن، ونظريّاً، سيكون جدّي غارقاً في الحزن والأسى بما يكفي ليقبل بإقامة صلاة قصيرة. هذا لم يحدث. فبمجرد ما جذب الحفارون الحِبال، وبينما الأسرة والأصدقاء واقفون منكسي الرؤوس، تجسّد القسيس في ردائه، حاملاً كتاب صلوات في يديه، لقد بدأ يباركنا ويتمتم بالصلوات بالفعل. لدهشة الجميع، دفعه جدّي. قبل أن نفهم ماذا حدث، أمسك العجوز حاد الطباع بالقسيس من عنقه طارداً إياه عبر المدافن. وكأن هذا لا يكفي، واحدة من بناته الباكيات جرَيْن خلفه، شدّت جدّي من ذيل معطفه، وبدأت في جذبه. كان عندها قوة عشرة رجال، ولم يكن جدّي بأقل قوة منها. احتدمت

معركة الشدّ والدفع وأعقبها الكثير من الصراخ. العجوز كان يرفض أن يترك القسيس ليذهب. للأسف، أخذتني أمي أنا وأخي بعيداً قبل أن نرى ونسمع المزيد.

إن سألت أي فرد في عائلتي عن وجود الله، لنظر إليك في حيرة. سيقول لك: الله موجود بالطبع. هذا لا يعني في الممارسة إلا الذهاب إلى الكنيسة في التعميد، والأفراح، والدفن فقط. من المحتمل أن يذكر ملحدٌ صارمٌ الله أكثر مما كانت تذكره أمي. لكن والدي كان مختلفاً. لم يمانع من دخول الكنائس، الكنائس الروسيّة، والكنائس السوداء، والكنائس الإيطاليّة القديمة، كنائس نيو إنجلاند المتزمتة، والكنائس البيزنطيّة، كلها في رأيه تستحق الإعجاب. أنا مثله في هذا. لقد أعجبته الفخامة والموسيقى، لكنه أحبّ الكنائس الخاوية أكثر. رأيته عدة مرات يركع على ركبتيه ليصلي، مع ذلك لم يهتم أبداً بالدين النظامي ولا بأية فكرة تقوم مقام الدين. لقد رأى أن الشيوعية والفاشية نسختان من المسيحيّة في أسوأ جوانبها. كان يشكو: "إن هدف التشدّد العقائدي والتعصب وصكوك الفضيلة هو الطاعة المطلقة ونشر الكراهية، وكلها تعادي الفرديّة". لقد كان عنده اهتمام فلسفيّ عميق بالإسلام والبوذيّة والهندوسيّة والمسيحيّة، لكن دون أدنى رغبة في الالتحاق بطائفة من المؤمنين. الإيمان بإله شيء خاص، مثل الجنس. إذا لم تكن تؤمن بأيّ شيء ـ قلتُ له مرات إنني لست مؤمناً ـ فهذا جيد، أيضاً.

جذبتْ ذراعي وهي تقول "دعنا نذهب، إنهما مجرّد ريفيّين أخرقين". أكدتْ لي، ولكني أردتُ أن ألقي نظرة على وعّاظ الشوارع.

ضغطتْ الشابّة صاحبة النظّارات السميكة الإنجيل إلى قلبها؛ داعب رفيقها صاحب وجه الحصان أوتار جيتار غير مضبوطة أمام تجمّع ليلة سبت كبير. قاما بالوعظ وأداء التراتيل كأنّ كلاباً تعضّ مؤخرتيْهما.

لم تتحمّل صديقتي هذا. انصرفتْ دون أن أنتبه. بقيتُ في رعاية المسيح الذي كما يبدو، كان عنده الكثير من الأغنام الضائعة ليقلق عليها. عادة ما يتم صدّ حبه العظيم، لقد صاحوا "المسيح الحلو"، محاولين أن يغطي صوتهم على صوت عربة إسعاف تعول في مكان ما في المدينة المظلمة، هناك، خلف المسارح المضيئة ومحلات التسلية.

يا للجحيم! لقد تأثرتُ للغاية.

الإله الأمريكيّ مجنون، كما يعرف الجميع، من المستحيل أن تكون كاتباً أمريكيّاً دون أن تعطي تلك الحقيقة قدرها من الاهتمام.

في فجر يوم ربيعيّ في غرب فرجينيا، كنتُ أقود سيّارتي مستمعاً إلى الراديو. أحدهم يبثّ تسجيلات كنسيّة سوداء، كانت موسيقى قديمة وخشنة. يتذبذب إرسال المحطّة بين الاختفاء والوضوح؛ تتزايد سرعة السيّارة في الطريق الخالي، وأنا مندهشٌ ممنٍ يختار تسجيلات بهذه

الدقة، والغموض، في هذه الساعة المبكرة. بالإضافة للمتعة، اجتاحتني مشاعر فياضة، وأدركتُ فجأة: إنهم يعنون كل كلمة ينطقون بها. يعنون كل كلمة. يغنون بجمال، بعنف، لأنهم يصدقون أن المسيح بينهم هناك بينما يغنون.

لقد بدا لي دائماً أننا وحيدون في هذا الكون. أحب عالم الميتافيزيقا وتكهناته، ولكن في جوهر وجودي، أظن أننا جميعاً نصفّر في الظلام. مع ذلك، تطفر الدموع من عينيّ كلّما استمعتُ إلى موسيقى كنسيّة جميلة. أفكّر، من النادر أن يصبح القلب الإنسانيّ بهذا الصفاء. ربما لا يشعر بالقداسة إلا هؤلاء الذين يغنون معاً؟ الإله الذي يأتي أو لا يأتي للنسّاك هو إله مختلف.

قال باسكال في سياق آخر: "لولا غموض كل شيء، لبدا غموضنا لأنفسنا الأكثر غموضاً على الإطلاق".

غنّ، اصرخ، تقدّس! تلك هي نصيحتي. خذ هذه الخطوة الراقصة، الكورال خلفك يتمايل ويضرب دفوفه، والسيدة العجوز على البيانو والشاب النحيف على الجيتار الكهربائيّ، يهزان رأسيهما في استحسان. بلا شك "كلّ شيء كذب، باستثناء الموسيقى"، كما يقول سيوران.

اعترفتُ لنفسي أخيراً أنني مؤمن بالخرافات بشكل ميئوس منه. قلتُ لنفسي: أنت لا تؤمن بإله، فلماذا إذن تعتقد في الحظ السيئ؟ لم

تكن عندي إجابة. هل نملك مصيرنا، أم أن مصيرنا قوة مستقلة عنا. لقد عرف اللاهوتي جون كالفن على الأقل مَن الذي يقرر المصائر، أما أنا فلا أعرف.

رأسي مليئة بالتناقضات، تتأرجح على قدمين؛ هل هذه هي النسخة الحديثة من الغباء المقدّس؟ دعنا نأمل ذلك.

في نفس الوقت، بداخلي رعب كسرة خبز منسيّة في طبق عشاء الموت ...

دائماً ما جذبتني العقائد العرفانيّة والباطنيّة التي تقول باستحالة الإحاطة بالوجود الأسمى، واستحالة وصف تجربة حضوره، والتباس حالتنا الإنسانيّة، التباس حالة آكلي اللحوم. إن كنتُ أؤمن بشيء، فهو ليل الروح المظلم. الرعب ديني، والغموض كنيستي. أُضيف لذلك، التباس الوعي وعذاب الضمير.

إذا لم يكن من أجل الضمير، هل كنا لنصدق أبداً احتمال الوجود المستقل للشرّ؟ لا شيء يفسّر العالم وناسه. هذا هو الإدراك الذي يجعلنا نسقط على رُكبنا ونستمع إلى صمت الليل. لا يجرؤ كلب ولا بومة على مقاطعة هذا الإدراك الليلة. الوجود والعدم، هذان الشيئان المجرّدان، كيف يصبحان حقيقيين، قريبين، في شعورنا. في لحظات كهذه، أريد أن أُحضر طاولة الشطرنج. أتركهما يلعبان معاً، وأنا سأجلس وأتفرّج

حتى يتسلل أول ضوء من تحت الباب، ويحبو إلى قدميّ دون أن يوقظ الغبار.

أخذني الشاعر فاسكو بوبا منذ سنوات عديدة، لزيارة رئيسة دير بالقرب من بلدته فرشاك على الحدود اليوغوسلافيّة الرومانيّة. كنا قد تناولنا غداءً طويلاً في بيت أحد الشعراء الشبّان، ولم ننصرف حتى الخامسة. لا أتذكر الكثير من رحلة السيّارة لأننا تكلمنا طوال الوقت مُقاطعين بعضنا بقصص ونكات؛ لكن فجأة في نهاية الطريق الترابيّ، كان هناك حائط عالٍ وبوابة حديديّة مغلقة. تركنا السيّارة خارج البوابة التي دفعناها بما يكفي لنعبر منها. ما وجدناه في الداخل كان غابة حقيقيّة، لم يتم قصّ العشب طوال الصيف، ونمت الأشجار وتوحّشت على مدى السنوات دون أن يقوم أحد بتقليمها أو تشذيبها. تابعنا ما كان يوماً طريقاً، وأصبح الآن مساراً ضيقاً. لم نتحدث، ولم يقطع صمتنا إلا صوت طائر من وقت لآخر. بعد مسافة ميل أو نحوها، رأينا من خلال الأشجار عدة بيوت ضخمة وكنيسة بيزنطيّة صغيرة. اتجهنا إلى أكبر البيوت، طرقنا الباب، فتحناه، ألقينا نظرة بالداخل، بل وأعلنّا عن حضورنا؛ ولكن الصمت وحده من رحب بنا. كان الهدوء تاماً، حتى أننا بدأنا نحذر خطواتنا. مشينا على أطراف أصابعنا متجهين إلى البيت التالي. رأينا من خلال الباب المفتوح ستّ راهبات جالسات في دائرة ورؤوسهن محنيّة. فاسكو يعرف اسم الأم رئيسة الدير. ناداها، قفزت تحييه، وخلفها الراهبات في فرح وسعادة لرؤيته. أخبرني فاسكو

أن رئيسة الدير كانت وصيفة في البلاط الملكيّ في شبابها، وأنها متعلّمة بشكل استثنائيّ. كان قد أرسل لها كتباً بالفرنسيّة. لقد انتهت من قراءة ألبير كامو، وأرادت بحماس أن تناقش ما قرأته معه.

أخذتنا الأم وراهبة نحيفة شابة في جولة. زرنا الكنيسة التي كانت تحت التجديد، ورأينا لدهشتنا بعض اللوحات الجداريّة الرائعة، ثم صعدنا ببطء مراعاة لسن الأم إلى المدافن الصغيرة خلف الكنيسة. غابت الشمس. قالت الأم وهي تضحك "سأرتاح في هذه المقابر قريباً". جاوبناها بابتسامة. يوشك المرء أن يغار من هذا التوقع.

بعد ذلك ذهبنا إلى البيت الكبير الذي كنا طرقنا بابه في البداية. عرفنا أنه واحد من البيوت الصيفية العديدة التي يمتلكها أحد الأساقفة المحليين. هو لم يُقِم فيه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لكن كل شيء كان على أهبة الاستعداد لوصوله. جلسنا في غرفة معيشة واسعة مع الأم والراهبة النحيفة، نحتسي براندي بيتيًا، بينما الأسقف السابق يتفحصنا بدقة من صوره الرماديّة القديمة. هناك مصباح طاولة واحد مُضاء. تحدّث فاسكو، كما تحدّثت العجوز، ولكن حفيف أوراق الأشجار الكثيرة كتم صوتيهما، ثم فجأة حلّ صمت تام. كان هناك سلام كأنه جاء من خارج الزمن، نوع من الصمت يقابله المرء في رسومات الحكايات الخرافيّة، حيث يُرى ولد وحيد وهو يدخل غابة مظلمة مليئة بالأشجار العملاقة.

بعد مدة كنتُ أُنصت إلى الصمت العميق؛ واصل الليل كتم صوت تنفسه.

منذ زمن بعيد قال لي الشاعر فرانك سامبري "كل قصيدة، بوعي أو بدون وعي، موجَّهة لإله". أتذكر دهشتي، معارضتي لمقولته، ذِكري لبعض القصائد المعاصرة السيّئة. كنا نملأ بطاقات اشتراك في مخزن مجلة فوتوغرافيا وغارقين في مناقشات فلسفيّة طويلة عن الشّعر. كان فرانك قد قرأ الكثير من دانتي، لهذا اعتبرتُ أن ذلك هو السبب. إنه عالقٌ في إيطاليا القرن الرابع عشر.

لا أفكر هكذا الآن. أنا أعتقد اليوم ما كان يعتقده سامبري وقتها. لا فرق على الإطلاق إن كانت الآلهة أو الشياطين موجودة أم لا. طموح كل قصيدة أصيلة هو أن تتساءل عن كليهما حتى وهي تدرك غيابهما.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٥

. . . اللسان الذي نستخدمه
عندما لا نريد من المعاني الغامضة
أن تُلجمنا.

كورنِلْيوس إيدي

في نهاية هذا القرن المجرم، دعونا نلعن أعداء الفرديّة. لقد واصل كل إيديولوجيّ حديث وكل شرطيّ أفكار القول باستحالة وجود "الخاصّ" خارج السياسة، القول بعدم وجود شيء يُسمّى ذاتاً حرة، وإذا حدث ووُجدت ذات كهذه، فوجودها غير مرغوب فيه من وجهة نظر الصالح العام. إن مَن يرفض فكرة البناء الاجتماعيّ للذات ويقاوم تشكيلها لتُناسب آخر نظريّات التنمية البشريّة، يصبح عدوّاً في كل مكان. في أكاديميّة الأكاذيب، حيث يتم تطوير كراهية جديدة كل يوم، أو كما قال جوزيف جوبلز "حيث لا يقول الحقيقة إلا الأطفال والمجانين"، يقف الشخص المارق وحده في الركن ووجهه أو وجهها إلى الحائط. التعصب، وهيمنة التفكير الجماعيّ، وصكوك الفضيلة، هي

المُثل العليا للدين ولكل نماذج المدينة الفاضلة. المشكلة الثقافيّة الوحيدة عند فلاسفة أنظمة كهذه، هي كيف يجعلون الاستلاب والخضوع جذاباً. في الحقيقة، ليست الأيديولوجيّات من القوميّة إلى العنصريّة معنيّة بالأفكار؛ بل كل اهتمامها هو تكتّل مدّعي التجديد تحت سقفها، ورغبتهم أن يمنحوا الصالحين فرصة الاستمتاع بشعور التفوق. تواصل كل طائفة من المؤمنين القول بحماسة "لسوف نجد السعادة الداخليّة والانسجام عبر التضحيّة بالفرد".

علّمتني التجارب التاريخيّة أن أكون حذراً من الظواهر الجماعيّة. إنني أرتاب في مؤرخي الأدب ونقاده عندما يُعمّمون. بالطبع، يرتبط الشعراء الشبان والرسامون ببعضهم البعض، ويؤثرون في بعضهم البعض، ويتقاسمون معاً مزاج العصر نفسه، لكن بجانب هذه الحقائق الواضحة، هل توجد أية قيمة للأدب إذا كتبته جماعة؟ هل حدث أبداً واعتقد أي فنان عبقريّ أنه مجرد فرد في جماعة؟ هل هناك من يعتبر نفسه بجدّيّة "ما بعد حداثيّ"، أيّاً كان معنى ذلك؟

لا يوجد انسجام بيني وبين الأنظمة. تقول جماليّاتي إن الشاعر يكون حقيقيّاً لأنه أو لأنها خارج التصنيف. إنها تلك الأصالة غير القابلة للاختزال في كل حياة وهي ما يستحق التكريم والحماية. إذا كان على المرء أن يرجع مرة أخرى لقاموس الشتائم ليتخلص من هذا البؤس، فليرجع على الفور.

أول المُتع التي لا تُنسى، والتي منحتها لي اللغة ، كان اكتشاف "الكلمات النابية". ربما كنتُ في الثالثة أو الرابعة عندما سمعتُ أمي وامرأة أخرى تستعملان كلمة "كُس". عندما كررتُ الكلمة لنفسي، عندما قلتها بصوت عالٍ للجميع ليسمعوها ويُعجبوا بها، صفعتني أمي وأمرتني ألا أستخدم هذه الكلمة مرة أخرى. أها، فكّرتُ أن هناك كلمات لذيذة لا يجب قولها بصوت عالٍ! كانت خالة لأمي تستخدم هذا النوع من الكلمات كل مرة تفتح فيها فمها. تتوسل لها أمي عندما تأتي لزيارتنا ألا تتكلم بهذه الطريقة أمام الأطفال، ولكنها لم تكن لتهتم. كانت تُهمة خطيرة أن تكون غاضباً أو أن تنطق بألفاظ نابية في مجتمع شيوعيّ. قالت أمي: "سينتهي الأمر بنا جميعاً في السجن بسببها".

لا مناص من السّباب في بعض المواقف، عندما يكون من الضروريّ للغاية، بل من العدل، أن تستنكر وتسخر وتوبّخ وتُشهّر وتُعنّف بأقسى لغة ممكنة. في كتابه "تشريح الكآبة"، كتب روبرت بيرتون منذ وقت طويل "لا أتمنى أن أكون معصوماً من خطيئة السُّباب". أنا أتفق معه في هذا. إذا كان هناك ما أريد أن أتقنه وأتوسّع فيه، فهو مخزوني من الشتائم.

هذا ما تعلمته من تاريخ القرن العشرين: لا شيء يُعاد انتاجه إلا الأفكار الغبيّة. يحلم المصلح الاجتماعيّ بأن يصبح العقل المدبّر والمتحكم في إصلاحيّة سجن. كل مغرور، بليد، متجهم، محبط جنسيّاً، يحلم بتشريع قانون يناسب عنّته. أزياء ماو: منظر مليار شخص

يرتدون نفس الزيّ ويصيحون بعبارات من كتابه الأحمر الصغير ما زال أملاً سريّاً لحالمين جُدد.

يتعب المرء عندما يدرك أن الكثير مما يسمعه ويراه ليس إلا محاولة لجعل الاحتيال محترماً. على سبيل المثال، قبل المثقفين الباريسيّين بزمن، أدركت نانا، خالة أمي، أن الاتحاد السوفيتي وما يُسمّى بالديمقراطيّات الشعبيّة مجرّد غشّ وكذب. كانت واحدة من النساء اللواتي يُبصرن ما وراء المظاهر على الفور. منذ البداية، لم تكن الإنسانيّة خيّرة في رأيها. ليس لأنها كانت شخصاً حانقاً، ولا لأن بداخلها جحر أفاعٍ من الضغينة المُتخيّلة. على العكس، كانت تحب الأكل، والشراب، والضحك الصافي، وتسرق مُتعاً عابرة من خلف ظهر زوجها العجوز. الأمر فقط أن تفكيرها كان واضحاً ومختلفاً وبعيداً عن التثاقُف. كانت تقول لك إن نظامنا الثوريّ، الذي يعتبر أن اللسان الطويل والطيش جريمة سياسيّة، ويطلق على من يتم ضبطهم متلبسين عناصر مريضة، ليس إلا مجرد كوم من الخراء، وهذا الخراء يشمل الجنرال تيتو نفسه. كانت ترى أن سبب انفجاراتها الغاضبة هو سذاجة الآخرين. رأت نفسها محاطة بالبلداء والجبناء. لقد أشعل الراديو والصحف القوميّة ثوراتها الشتائميّة. اعتادت أن تصرخ في أمي وجدّتي: "اعترفا، ألا تشعران برغبة في التقيّؤ عند سماعهم يتكلمون بهذه الطريقة؟".

إذا اتفقتا معها وصرّحتا همساً أن كلامها صحيح، وأن هؤلاء الشيوعيين ليسوا إلا مجموعة من القتلة الجهلة الأجلاف، عملاء ستالين وأشباههم، فلم يكن هذا كافياً لمراضاتها. لقد كان هناك ما يقلقها في الجنس البشريّ إلى ما لا نهاية. المشكلة أن البشر لم يكونوا أفضل أمس أو أول أمس. لقد بدأت نوبة الشرّ والغباء منذ اليوم الأول للخليقة. كانت ترفع يديها إلى السماء مرة بعد أخرى. إنها لا تستطيع أن تتغاضى عن ذلك، كأن عندها حساسيّة مزمنة من كل ما هو مزيّف وقذر. هذا لم يقلّل من استمتاعها بالحياة، كأن عندها طريقة للتخلّص من تلك الأرواح الشريرة، إن هذا عمل متواصِل. أتخيّل أن قيامها بالشتيمة منحها سعادة خاصّة ـ وما لم تعرفه ـ أنه منحني السعادة أيضاً، مستمعاً من خلف الباب المغلق بابتسامة وقحة.

في كتاب عنوانه "التناقض الظاهريّ للجِندر" تقدم لنا جوديث لوربر نسخة نسويّة من ذلك الجنون المتوفر:

> "في عالم مشكوك في مساواته الجنسيّة، يجب أن يتم تعليم وتدريب عدد متساوٍ من البنات والأولاد في الآداب والعلوم، للوظائف المكتبيّة والعمليّة ولكل المهن. من بين متساوي المهارات هؤلاء، يتم توظيف نساء ورجال بالتناوب لشغل نفس الوظائف ـــ أو يتم توظيف الرجال فقط للقيام بوظائف النساء، حتى تصبح

كل أماكن العمل نصفها من الرجال ونصفها من النساء".
(نيو هيفين: دار نشر جامعة ييل، ١٩٩٤. ص ٥٨).

أفكر أن هذا لطيف جداً، لكن ماذا عن الشُرطة، والسجّانين، والمخبرين اللازمين لتنفيذ كل هذا؟ هل سيتم تنظيمهم في وحدات مكوّنة بالتساوي من الجنسين؟ نأمل ذلك. انتبهوا، مثل كل المتدينين المنافقين، وأنبياء السعادة الكونيّة، لا يوجد ذِكر للفرد. كيف ندافع عن أنفسنا ضد هؤلاء الوحوش الذين يقسّمون أفراد المجتمع إلى مفيد وغير مفيد؟ بالنسبة لهم، المواطن النموذجيّ يجب أن يكون مجرّد عبد بإرادته! أمريكا، أو أي مكان آخر على الأرض، يجب أن تكون مدرسة الفضيلة، حيث سيتم فحص المعنى السياسيّ لغروب الشمس في قصيدة بعناية، بحثاً عن وجهات النظر المحظورة!

أعرف ولداً في الثالثة عشرة من عمره كان قد كتب رسالة للرئيس جونسون عن جرائم حرب فيتنام. في الرسالة: كان رئيسنا قاتلاً وغبيّاً ويستحق هو نفسه أن يُضرَب بالنابالم، بل ويستحق ما هو أسوأ من ذلك. في أحد المساءات، وبينما الولد وأمه وأخته ـ التي حكتْ لي القصّة ـ يجلسون حول طاولة المطبخ يتناولون حساءهم، اقتحم رجال الأبواب والشبابيك التي تؤدي إلى مخرج الحريق، وحاصروا بمسدساتهم المشرعة طاولة الطعام. أعلنوا: "نحن الإف بي آي"، وأرادوا أن يعرفوا مَن هو أنطوني باليرمو؟. أشارت المرأتان للولد الأحول الذي يرتدي

نظارات سميكة. حسنٌ، أخذ الأمر بعض الوقت لإقناعهم أنه هو نفسه الشخص الذي كتب الرسالة. كانوا يتوقعون قاتلاً شيوعيّاً بالغاً، بشعر طويل وترسانة من الأسلحة والقنابل بجانبه.

مرة، سمعتُ عجوزاً في مكتب الشئون الاجتماعيّة تصيح: "ما الذي تريدونه مني يا خِرفان؟". واصلتْ شتْمهم خمس دقائق أخرى، ليس لأنه كان عندها أمل أنهم سيصححون الخطأ الذي ارتكبوه في حقها، ولكن لكي تشعر بالراحة والعدل ولو للحظة واحدة عابرة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٦

إنه الليل حولي مرةً أخرى؛ أشعر كما لو كان هناك برق ـ لبرهة قصيرة كنتُ كليّاً في جوهري وضوئي.

نيتشه

العقل يحب المجهول. أحب الصور التي تكون معانيها مجهولة، لأن معنى العقل نفسه مجهول.

ماجريت

الآن أقرأ الفلسفة في الصباح. عندما كنتُ شاباً أسكن في نيويورك، كنتُ أقرأ الفلسفة دائماً في الليل. اعتادتْ أمي أن تقول: "أنت تُضيّع نظرك بهذه الطريقة". أجلس وأقرأ حتى وقت متأخر من الليل. كلّما كان الهدوء تاماً، كلّما صَفا ذهني ـ أو هكذا بدا لي الأمر. في غرفة شبه مفروشة فوق محلّ خضار إيطاليّ، صارعتُ بعض المجادلات الفلسفيّة المعقّدة التي تعد باكتشاف عظيم في خلاصتها. أحسستُ ذلك بوجودي كله. لم يكن باستطاعتي أن أترك الكتاب، الوقت تأخّر كالعادة، عليّ أن أذهب إلى العمل في الصباح. إذا حاولتُ

النوم، فرأسي ممتلئ بكانت وهيجل. لهذا، لن أذهب للنوم. في لحظة ما يكون عليّ أن أتّخذ قراراً كهذا. أجلس هناك بكتاب مفتوح، تنعكس ظلال وجهي على زجاج النافذة الداكن، يعمّ الهدوء المدينة من حولي. كنتُ أراقب نفسي تراقب نفسي. تجربة غريبة للغاية.

عندما حدث ذلك أول مرة كنتُ في العشرين من عمري. الساعة السادسة صباحاً، شتاء، الطقس مظلم وبارد جداً. كنتُ في شيكاغو ذاهباً إلى العمل بالقطار، جالساً بين عجوزين ضخمتين وملفوفتين في الملابس الثقيلة. تدفئة القطار عالية، لكن كلّما انفتح الباب على أحد الأرصفة المرتفعة، عبرت رعشة من تيّار الهواء البارد بأجسادنا. واصل الضوء أيضاً تذبذُبه. عندما يُغيّر القطار القضبان، يعم الظلام حوالي دقيقة، فأتوقف عن قراءة كتاب "تاريخ الفلسفة" الذي استعرته من المكتبة أمس. يتساءل الكتاب مستشهداً بمقولة بارمينيدس "لماذا يوجد شيء ما بدلاً من العدم؟". كأن عينيّ انفتحا على اتساعهما. لم أستطع التوقف عن التحديق في راكبي القطار. فكّرتُ، إن هذا لا يُصدّق، كلنا هنا، نحن موجودون.

تشبه الفلسفة العودة إلى البيت. عندي حلم متكرّر عن الشارع الذي وُلدتُ فيه. الوقت دائماً ليل. أعبر بنايات أليفة بشكل غامض، محاولاً أن أجد بيتي، ولكن لسبب ما لا أعثر عليه. أُعيد اقتفاء خطواتي

في المربع المكوّن من عدّة مبان، كلها هناك إلا البيت الذي أقصده. تتركني المحاولة مرهقاً وحزيناً.

في نسخة أخرى من نفس الحلم، لمحتُ بيتنا. إنه هو، أخيراً، ولكن لسبب ما لا أستطيع الاقتراب منه. ليس فيه ضوء. أنظر إلى نافذتنا، ولكن الظلمة شديدة في الطابق الثالث. يبدو المبنى كله مهجوراً. أقول لنفسي في رعب "هذا مستحيل".

في واحد من هذه الأحلام، منذ سنوات عديدة، رأيتُ شخصاً يُطلّ من نافذتنا، منحنيّاً لأسفل كأنه يراقب بإمعان شيئاً في الشارع. إنها نفس الطريقة التي كانت تنتظر بها جدّتي رجوعنا إلى البيت متأخراً في الليل، إلا أن هذا الشخص كان غريباً. كنتُ متأكداً من ذلك رغم أنني لا أستطيع رؤية وجهه.

لكن معظم الوقت، لا يكون هناك أحد في المشهد أثناء الحلم. واجهات البنايات ما زالت تحتفظ بالثقوب وآثار الحرب. نور الشارع مُنطفئ، ولا يوجد قمر في السماء، وبالتالي ليس واضحاً بالنسبة لي كيف يمكنني أن أرى كل هذا في الظلام الدامس. الشارع الذي أمشيه طويل، خالٍ، ويبدو كأن لا نهاية له.

مَن يقرأ الفلسفة يقرأ نفسه بقدر ما يقرأ الفيلسوف. إنني في حوار مع أحداث فاصلة في حياتي بقدر ما أنا في حوار مع الأفكار على

الصفحة. المعنى هو مسألة وجودي. ما أبذله من جهد كي أفهم، يدور دائماً حول عدّة مشاهد تستحوذ عليّ.

مثل الآخرين، لديّ حسّي الباطني. تخلق تجاربي نوعاً من المعرفة غير قابلة للتعلُّم، إنها تسبق قراءاتي. ما أحاول فهمه بمساعدة الفلسفة، هو ما كنتُ قد حدسته وحدي بالفعل.

هذا مجرد اقتراح للنظر في الأمر.

> تأملات الأمس ملأت عقلي بشكوك كثيرة لم يعد في مقدرتي أن أتغاضى عنها. وفوق ذلك، ليس عندي طريقة لأحللها؛ وكأنني سقطتُ فجأة في مياه عميقة للغاية، مرتبك بين كوني لا أستطيع أن أقف بقدميّ على القاع، ولا أن أسبح وأحمل نفسي إلى سطح الماء. يجب رغم ذلك أن أجتهد وأبدأ من جديد نفس الطريق الذي بدأته بالأمس ... عليّ أن أضع كل ذلك جانباً حيث يمكن التخلّص من كل الشكوك، فقط كأنني اكتشفت أن ذلك مزيفٌ تماماً؛ ويجب عليّ دائماً أن أقتفي الطريق حتى أقابل شيئاً مؤكّداً، أو على الأقل، إذا استطعتُ ألا أفعل شيئاً يكون عدم فعله مؤكّداً. قد يقوم أرشميدس من أجل ذلك برسم الكرة الأرضيّة خارج الأرض، وبنقلها إلى مكان آخر، منادياً بأن تكون هناك نقطة واحدة فقط، ثابتة وراسخة؛ بنفس الطريقة يجب أن يكون لديّ الحق

في تبني أحلام كبيرة، أن أكون سعيداً بما يكفي لأكتشف
شيئاً واحداً فقط يقينيّاً ولا شك فيه.

أحب هذه الفقرة من ديكارت ــ أن يبدأ من جديد، رغبته في ألا ينخدع. إنها تصف طموح الفلسفة في نبله ويأسه. أفضّل ديكارت المتشكك عنه فيما بعد، ذلك المشهور بيقينيته. ما زال شِعر عدم اليقين يشع فتنة. بالطبع، هو طامع في المطلق، وكل الآخرين طامعون. أليسوا كذلك؟

هناك أغنية شعبيّة من شرق أوربا، تحكي عن بنت استمرت في قذف تفاحة لأعلى وأعلى حتى وصلت إلى السحاب. لدهشتها، لم ترجع التفاحة مرة أخرى. أخذتها سحابة. انتظرتْ البنت بيدين مفرودتين، ولكن التفاحة ظلت هناك. كل ما استطاعت عمله هو أن ترجو السحاب أن يُعيد إليها تفّاحتها، ولكن هذه قصّة أخرى. أحب الجزء الأول حيث يحدث المستحيل.

أتذكّر استلقائي في خندق أتأمل بعض الحصى بينما تطير حاملات القذائف الألمانيّة فوق رؤوسنا. حدث ذلك منذ زمن بعيد.

لا أتذكّر وجه أمي ولا وجوه الناس الذين كانوا معنا هناك، لكني ما زلتُ أتذكر هذه الحصى العاديّة للغاية.

يقول فيتجنشتاين: "ليست الروحانيّة في 'كيف' توجد الأشياء في العالم، لكن في وجودها ذاته". أنا شعرتُ بذلك تماماً. كأن الزمن قد

توقّف. شاهدتُ نفسي تشاهد الحصى وارتجفتُ من الخوف. ثم تحرّك الوقت، وانتهتْ التجربة.

ظلت الحصى في غيريّتها، ظلت في ذاكرتي للأبد. هل يمكن للغة أن تُنصف قوة الوعي في لحظات كهذه؟ الكلام دائماً محدود. عندما يأتي الأمر للتعبير عن معنى أن تكون واعياً بحق، قد يوشك المرء على وصفه، لكنه يفشل في آخر المطاف.

يصف فيتجنشتاين الأمر هكذا: "ما يجد انعكاسه في اللغة، لا تستطيع اللغة تمثيله. ما يعبّر 'عن نفسه' في اللغة، لا نستطيع نحن أن نعبّر عنه بواسطة اللغة". تلك كانت تجربتي مرات عديدة. الكلمات فقيرة للغاية، مدهشة في فقرها.

أعرف شخصاً حاول أن يقنعني بالنقيض. إنه يعتبر نفسه من أتباع المذهب الوضعيّ. إنه من هؤلاء الناس الذين يذكّرونك، على سبيل المثال، أن بإمكانك الحديث عن أبعاد القلم الرصاص، مكانه، مظهره، حالة حركته أو سكونه، لكنهم لا يذكّرونك بذكائه أو حبه للموسيقى. عندما أسمع ذلك، يتمرّد الشاعر بداخلي، فأريد أن أكتب قصيدة عن قلم رصاص ذكيّ واقع في غرام الموسيقى. بكلمات أخرى، ما يعتبره هؤلاء الناس هراء، أظنه زاخراً بإمكانيّات المُخيّلة.

هناك قصة رائعة تحكي عن فيتجنشتاين وزميله بكامبردج، الاقتصادي الإيطالي بييرو سرافا، يبدو أنهما اعتادا الدخول معاً في

مناقشات فلسفيّة. يحكي جستِس هارتناك: "ذات يوم، عندما كان فيتجنشتاين يدافع عن نظريته أن الافتراضيّ لديه نفس التكوين المنطقيّ للواقع الذي يتخيّله، قام سرافا بإيماءة اعتاد سكان نابولي القيام بها تعبيراً عن الازدراء، وسأله عما يتذكره عن هذه الإيماءة، ذلك هو السؤال الذي جعل فيتجنشتاين يُدرك أن اعتقاده بوجود تكوين منطقيّ للواقع اعتقاد لا يمكن الدفاع عنه".

أما بالنسبة لصديقي "المنطقيّ"، فقد تناقشنا طوال الليل. ادّعى أن "ما يستحيل قوله، يستحيل التفكير فيه". قلتُ له شيئاً عن كون الصمت هو لغة الوعي ـــ "أنت صامت لأن ليس لديك ما تقوله!". في كل الأحوال، وصل الأمر إلى أن شتم كلٌّ منا الآخر "أنت خراء غبيّ". كنا قد شربنا كميّات مهولة من النبيذ الأحمر، لم يعد أحدنا يفهم الآخر على الإطلاق، ولم نتوقّف عن التشاحن إلا عندما خرجت زوجته المنزعجة إلى باب غرفة النوم، وأخبرتنا أن نخرس.

بعد ذلك حكيتُ له قصّة.

في يوغوسلافيا، بعد الحرب مباشرة، ذهب فصلنا الدراسيّ في رحلة لزيارة المتحف المخصّص للحرب بالمدينة. وجدنا على المدخل دبابة ألمانيّة مقصوفة ففرحنا بها. كان يمكن أن ترى داخل المتحف بعض البنادق، قنابل يدويّة وأزياء ولا شيء آخر. شغلت الصور معظم المساحة. طُلب منّا أن نتأملها. هناك أناسٌ قد تم شنقهم، وأناسٌ في

طريقهم إلى المشنقة. وقف الجلادون يدخنون. هناك أكوامٌ من الجثث في كل مكان. بعضها كانت عارية. رجال ونساء أعضاؤهم الجنسيّة مكشوفة. أضحك ذلك بعض الأطفال.

ثم رأينا رجلاً مذبوحاً. جلس القاتل على صدر القتيل والسكين في يده. بدا سعيداً لأنه يتم تصويره. لا أتذكر عينيّ الضحيّة. وقف بعض الرجال عن قرب يحدّقون ببلاهة. كانت هناك سحبٌ في السماء.

دائماً ما كانت هناك سحبٌ في السماء، مربعات من العُشب، جذوع أشجار، شُجيرات، وحصيّ، ولا أحد ينتبه لها. في إحدى الصور تغطّت الأرضُ بالثلج. إنه صباحٌ تعيسٌ من يناير تصطكُّ فيه الأسنان، وشخصٌ ما يجعل حياة شخص آخر أكثر تعاسة. أو ينهمر المطر. مطر غزير يغسل الدماء من السكّين على الفور، ويجعل أحد القتلة يُصاب بالبرد. أتخيّله جالساً في الليلة نفسها يحتسي الشاي، وقدماه في دلو ماء ساخن.

خطرت هذه الأفكار ببالي لاحقاً. الآن حيث إننا رأينا كل ما يجب أن نراه، أجلسونا على العشب خارج المتحف كي نتناول الغداء. كان طعامنا متواضعاً. مع معظمنا شرائح خبز مدهونة بمربى التين، أحضر عدّة أطفال خبزاً عليه دهن لحم الخنزير. أحدنا لم يكن معه سوى خبز وبصل أخضر. أخمن أن هذا هو كل ما كان في بيته ذلك اليوم. ظن الجميع أن هذا مضحك. خطف أحدهم قطعة خبزه السميكة السوداء ورماها في الهواء. علِقَت شريحة الخبز في الشجرة. حاول الولد المسكين

أن يُنزلها بقذف الشجرة بالحصى. فشل في التصويب. بعد ذلك حاول أن يطلع الشجرة، فانزلق من عليها. جاء مدرّسنا ليستطلع سبب هذه الفوضى، وظنّ أن الأمر مضحك للغاية.

أمّا بالنسبة للعُشب، فهناك الكثير منه، كل مربّع محدّد ومُشذّب بعناية. هناك أيضاً سحُب في السماء، وذباب ضخم من ذلك النوع الذي تراه في محلات الجزارة، لقد ظلّ يُزعجنا ويُقاطع ضحكاتنا.

وهذا ما دار برأسي فقط ليلة البارحة بينما أنا مُستلقٍ متيقظاً أفكّر في مناقشة صديقي:

ليس للقصّة التي حكيتَها له علاقة بما كنتَ تُحدّثه فيه.
القصّة كانت تماماً عمّا تحدّثنا فيه.
يمكنني أن أُفكّر في مائة اعتراض على القصّة بعد كل هذه السنوات.
البُلهاء فقط هم مَن يريدون شيئاً متقناً، شيئاً حاسماً ـــ ولا أتحدّث أبداً عمّا لا أعرفه!
آها! أنت تخلط الشّعر بالفلسفة. يحق لفيتجنشتاين ألا يُعطيك من وقته يوماً!
قال جاسبر جونز: "كلّ شخص يبدو مشغولاً للغاية بالنسبة لي"، هذه هي مشكلتي أيضاً.

أتذكّر قطة غريبة، هزيلة للغاية، نبشتْ على بابي يوم كنتُ أهرشُ رأسي مفكراً في ظاهرة الروح عند هيجل.
من الذي قال: "كل ما يمكن التفكير فيه هو مجرد خيال"؟.
أنت ورطتني في هذا! ما رأيك في خبز هيجل؟
ومع ذلك ... وقبل ذلك! لا يجب أن ننسى "وقبل ذلك".
هذا ما قاله نيتشه للسقف: "مكانة كل فيلسوف يُحدّدها عمق ضحكته". لكنه لم يستطع حقيقة أن يضحك.
أعرف أنني خبيرٌ بالمفارقة. كل الأضداد الأنيقة واقعة في غرامي وتأتي لزيارتي في السرير كلّ ليلة.
جرّب طماطم أفلاطون.

عند والاس ستيفنز عدّة قصائد جميلة عن الوحيدين. من بينها قصيدة "البيتُ كان صامتاً والعالم كان هادئاً". إنها تتحدّث عن "الحقيقة في العالم الهادئ". يحدُث ذلك! أن يهدأ العقل والعالم بما يكفي كي تصبح الحقيقة مرئيّة.

لابدّ أنها كانت ساعة متأخرة من الليل "حيث يتألّق الضوء الذي يجعل الأشياء تبدو كما هي" ــ ضوء الأرق. ترتسم عزلة قارئ الفلسفة وعزلة الفيلسوف معاً. الانطباع بأن واحداً يفكّر وهو يتوقّع حدّة ذهن الآخر انعطافة في التفكير وبداية للفهم الحقيقيّ.

يعتمد الفهم على علاقتنا الآن بما كنّاه: الكائن في اللحظة. يُؤجّج الوعي ضمائرنا، تاريخنا، الوعي هو ضوء الرؤية والتاريخ مثل ليلة مظلمة في الروح.

متعة الفلسفة هي متعة اختزال ـــ هي طقوس التلميح في عدّة كلمات إلى مسائل مُعقّدة. الشّعر والفلسفة كلاهما، مشغولٌ بالوجود. ما هي القصيدة الغنائيّة، ربما نقول، هي إعادة خلق لتجربة الوجود. في الحالتين، ذلك يحتاج أن تقبض على الجوهريّ، أن تقول ما لا يُقال، وأن تجعل حقيقة الوجود تتألق عبر ذلك.

من ناحية أخرى، فإنّ التاريخ ضد الاختزال. لا شيء مُنظّم فيه. إنه فوضى! هرج ومرج! تشابكٌ ميئوسٌ منه! تاريخي الشخصيّ وتاريخ هذا القرن مثل طفلٍ وأمه العمياء في الشارع. إنها تغمغم، تحدّث نفسها، تغني، وتنتحب وهي تعبر الطريق في تقاطعٍ مزدحمٍ.

أنت تعتقد أن المعنى الجوهريّ للتاريخ هو أن توقِف الحقيقة بسعادة على رأسها.

الشّعر المسكين. مثل بوستر كيتون رابط الجأش، وحده مع المرأة التي يحبها في سفينة جرفها التيّار في البحر العاصف. أو مثال أفضل مما سبق: الانجراف مرة أخرى في المحيط اللامتناهي، يرى كيتون لافتة، في الحقيقة هي لوحة التصويب لسفينة حربيّة. يصعدها، يُخرج صنّارته

والطُعم ويصطاد بسلام. هذا هو الشّعر العظيم. سَكينة فاتنة في وجه الفوضى. الشّعر حكيمٌ بما يكفي ليدّعي أنه معتوه.

وهناك التناقض دائماً: في رأسي دون كيشوت وطواحين هوائه بينما سانشو بانثا وبغله يركلان قلبي.

تلك فقط بعض كائنات الكلام. مَن الذي يستطيع أن يعيش من دونها؟ هل تقول الحقيقة؟ هل تكتمها؟ لا أعرف على الإطلاق. لهذا أُعاود الرجوع إلى الفلسفة. أُريد أن أتعلّم كيف أُفكّر بوضوح في هذه المسائل.

إنه الصباح. إنه الليل. الكتاب مفتوح. النصّ صعب؛ النصّ غامض لحظيّاً. يتوه عقلي. يُناضل ليفهم ذلك الشيء المبهم، الذي يتم التلميح إليه دائماً ـــ أيّاً كان هو.

هو، هو، أسمّيه هو. الأُلفة مع "هو" دون معرفة سابقة ـــ مثل سكون كونيّ في أُذني.

أخيراً، وأنا على وشك أن أستسلم، وجدتُ المقولة التالية عند مارتن هايدغر: "لم يحدث أبداً واقتحم مُفكّر عزلة مُفكّر آخر. ولكن بشكلٍ غامض، ومن داخل تلك العزلة، يتحاور كل تفكير مع ما سيأتي بعده أو مع ما كان قد سبقه بالفعل".

للحظة حضروا جميعاً معاً: الشّعر، الفلسفة، التاريخ. أنا أرى - بمعنى أني أستطيع أن أتخيّل وأشعر - بالحمولة الإنسانيّة لعُزلة أخرى. كثيرٌ منهم يجلسون مع كتاب. يطلع الصباح. تصبح الفكرة مشهداً. المشهد يُصبح فكرة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢٧

تعود أولى ذكرياتي إلى سنة ١٩٤٢ أو ١٩٤٣. أظنه كان شتاء. أخذتني أمي إلى الأوبرا، إلى عرْض "زواج فيجارو" لموتسارت. إنه الفصل الأوّل، سوزانا وفيجارو يركضان هنا وهناك في صالون من القرن الثامن عشر. هناك عدّة طاولات وفوقها شمعدانات موقدة. في لحظة اقتربت سوزانا من إحداها، فأمسكت النار بالوشاح الطويل الذي كانت تضعه على كتفيْها. شهق الجمهور. توقفتْ عن الغناء، وقبضت بيديها على رأسها في رعب، بينما اللهب يكبر ويتصاعد. فيجارو، دون أن يخرج عن الإيقاع، انتزع الوشاح بسرعة، رماه على الأرض، وداس عليه مثل راقص أسبانيّ. كل هذا وهو يغني تلك الموسيقى البديعة.

١٩٨٥-١٩٩٠

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون:٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+

بريد إليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني:www.kotobkhan.com



علمتني حياتي أن التخطيط للمستقبل مضيعة للوقت. اعتاد أبي أن يسألني مازحاً: "إلى أين ستهاجر المرة القادمة؟". ما زالت تجربة القرن العشرين في المنافي مستمرة. من هم مثلنا كانوا حيوانات تجارب. أغرب ما في الأمر، أن يقوم واحد من فئران التجارب بكتابة الشعر.

هل صحيح أن المرء يتلبسه الحنين للأهوال عندما يتقدم في العمر؟ أنا أشتاق إلى ظهيرة من أغسطس ما بعد الحرب. أنا وأمي وأخي تحت تهديد السلاح نمشي على أقدامنا من سجن إلى آخر. في لحظة نمرّ ببستان ويسمح لنا الحرّاس بأن نتوقف ونقطف بعض التفاحات. شيء لا مثيل له في العالم؛ التهام التفاح ونحن نتحدث مع حرّاسنا.

تشارلز سيميك، شاعر أمريكيّ من أصل صربيّ، من مواليد بلجراد ١٩٣٨. أصدر أكثر من سبعين كتّاباً بين شعر ونثر وترجمة. اختارته مكتبة الكونجرس أميراً للشعراء في الولايات المتحدة الأمريكيّة ٢٠٠٧، كما حصل على العديد من الجوائز منها بوليتزر ١٩٩٠، جريفين ٢٠٠٤، وجائزة والاس ستيفنز في ٢٠٠٧. يعمل سيميك أستاذاً للأدب بجامعة نيوهامشر.

إيمان مرسال، شاعرة مصريّة وأستاذ مساعد الأدب العربيّ ودراسات الشرق الأوسط بجامعة ألبرتا، كندا. من كتبها، "جغرافيا بديلة" ٢٠٠٦، و"حتى أتخلّى عن فكرة البيوت" ٢٠١٣. يصدر مشروعها السرديّ عن الأمومة في خريف ٢٠١٦، ضمن مشروع "كيف تـ" بالتعاون مع مؤسسة مفردات.

صورة الكاتب طفلا مع والده عائدين من مباراة لكرة القدم في 1942.




ISBN 978-977-803-010-5
9 789778 030105 >